صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس

دكتور
أحمد مختار العبادى

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

صور من حياة
الحرب والجهاد فى الأندلس

أستاذ دكتور
أحمد مختار العبادى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٠

الناشر
منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

إهداء

إلى زوجتى رمز التضحية والعطاء ...

... أم أولادى وشريكة حياتى

فى حلوها ومرها وحربهاوسلامها

... وتلك هى سنّة الحياة ...

د.أحمد مختارالعبادى

الفصل الأول

صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس
من الفتح الإسلامى حتى سقوط الخلافة الأموية
ونهاية عصر الطوائف

(٩١ - ٤٧٩ هـ / ٧١١-١٠٨٦ م)

تقديم :

ذكر عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمة تاريخية تحت باب : « الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها » ، أن الحرب أمر طبيعى فى البشر ، لا تخلو عنه أمة ولا جيل منذ بدء الخليقة .

ثم يقسم هذه الحروب إلى أربعة أصناف :

الصنفان الأولان منها يسميهما حروب بغى وفتنة وهما :

أ- حروب الانتقام التى تقوم على الغيرة والمنافسة والعصبية وتحدث عادة بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة .

ب- حروب العدوان التى تقوم على الغارات والسلب والنهب وتحدث عادة بين الأمم المتوحشة الساكنين فى القفر ، الذين جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ، ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم .

أما الصنفان الأخيران من الحروب ، فيسميهما حروب جهاد وعدل وهما :

أ- الحروب التى تجرى غضبًا لله ولدينه وهو المسمى فى الشريعة بالجهاد.

ب- الحروب التى تقوم بها الدولة ضد الخارجين عليها والمانعين لطاعتها(١) .

وموضوعنا فى هذه الدراسة ، يدخل فى نطاق هذين الصنفين الأخيرين وهما حروب الجهاد والعدل ، ويدور حول حياة الحرب والجهاد فى الأندلس وما يتصل بها من إعداد الجيوش وتدريبها وتعبئتها ، وتطوير أنواع الأسلحة وأساليب القتال ، ووسائل الدفاع والهجوم ، وطرق التجسس ، ووسائل الإعلام ، وتقوية روح الجنود المعنوية ، وذلك على مرّ العصور الإسلامية فى الأندلس ، وأعطيته عنوان : « صور لحياة الحرب والجهاد فى الأندلس » .

---

(١) راجع (عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ص ٢٧٠ - ٢٧٩) .

وقسمته إلى أربعة فصول زمنية :

الأول : من الفتح الإسلامى حتى سقوط الخلافة الأموية ونهاية عصر الطوائف .

والثانى : فى عصر دولة المرابطين .

والثالث: فى عصر دولة الموحدين .

والرابع والأخير : فى عصر دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة .

ولقد تجنبت الكلام عن الأساطيل والقتال البحرى ، لأننى سبق لى أن عالجت ذلك فى تصانيف أخرى[١] .

---

(١) راجع كتابى (دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس) وكتاب تاريخ البحر الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط الجزء الثانى بالاشتراك مع د. السيد عبد العزيز سالم) .

الفصل الأول

صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس
من الفتح الإسلامى حتى سقوط الخلافة الأموية
ونهاية عصر الطوائف

أولاً : التقسيم الإدارى والعسكرى للأندلس :

المراد بالأندلس هو أسبانيا الإسلامية فى شبه جزيرة إيبيريا التى تقع فى جنوب غرب أوروبا .

ونلاحظ فى هذا الصدد ثلاثة أسماء متداخلة أطلقت على هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة وهى :

١) **إيبيريا Iberia** : وهو الاسم القديم الذى أطلقه الفينيقيون والإغريق على شبه الجزيرة نسبة إلى العناصر الأيبيرية الحامية الليبية Iberos التى هاجرت إليها من شمال أفريقيا واستقرت فيها وأعطتها اسمها إيبيريا .

٢) **أسبانيا أو هسبانيا Hispania** : وهو الاسم اللاتينى الذى أطلقه الرومان على شبه الجزيرة ، ولعله مشتق من هسبريا Hesperia أى نجمة الغرب أو أرض الغرب المتاخمة للمحيط الأطلنطى . أو من كلمة Saphan سفان أى أرض الأرانب الجبلية التى اشتهرت بها إلى اليوم .

٣) **الأندلس Al-Andalus** : وهى التسمية التى قيل أنها مشتقة من اسم قارة أطلانتس الغارقة بجوارها فى المحيط غرباً أو أنها مشتقة من اسم قبائل الوندال الجرمانية التى غزت أسبانيا من الشمال فى القرن الخامس الميلادى واستقرت فى سهلها الجنوبى وأعطته اسمها واندلوس Vandalus ثم جاء المسلمون وعربوا هذه الكلمة إلى أندلس .

وظلت كلمة أندلس تعنى أراضى الدولة الإسلامية فى شبه جزيرة إيبيريا ففى بادئ الأمر أطلقت على شبه الجزيرة كلها على اعتبار أنها كانت فى يد المسلمين ، ثم أخذ مدلولها الجغرافى يقل شيئاً فشيئاً تبعاً للوضع السياسى الذى

كانت عليه الدولة الإسلامية فى أسبانيا حتى صار اسم أندلس آخر الأمر قاصراً على مملكة غرناطة وهى آخر مملكة عربية إسلامية فى جنوب شرق أسبانيا .

ولازالت كلمة اندالوثيا Andalucia تطلق حاليًا على الولايات الجنوبية الأسبانية مثل غرناطة واشبيلية وقرطبة ومالقة .

ويلاحظ أن وضع الأندلس الجغرافى كثغر فى الأطراف الغربية البعيدة للعالم الاسلامى ، وبجوار الغرب المسيحى فى قلب أوروبا ، قد جعلها فى مواجهة مستمرة دائمة مع الدول اللاتينية المسيحية هناك . وهذا جعلها بالتالى تتأثر بمؤثرات محلية أوروبية بحكم البيئة التى نشأت فيها .

وهذا الوضع الأوروبى الجغرافى الذى تميزت به الأندلس ، وهذا التداخل المستمر بين الإسلام والمسيحية فى شبه جزيرة إيبيريا ، قد أعطى الأندلس – رغم تعلقها بالوطن الأم – طابعًا فريداً وشخصية مستقلة مميزة ، ذات سمات إسلامية عربية أسبانية ولا يمكن أن نصفها إلا بهذه السمات الثلاث .

وإذا طبقنا هذه الظاهرة على التقسيم الإدارى الحربى بعد الفتح الإسلامى، نجد أن الأندلس كانت مقسمة تقسيماً إدارياً محكمًا عندما فتحها المسلمون ، وأن ولاة المسلمين لم يجدوا صعوبة فى إدارتها أو جباية خراجها ، أو الدفاع عنها مما يدل على أنهم وجدوا فيها نظاماً إدارياً ودفاعيًا واضحًا ومقبولاً منذ أيام الرومان والقوط ، فأقروه وعملوا به .

والواقع أن من يدرس جغرافية شبه جزيرة إيبيريا ، يجد أن حدودها الطبيعية الجغرافية ، تصلح تماماً لأن تكون حدوداً إدارية وعسكرية . فسلاسل الجبال ووديان الأنهار التى تقطعها فى خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس ، قد قسمتها إلى أقسام طبيعية يمكن تحويلها إلى وحدات إدارية وعسكرية واضحة المعالم . فما كان على المنظم إلا أن يثبّت حدود هذه الوحدات ويعين قواعدها ، وهذا ما فعله الرومان والقوط ثم العرب(١) .

---

(١) راجع : Levi Provençal : Historia de Espana , tradución por Garcia Gomez, tomo V P. 26-31, Madrid 1957).

وكذلك (حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦٥ وما بعدها) .

ولقد أطلق الرومان على بعض هذه الأقسام الإدارية الكبيرة اسم بروفنكياس Provincias أى ولايات أو مقاطعات . كما أطلقوا على بعضها الآخر اسم كيفتاس Civitas بمعنى المدن الكبيرة ذات الأحواز الواسعة . ثم جاء المسلمون فاحتفظوا بهذه التقسيمات الإدارية ، ولكنهم سموها كورا بدلاً من بروفنكياس ومدنا بدلاً من كيفتاس ، وأضافوا إليها من المنشآت والأبنية التى تعطيها الشكل الإسلامى المميز لها ، كالمسجد الجامع ، وقصر الإمارة أو الخلافة ، والقصبة والأسوار والأسواق والدروب والقيساريات... الخ (١) مما يدل على أن المسلمين وإن كانوا قد عملوا بالنظام الرومانى والقوطى الذى وجدوه بالأندلس ، إلا أنهم أضافوا وعدلوا بما يناسب طبيعة دولتهم العربية الإسلامية ، ويتمشى مع ما عرفوه من نظم إدارية فى الشرق حيث كان نظام الكور معمولاً به من قديم ولا سيما فى مصر والشام منذ العهد البيزنطى (٢). غير أنه يلاحظ أن الكورة فى الأندلس كانت أوسع وأكبر من الكورة فى المشرق كما يشير بذلك المقدس من حيث أنها كانت تنقسم إلى أقاليم وأعمال وأحواز .

أما المدينة فهى كلمة سامية آرامية الأصل ، أى عربية ، وتطلق على المكان الذى يتوفر فيه العدل والأمن ، إذ أن المقطع دينْ فى الكلمة يدل على معنى العدالة وهذا يعنى أنها مقر السلطان أو من يمثله (٣).

وعلى هذا الأساس كانت الأندلس فى مجموعها مقسمة إلى كور ومدن : فالكور هى الولايات الداخلية التى شمل نظامها جنوب الأندلس وشرقها وغربها، ويحكم كل كورة منها وال بمرسوم خلافى .

أما المدن فهى أيضاً أقسام إدارية كبيرة تقع شمالاً بعرض الأندلس من شرقها إلى غربها وتشمل منطقة الثغور العسكرية التى امتدت بين أنهار الإبرو Ebro والدويره Duero والتاجو Tajo . وتصل إلى الوادى الكبير

---

(١) راجع : Torres Balbàs : Aspectos de las cuidades Hispanomusulmanes
مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد الجزء الثانى سنة ١٩٥٤ ص ٧٧-٩٨ .

(٢) الكورة تعنى المقاطعة أو الولاية وهى من الأصل اليونانى خوره واللاتينى Curia .

(٣) أنظر : (Ira Lapidus : Middle Eastern Cities P. 74, California 1969)

Guadalquivir. فكانت بمثابة السياج أو الدرع الحامى للكور الداخلية . ويحكم المدينة قائد بمرسوم خلافى أيضاً .

ولقد انقسمت هذه الثغور أو الخطوط العسكرية إلى أربع جبهات أيام الأمويين وهى :

١) **الثغر الأعلى** ، وهو الخط الدفاعى الأول فى الشمال ويمتد على وادى الإبرو Ebro الذى يصيب فى البحر المتوسط شرقاً . وقاعدته هى مدينة سرقسطة Zaragoza (١). وكان يواجه مملكة أراجون وقطالونيا فى شمال شرق أسبانيا .

٢) **الثغر الأوسط** ، وقاعدته مدينة سالم Medinaceli شمالى مدريد بنحو ١٥٣ ك.م فى مقاطعة سوريا فى أعالى وأواسط نهر دويره Duero الذى يلى وادى الابرو جنوباً ويصب فى المحيط الأطلسى غرباً . ولقد عرفت مدينة سالم من قديم باسم Ocilis فى العصر الرومانى . ولما فتح العرب أسبانيا عمّر هذه المدينة زعيم مغربى اسمه سالم بن ورعمال المصمودى من قادة الرعيل الأول فسميت باسمه مدينة سالم . وفى عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر صارت هذه المدينة قاعدة للثغر الأوسط سنة ٣٣٥هـ /٩٤٦م فى مواجهة إمارة قشتالة الناشئة Castilla عند سفوح جبال وادى الرملة Sierra de Guaderrama التى تشق الهضبة الوسطى .

٣) **الثغر الأدنى** ، وهو الخط الذى يلى الدويره جنوباً ويمتد على وادى التاجو Tajo الذى يصب فى المحيط الأطلسى غرباً، وقاعدته مدينة طليطلة (٢) Toledo وكان يواجه مملكة ليون والجلالقة فى شمال غرب أسبانيا .

٤) **الوادى الكبير Gadalquivir** ، فى الجنوب ويصب فى

---

(١) سرقسطة مدينة رومانية اسمها الأصلى Cesar Augusti على اسم القيصر الرومانى أوغسطس ثم حرّفه الأسبان Zaragoza وعربه المسلمون إلى سرقسطة .

(٢) طليطلة اسمها اللاتينى القديم تولاطو Tolatum ويذكر البكرى أن معناه ، فرح ساكنها، لارتفاعها وحصانة موقعها والتفاف نهر التاجو حولها . وقد ثبت من مشتقات هذه الكلمة ما يدل على معنى حافة أو سفح الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى .

المحيط الأطلسى غربًا عند مدينة قادس Cadiz . وتقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة واشبيلية . وكان يسمى فى الأصل بيطى Betis . ويتفرع منه نهر صغير يسمى شنيل Genil يغذى مدينة غرناطة فى الجنوب الشرقى . وقد مدحه الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب بقوله : وما لمصر تفخر بنيلهاوألف منه فى شنيلها !! (على اعتبار أن حرف الشين فى بداية العدد يحسب بألف فى اللهجة العامية) .

وهكذا صارت المدن الأندلسية فى هذه الخطوط الدفاعية أشبه بقوس الدائرة الممتد من البحر الأبيض المتوسط شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا .

على أنه يلاحظ أن مفهوم المدينة Civitas عند الرومان كان أوسع من مفهومها عند المسلمين الأوائل بالشرق . إذ لم تكن المدينة عند الرومان مجرد مدينة بأرياضها وقصبتها وأسوارها ، بل كانت المدينة وما يتبعها من مدن وأقاليم أخرى واسعة .

ولهذا حينما فتح المسلمون أسبانيا ، أقروا التقسيم الرومانى القديم الخاص بالمدينة كقسم إدارى كبير يحتوى على مدن وأحواز فسيحة مثل الكورة أو الولاية تمامًا . ومثال ذلك مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى التى كانت تتبعها مدائن كبيرة مثل : قلعة أيوب Calatayud (١) ، ولاردة Lerida ، وتطيلة Tudela ، ووشقة Huesca ، وطرطوشة Tortosa وغيرها .

وكذلك الحال بالنسبة لمدينة طليطلة قاعدة الثغر الأدنى ، التى كانت تتبعها مدائن أخرى على ضفاف التاجو مثل مجريط Madrid ، ومدينة الفرج أو وادى الحجارة Guadalajara وقونقة Cuenca وأقليش Uclés وطلبيرة Talaversa وغيرها .

كذلك يفهم من كلام الجغرافيين أن قرطبة Cordoba العاصمة لم تكن

---

(١) نسبة إلى القائد أيوب بن حبيب اللخمى الذى ولى إمارة الأندلس بعد مقتل ابن خاله عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٧هـ ، والذى ينسب إليه بناء هذه القلعة التى صارت الآن مدينة كبيرة عامرة تحمل اسمه وهى قلعة أيوب Calatayud .

كورة بل كانت تعتبر مدينة على الوادى الكبير ذات حوز كبير فيه خمس مدن تتبعها .

وهذا النظام لم يعرف فى المشرق الإسلامى حيث كانت المدن تتبع الكور أو الأقاليم التى تقع فيها . أما فى الأندلس فالمدن مثل الكور عبارة عن أقسام إدارية كبيرة تتبعها مدن أيضاً .

هذا ، ويلاحظ كذلك أن كلاً من الكور أو المدن فى الأندلس كان لها استقلالها الإدارى والعسكرى عن العاصمة قرطبة وهذا يدل على أن الأندلسيين لم يحرصوا على نظام المركزية – المعروف فى المشرق – فى جهازهم الإدارى ، لأن طبيعة البلاد الجبلية الصعبة تتنافى مع هذا التركيز سواء فى الكور أو المدن . فولاة الكور وقواد المدن كان لهم قسط كبير من النفوذ المحلى، ومن حرية التصرف دون الرجوع إلى الخليفة فى قرطبة .

ويمكن القول بأن هذه اللامركزية كانت صفة عامة فى تاريخ أسبانيا الإسلامية والمسيحية بوجه عام حتى اليوم . وقد ساعدت هذه اللامركزية على قيام حركات استقلالية فى فترات ضعف الحكومة المركزية وهى المعروفة فى التاريخ الأندلسى بعصور الطوائف أو الفرق .

كذلك يبدو أن ارتباط مدن الثغور بقواعدها وتجاورها ببعضها مع بعض فى خطوط دفاعية ، قد ساعد على انهيار تلك الخطوط عقب سقوط قواعدها الرئيسية . فسقوط مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأدنى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٥م أدى إلى انهيار خط التاجو كله بحيث تكوّنت من أراضيه الواسعة ولاية أسبانية جديدة فى قلب الأندلس وهى قشتالة الجديدة Castilla la Nueva تمييزًا لها عن قشتالة القديمة Castilla la Vieja (١) وبالمثل يقال بالنسبة لمدينة سرقسطة

---

(١) عبر الشاعر الطليطلى ابن غرنون البحصبى المعروف بابن العسال عن هذا الوضع بقوله :

شدّوا رواحلكم يا أهل أندلس	فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط!

(ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١١٨) .

قاعدة الثغر الأعلى فى وادى الإبرو ، ولمدينة قرطبة العاصمة قاعدة الوادى الكبير .

ولهذا كانت كل من سرقسطة وطليطلة وقرطبة ، تعتبرمن أهم المدن فى شبه جزيرة إيبيريا خلال عصورها الرومانية والقوطية والإسلامية لأن كلاً منها كانت بمثابة فرضة أى رأس جسر لمن يريد عبور الإبرو أو التاجو أو الوادى الكبير (١) .

هذا الوضع الجغرافى والعسكرى لأسبانيا ، جعلها ميدان صراع بين المسلمين والمسيحيين فى تاريخها الوسيط . ولذا اعتبرت الأندلس فى نظر المسلمين دار جهاد وموطن رباط ، ووصفوها بكلمات تعبر عن هذا المعنى لتستدر العطف والتأييد والمؤازرة مثل اليتيمة والغريبة وأهلها الأيتام والغرباء ، ولعلها تتصل برواية الحديث النبوى القائل : « ولد الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » .

ومن الطريف أن أمثال هذه الكلمات وردت منذ الفتح الإسلامى فى الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد فى قوله : « واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام !! » كذلك وردت فى وصية الخليفة الموحدى يعقوب المنصور حين حضرته الوفاة ، إذ قال لمن حوله : أوصيكم بتقوى الله تعالى وباليتيمة والأيتام ، فسأله أحد الحاضرين ومن اليتيمة والأيتام ؟ فقال : اليتيمة جزيرة الأندلس ، والأيتام سكانها المسلمون (٢) . كذلك فى قول الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب :

« جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار ، وأعاننا على إقامة دينه فى هذا الوطن الغريب المتقطع بين العدو والطاغى والبحر الزخار »(٣) .

واستمرت فكرة الجهاد وجنة الخلد وارتباطها بالأندلس مختمرة فى نفوس

---

(١) راجع (حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٣٦) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، القسم الثالث ، الخاص بتاريخ الموحدين نشر أوبنى ميراندا ص ٢٠٨ (تطوان سنة ١٩٦٠) .

(٣) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ٦ ص ١٦٦ .

أهل المغـرب والأندلس لدرجـة انـهم فـسروا بهـا أبيـاتاً من الشـعـر فى وصف الطبيعة !! لأبى اسحاق ابراهيم بن خفاجة الأندلسى فى قوله :

يـا أهــلَ أندلــس للّه دَرُّكـــمُ ماءٌ وظـلٌ وأنهــارٌ وأشجــارُ
ما جنةُ الخُلدِ إلاّ فى ديـاركمُ ولو خُـيرتُ هـذه كنتُ أختارُ
لا تحسبوا بعدها أن تدخلوا سَقَرَاً فليس تُدخلُ بعد الجنة النارُ (١)

فـيروى فى هذا الصدد أن رسولاً من الأندلس يدعى الخليلى أنشد هذه الأبيات على سبيل الفخر أمام عاهل المغرب السلطان أبى عنان فارس المرينى الذى لما سـمعهـا ثار غـاضـباً واتهم ابن خـفاجـة بالكذب والإغراق ، إذ كـيف يفضل جنة الأندلس على جنة الخلد والآخرة فـرد عليه السفير ، الخليلى : يا مولانا ، بل صدق الشاعر ، لأن الأندلس موطن جهاد ومفارعة للعدو وجلاد ، والنبى (ﷺ) الرؤوف الودود الرحـيم العطوف يقـول : « الجنة تحت ظلال السيوف » ، فاستحسن السلطان منه هذا الكلام(٢) .

هذا الوضـع السيـاسى والحـربى للأنـدلس ، قـد فـرض على أهلهـا تدريب أبنائهم منذ الصغر على فنون الحرب والقتال ليكونوا على أهبة الاستعداد فى كل لحظة . كذلك كانوا يحثونهم على قراءة سير الأبطال مثل سيرة الشاعر الجاهلى عنترة بن شداد العبسى وغيره .

ومن طريـف مـا يروى فى هذا الصدد أن الوزير أمية بن عيسى بن شهيد على عـهد الأمير الأموى مـحمد بن عبد الرحمن الأوسط ذهب يومًا إلى دار الرهائن بقرطبة لتفقد رهائن بنى قسى وغيرهم من أبناء الثوار على الدولة ، فوجدهم ينشدون شعر عنترة الحماسى أمام المؤدب ، فما كان من الوزير إلا أن نهر المؤدب وقال له : « لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك أدباً موجعاً ، تعمد إلى

---

(١) ديوان ابن حفاجة ص ٣٦٤ تحقيق السيد مصطفى غازى (دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٠) .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٩٨ وحول هذه الفكرة عبر أمير الشعراء أحمد شوقى عن حبه لوطنه حتى ولو كان فى جنة الخلد بقوله :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

شياطين أبناء شياطين ، قد شجى بهم الخلفاء ، فترويهم شعر عنترة والشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ؟ كف عن هذا ولا ترويهم إلا خمريات الحسن بن هانى ، وشبهها من الأهزال ، ومثل شعر عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وغيرهما من أمثاله !! (١)

هذا النص السالف الذكر يبين لنا مدى انتشار هذا النوع من الثقافة التربوية العسكرية بين شباب الأندلس إلى درجة أن أحد الوزراءحاول حجبها عن كل من لا يستحقها من الخارجين على الدولة .

ثانيًا : التحصينات الداخلية والساحلية :

لاشك أن الأخطار التى كانت محدقة بالأندلس فى العصر الأموى ، سواء من الشمال حيث الممالك المسيحية الأسبانية ، أو من الجنوب حيث الخطر الفاطمى الشيعى فى المغرب ، أو من البحار المحيطة بها حيث غارات النورمانديين (الفايكينج) على سواحلها ، كل هذا فرض على حكومة قرطبة العمل على تحصين مدن الأندلس بالقلاع والحصون والأسوار ، وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من أقوات ومؤن وذخيرة لمقاومة أى هجوم أو حصار يقع عليها هذا إلى جانب الحملات التأديبية (الصوائف والشواتى) التى كانت ترسلها إلى مصادر هذه الأخطار لردعها .

وتنقسم هذه الوسائل الدفاعية إلى قسمين :

١- التحصينات الداخلية لا سيما فى مناطق الثغور الشمالية والمناطق الجبلية .

٢- التحصينات الساحلية كالروابط والمحارس والمناور والطلائع .

١- *التحصينات الداخلية :*

سبقت الإشارة إلى أن مسلمى الأندلس ، استغلوا طبيعة أسبانيا الجبلية فى

---

(١) ابن سماك العاملى : الزهرات المنثورة ص ١٢٢ - ١٢٣ تحقيق محمود مكى (مدريد سنة ١٩٨٤) .

تكوين شبكة دفاعية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار التى تقطعها فى خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس ، خطوطاً دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها . وقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل سرقسطة وطليطلة ، ومدينة سالم وقرطبة وغيرها من المدن والقلاع والحصون التى كانت أشبه بقوس الدائرة الممتد من البحر المتوسط شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً على النحو التالى :

القلعة والقصبة :

كانت الحصون الكبيرة فى الأندلس تسمى بالقلاع . وقد دخلت كلمة قلعة فى اللغة الأسبانية فى صورة Alcalá وبالتصغير أيضًا قليعة Alcolea . وصارت تطلق على أماكن جغرافية كثيرة فى أسبانيا إلى اليوم . وهى تقابل كلمة القصبة Alcazaba التى شاع استعمالها فى بلاد المغرب وكذلك فى بعض المدن الأندلسية مثل غرناطة ومالقة والمرية وبطليوس وكانت هذه القلاع تشيد فى أماكن مرتفعة وتشرف على سهول خصبة عامرة بالسكان وتتولى حمايتهم وقت الغارات . ومن أمثلة ذلك :

قلعة أيوب Calatayud جنوب سرقسطة .

قلعة رباح Calatrava غربى طليطلة .

قلعة التراب Calatorao فى ولاية سرقسطة .

قلعة النسور Claltanazor فى مقاطعة سوريا Soria شمال أسبانيا .

قلعة عبد السلام Alcala de Henares بين مدريد ووادى الحجارة .

قلعة يحصب أو بنى سعيد Alcala La Real فى غرناطة

بلاد القلاع Castellas فى ولاية Rioja ريوخا ثم صارت بعد اتحادها تسمى قشتالة .

بلدة قشتال Castril بغرناطة .

قلعة جابر Alcalá de Guadaira الحصن الأمامى لإشبيلية .

الحصن :

ويلى القلعة من حيث الأهمية والاتساع ، الحصن ، وهذه التسمية دخلت

أيضاً فى اللغة الأسبانية واتسمت بها مواضع عديدة مثل :

حصن آشر Iznajar فى قرطبة

حصن اللوز Iznalloz فى غرناطة

حصن التراب Iznatoraf فى جيان

حصن الفرج Isnalfaráche فى اشبيلية وهى غير مدينة الفرج أو وادى الحجارة Guadalajara قرب طليطلة شمالاً .

ويقع الحصن عادة فى مكان مرتفع ، وله مثل القلعة أبراج وأبواب حديدية تمتد منها قنطرة متحركة يمكن رفعها ، ويحيط به خندق ملىء بالمياه . وفى خارج الحصن ربض [1] يقام فيه المسجد ، وبجواره بعض الحوانيت لأهل الحرف والتجارة ، وكذلك مساحة زراعية محدودة (محرث) إذ كان يسمح لجنود الحامية بممارسة الزراعة والرعى فى تلك الأراضى المجاورة للحصن ، وفى حالة الحرب تنتقل هذه الجموع بأمتعتها ومواشيها إلى داخل الحصن .

القصر:

كذلك استخدم فى هذا المعنى الحربى لفظ القصر ، وهو لا يعنى هنا عمارة مدنية بل أشبه بقلعة حربية . وقد شاع استخدامه فى الأعلام الجغرافية الأندلسية ودخل فى اللغة الأسبانية على شكل Alquezar فى الثغر الأعلى وعلى شكل Alcacer do Sal أى قصر أبى دانس فى غرب الأندلس (البرتغال) قصر شنيل Alcazar Xenil . ومن المعروف أنه فى شمال المغرب الأقصى وجدت مدينتان باسم القصر الكبير والقصر الصغير .

البرج :

كان من الطبيعى أن ترتبط هذه التحصينات الدفاعية بما يسمى بالبرج

---

(١) الربض والجمع أرباض وهى الضواحى أو الأحياء الخارجية للمدينة . وكانت قرطبة محاطة بأكثر من عشرين ربض أشهرها الربض الجنوبى الذى قامت فيه ثورة الهبج على عهد الحكم الربضى بن هشام ولا يزال يعرف إلى الآن باسم Arrabal .

والأبراج لمراقبة العدو والإنذار بهجومه . ومازالت أسبانيا تحتفظ ببعض المواضع التى تعرف باسم البرج مثل مدينة Burgos فى شمال أسبانيا ، Alborge فى سرقسطة ، Borje فى مالقة (١) .

الصخور:

إلى جانب القلاع والحصون والقصور والأبراج ، وجدت استحكامات دفاعية أخرى تعرف باسم الصخور والصخيرات وهى حصون جبلية مسورة بطبيعتها الجغرافية من غير تعديل ، ويصعب الوصول إليها ومن أمثلة ذلك صخرة حبيب وصخرة قيس فى غرناطة ، وحصن الصخيرات على نهر شقورة Segura فى شمال غرب مرسية(٢) .

ويلاحظ أن جبل طارق أُطلق عليه فى بادئ الأمر اسم الصخرة Penia وهناك أيضًا أسماء عديدة أُطلقت على الوسائل الدفاعية وانتقلت إلى اللغة الأسبانية مثل :

القنطرة Alcantara .

الدَّرب Adarve وهو الطريق الملتف .

الطلائع Atalayas وهى مراكز الحراسة التى تبنى على الخطوط الدفاعية المتقدمة .

المدوَّر Almodóvar قد يكون اسم الحصن وصفًا لهيئته مثل لفظ المدوَّر الذى أُطلق على عدة حصون فى مناطق مختلفة من الأندلس مثل قرطبة ووشقة Huesca (٣).

---

(١) محمود على مكى : مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى أسبانيا (مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ٦١ ، مارس- ابريل سنة ١٩٩٥ م / شوال – ذى القعدة ١٤١٥هـ) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٥٦ -٢٥٧ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١١٦ رقم ١٠٩ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الأندلس ص ١٥٧ وما بعدها .

وهناك كلمة الستارة Acitara وتطلق على الحائط الخارجى الذى يحتمى خلفه المدافعون عن حصن أو سور . كذلك يستخدم المهاجمون الستائر للوقاية من قذائف وسهام العدو .

وهناك ما يُسمى بالبريخان Barbacan وهو بمثابة جدار أمامى أقل ارتفاعاً من السور الرئيسى .

وهناك الأبراج البرانية التى عرفت بالأسبانية باسم Torres Albarraneas وهى الأبراج البرانية الخارجة عن نطاق السور .

أما القوراجة Coracha فهى سور فرعى قصير أو ستارة تتصل بالسور الأصلى وتنتهى عادة ببرج برانى يدعم الدفاع عن المنطقة التى يقوم فيها . وعادة ما يقام فى المنطقة التى تحميها القوراجة بئر يستمد ماءه من وادٍ مجاور لإغاثة الذين يهددهم الحصار (١).

وأخيراً وليس آخراً هناك المطامير جمع **مطمار** وهى حظيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب . وهناك **الفجوج** وهى السراديب التى يختبئ فيها المجاهدون تحت الأرض .

وقد أمدتنا المصادر الجغرافية الإسلامية بمعلومات هامة عن هذه الوسائل الدفاعية من خلال وصفها للمدن الأندلسية ومثال ذلك ابن سعيد المغربى فى قوله :

« وأكثر مدن الأندلس مسوّر من أجل الاستعداد للعدو ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين . وفى حصونها ما يبقى فى محاربة العدو ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ، ودربة أهلها على الحرب ، واعتيادهم ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة » (٢).

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٣٩٢ نشر عبد الهادى التازى . انظر كذلك :
Huici Miranda : Historia politica del Imperio Almohade P. 240, Robert Ricard : Coura et Coracha, Al Andalus Vil. XIX 1945 P. 149 Salem Abdel Aziz : Obras Almodades en la Muralla de Sevilla
فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد العشرون سنة ١٩٨٠ ص ١٧٢).
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٩١ .

وحول موضوع تحزين الغلة ، تحدث صاحب الروض المعطار عن ثغرطركونة Tarragona في شمال شرق الأندلس وقال بأنه وجد في أرباضها بيوتاً مملوءة بالقمح والشعير من الأزمان السالفة قد اسود حبه وتغيّر لونه(١).

وحينما يصف الحميرى مدينة لاردة Lérida بالثغر الأعلى يقول :

وتقع على نهر يُعرف باسم شيقر Segre جدد بنيانها اسماعيل بن موسى بن لب بن قسى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م) ، وحصنها منيع لا يرام ، ولا مطمع فيه بطول حصار . والحصن يطل على فحص Alfoz عريض خصب به بساتين الفواكه الغزيرة ، وكثرة الكتان والرعى ، ولا تخلو ضيعة منها أن يكون بها برج أو سرداب يمتنع فيه العامرون بها من العدو ، (٢).

ولقد أشار القزوينى إلى سراديب مماثلة فى مدينة أفراغة Fraga القريبة من لاردة السالفة الذكر ، وأن المحتمين بها أو اللاجئين إليها ، كان يمكنهم الخروج من تحت الأرض إلى الخارج بوسائل متعددة ، وقد أُطلقوا على هذه السراديب اسم « الفجوج » (٣).

ومن الثغور الشمالية الشرقية أيضاً مدينة طرطوشة التى امتازت قصبتها بالمنعة والسمو . وقد أحسن وصفها عبد الملك بن ادريس المعروف بالجزيرى الخولانى حين سجنه بها الحاجب المنصور بن أبى عامر :

---

(١) الحميرى : الروض المعطار فى أخبار الأقطار مادة رقم ١١٦ نشر بروفنسال ، ويذكرنا هذا القول برواية الرحالة ابن بطوطة حينما زار الهند الاسلامية فى أواخر القرن الثامن العجرى (١٤م) ووجد فيها أرزاً مخزوناً منذ تسعين سنة فى عهد السلطان التركى المملوكى بلبان . ويقول : وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب (راجع الرحلة جـ ٢ ص ٣) .

(٢) الحميرى : الروض المعطار مادة رقم ١٥٧ .

(٣) القزوينى : آثار البلاد وعجائب المخلوقات ، نشر وستنفلد جـ ٢ ص ٣٦٩ .
ولعل كلمة الفجوج من الكلمة الأسبانية Foyo أو Hoyo بمعنى الحفرة .
راجع (ليفى بروفنسال : الروض المعطار للحميرى ، الترجمة الفرنسية ص ٢٠٢ حاشية ١) .

فى رأس أجرد شاهقٍ عالى الذُرى	مـا بعـده لمـؤمل مـن مَمْصـرِ
يهوِى إليه كل أعور نـاعقٍ (١)	وتهـب فيه كلُّ ريح صـرصر
ويكـاد مـن يـرقـى إليــه مـرةً	من دهره يشكو انقطاعَ الأبهرَ(٢)

ويبدو أن مهارة الأندلسيين فى بناء الحصون والقلاع قد شجعت حكام المغرب على طلبهم للاستفادة من خبرتهم فى بناء الحصون ، ومثال ذلك الزعيم الزناتى موسى بن أبى العافية حاكم مدينة مليلة Melilla فى شمال المغرب الأقصى ، الذى طلب من الخليفة عبد الرحمن الناصر إيفاد عدد من المتخصصين فى بناء الحصون ، فأجابه عبد الرحمن الناصر إلى طلبه ، « وأخرج إليه محمد بن وليد بن فشتيق رئيس المهندسين لديه مع ثلاثين بنّاءً ، وعشرة من النجارين ، وخمسة عشر من الحفارين ، وستة من الجيارين المحسنين لعمل الجير ، وستة من الأشّارين لأشر الخشب ، ورجلين من الحدادين ، ورجلين من الحصّارين(٣) ، تخيّروا من حذاق طبقاتهم ، واحتملت لجماعتهم آلاتهم وأدواتهم المتصرِّفة فى صناعاتهم التى يخاولونها ، إلى عدد ، فأوصله حمْلها السلطان معهم استظهاراً على امتداد الأيام بهم فى العمل الذى يراد منهم » (٤).

٢- التحصينات الساحلية :

إلى جانب التحصينات الداخلية ، وجدت أيضاً رباطات أو روابط (جمع رابطة أو رباط) ومحارس وقصور على طول سواحل الأندلس لحمايتها من الغارات البحرية المفاجئة التى كان يقوم بها الأسبان والنورمانديون وكذلك الفاطميون الشيعة .

---

(١) يقصد نعيق الغربان .

(٢) الحميرى : الروض المعطار مادة رقم ١١٥ ، والمقصود بالأبهر شريان القلب .

(٣) نسبة إلى صناعة الحصار وهو شيء كالوسادة يوضع على ظهر الحصان أو الجمل ويركب فوقه أو نسبة إلى صناعة الحصير وهو بساط منسوج من القصب أو نبات الحلفا .

(٤) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ ص ٣٨٨ – ٣٨٩ نشر وتحقيق شالميتا ، وكورينطى ، وصبح (مدريد سنة ١٩٧٩) .

وكان أهل الأندلس مثل أهل المغرب ، شديدى التحمس للرباط والجهاد . فكان الكثيرون منهم يرحلون إلى المغرب للرباط على سواحله ، كما كان الكثيرون من المغاربة يرحلون إلى الأندلس للقيام بنفس العمل .

وقد اعتبر عمل المرابطين على السواحل رباطاً وجهاداً فى آن واحد، وكانت حياتهم مزيجاً من التعبد وعمارة الأرض المحيطة بحصونهم ومعاونة الجيوش النظامية فى الدفاع عن الثغور الاسلامية .

ومن أهم الرباطات الساحلية الأندلسية [١]، نذكر رباط مرية بجانة فى جنوب شرق الأندلس ، وهو نواة ثغر المرية Almeria . وكان الناس يرابطون على حاشية البحر المتوسط لحماية مدينة بجانة Pechina المجاورة له غرباً [٢] من غارات النورمانديين وغيرهم . ويقول الحميرى:

« وكان المجوس [٣] (أى النورمانديون) لما قدموا المرية وتطوفوا بساحل الأندلس ، فاتخذها العرب مرأى ، وابتنت بها محارس ، وكان الناس يرابطون فيها [٤]. وقد سمى هذا المكان فى بادئ الأمر باسم مرية بجانة ثم صار يسمى المرية . ويرى دوزى أن هذه التسمية مشتقة من فعل رأى ، فيقال هو مرأ وهى مرئية أو مرية كناية عن ظهور أبراجها ومناورها التى تراها السفن من بعيد .

وقد ظلت المرية مجرد رباط أو ميناء لمدينة بجانة حتى عهد الخليفة

---

(١) نقتصر هنا على روابط الأندلس ، أما روابط المغرب فقد أفردنا لها وصفًا فى كتابنا (دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ - ٢٩٦) .

(٢) لا شك أن كلمة بجانه كان ينطقها الأندلسيون بحينه بالإمالة التى هى لهجة أهل الأندلس وبذلك يطابق نطقها الأسبانى لبلدة Pechina وهى بلدة رومانية قديمة .

(٣) أطلق الأندلسيون اسم المجوس على النورمانديين لأنهم كانوا يحرقون الموتى من زعمائهم بسفنهم فظلنوا أنهم يعبدون النار مثل الزرادشتية أو الجوس وهى الديانة التى تنسب إلى زرادشت Zoroastre فى إيران (القرن ٧ ق.م.) الذى كان يرى الخير فى النور والشر فى الظلام لهذا عبدوا النار مصدر الشمس والنور والنهار فكأن الزرادشتية مرت فى مرحلتين : مرحلة تقديس النار ثم مرحلة عبادة النار وهى المجوسية .

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٣ .

الأموى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) الذى اهتم بموقعها وجعلها قاعدة لأسطوله ، وبنى حولها سوراً منيعًا من الصخر ، كما أنشأ بها دار صناعة لبناء السفن ، قسمت إلى قسمين : أحدهما للمراكب الحربية والعدد والآلات ، والثانى للمراكب التجارية وما يتبعها من مخازن وفنادق .

ومنذ ذلك الوقت أخذت ألمرية تعمر وتكبر عل حساب جارتها بجانة حتى صارت من أشهر المراسى وقاعدة القيادة العليا للأسطول ، بينما خربت بجانة وتحولت إلى قرية صغيرة بجوارها (١).

وتجدر الإشارة هنا من باب التشابه إلى أن مدينة الإسكندرية المصرية ، وصفت بعبارة مشهورة تقول « الإسكندرية مرية وترابها زعفران » ، ويلاحظ هنا أن مرية الاسكندرية اسم فرعونى قديم هو Merit بمعنى ميناء أطلق على بلدة فى جنوب الاسكندرية وتطل على بحيرة مريوط ثم حور اسم Merit إلى Maria فى العصر اليونانى الرومانى فقيل مرية الإسكندرية أى ميناؤها . وغير بعيد أن يكون معنى مرية الاسكندرية يطابق معنى مرية بجانة أى ميناؤها . أما القول « ترابها زعفران » فنسبة إلى الزعفران الذى كان يزرع فى ليبيا المجاورة ويباع بثمن غال أى أن ترابها ثمين من باب المديح (٢).

ونعود إلى مرية الأندلس حيث كان يقع فى شرقها رباط ساحلى عرف برابطة القابطة أو القبطة ولعلها قابطة بنى الأسود التى أشار إليها البكرى كموضع بجوار مرية بجانة(٣) . ويرى المستشرق الفرنسى ليڤى بروفنسال إنها تقابل اليوم المكان المعروف باسم Cabo de Gata (٤) . وقد حرص الخليفة

---

(١) العذرى : نفس المرجع ص ٣٧ ، ١٨٤ ؛ العذرى : المسالك والممالك نشر عبد العزيز الأهوانى ص ٨٦-٨٧ (مدريد سنة ١٩٦٥) .

(٢) فوزى الفخرانى : حفائر مدينة ماريا (كتاب اليوبيل الذهبى لجامعة الاسكندرية ١٩٤٣-١٩٩٣ ، كلية الآداب ص ٩٢ .

(٣) البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٨٤ .

(٤) انظر :

(Levi- Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane tome II P. 190) .

الأموى الحكم المستنصر على زيارة هذه الرابطة فى بداية حكمه ، لاهتمامه بأحوالها وأحوال المرابطين فيها .

كذلك يشير ابن الأبار إلى رباطات أخرى نشأت بجوار المرية ، ودفن فيها عدد من الفقهاء والزهاد المجاهدين مثل رباط عمروس ورباط الخشنى (١) ، ويشير الإدريسى إلى برج يحانس Punta Elena الذى كان يقع فى هذه المنطقة أيضًا لإيقاد النار فيه عند ظهور العدو فى البحر (٢). ولعله اليحانس Ohanes الحالى بولاية المرية ، وينسب إليه الشيخ العارف بالله صاحب الكرامات ، أبو مروان عبد الملك القبسى اليحانسى (ت ٦٦٧هـ / ١٢٦٩ م)(٣).

كل هذا يدل على أن المرية كانت تعتبر من الموانى الأندلسية الهامة التى تحيطها سلسلة من الرباطات الساحلية لحمايتها من أى عدوان عليها باعتبارها قاعدة الأسطول الأندلسى .

وما يقال عن المرية يقال أيضًا عن المدن الساحلية الأخرى فى شرق الأندليس ، مثل مدينة دانية Denia التى كان يشرف عليها جبل مرتفع سماه جبل قاعون(٤) ، ويسمى اليوم مونجو Mongo. وهذا الجبل كانت له فائدة كبيرة وهى كشفه للعدو القادم من البحر من بعيد مما يتيح للمسلمين الاختباء فيه عند الضرورة . وقد بنى عليه بعض تلاميذ الشاعر الصوفى الزاهد أبى عبد الله محمد بن زمنين (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م) رباطا لازالت آثاره تطل

---

(١) راجع ذيول كتاب التكملة لابن الأبار التى نشرها چو نثالث بالنثيا ومحمد شنب ص ١٠٤ ؛ وكذلك :

(Jaime Olivier Asin : Origen Arabe de Rebato p. 27, Mardid 1928).

(٢) الإدريسى : نزهة المشتاق فى احتراق الآفاق ص ١٩٨ ، نشر دى خويه (لندن ١٨٦٦) .

(٣) راجع وصف رحلته فى تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الاخوان فى كرامات الشيخ أبى مروان ، نشر فرناندو دى لاجرانخا (المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٧٤) .

(٤) الإدريسى : نفس المصدر ص ١٩٢ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٥ ص ٩٥ .

على البحر هناك ويعرف باسم ألامبروى Alambroy (١) . كذلك نذكر الرباط الذى كان يديره حسن بن عبد الله بن عباس على جبل فاره (٢) أو جبل فاروق (٣) على ساحل مدينة مالقة Malaga ، وقد اهتم المسلمون بهذا الموقع العام وبنوا عليه حصوناً حتى آخر عهدهم بالأندلس . ولا يزال يعرف هذا المكان إلى اليوم باسم جبل فارو Gibralfaro (٤) .

وهناك حصن شنفيره Sanfiró الذى كان يقع بجوار مدينة مرسية Murcia فى شرق الأندلس ، وقد اشتهر بالارتفاع والمنعة (٥) ، وسنعاود ذكره فى عصر الموحدين .

كذلك انتشرت الرباطات على الساحل الغربى الأندلسى المطل على المحيط الأطلسى ، نذكر منها على سبيل المثال رباط روطة (٦) الذى مازال حصنه قائماً باسم Castillo de Rota عند مدخل ميناء قادس . وكان هذا الرباط مقصداً للصلحاء والمتصوفة ، وقد زاره الصوفى الأندلسى المعروف محيى الدين بن عربى سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧م (٧). كذلك يشير ابن بشكوال إلى

---

(١) أنظر :
(Julian Ribera : Un Monasterio musulmane en Denia, Disertaciones y Opusculos , tomo II p. 203-204 & Torres Balbas: Rábitas Hispanomusulmanas P. 487, Al Andalus Vol. XII, 1948 fasc.2)

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٠٩ ؛ ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة جـ ٤ ص ٢٠٩ نشر إحسان عباس .

(٣) رابطة جبل فاروق من مالقة ، كذا أورده أسين بلاثيوس نقلاً عن تكملة ابن الأبار(Toponimia Arabe de EspanaP. 107) .

(٤) أنظر : (Jaime Olivier Asin : Origen Arabe de Rebato P. 23)

(٥) الحميرى : الروض المطعار ص ١١٦ رقم ١٠٧ ، والترجمة الفرنسية ص ١٤٢ نشر وترجمة بروفنسال .

(٦) راجع وصف حصن روطه ومعجزات بدره فى (الحميرى : المصدر السابق ص ١٠٢ مادة ٩١) .

(٧) محيى الدين بن عربى : الفتوحات الملكية جـ ١ ص ٢٤٢ وكذلك :
Torres Balbas RabitasHispanomusulmanas P. 485, Al Andalus Vol. XII 1948.

مجموعة من الربط الساحلية الغربية التى رابط فيها بعض فقهاء القرنين الرابع والخامس الهجريين (١٠ ، ١١ م) ومثال ذلك قوله :

« ورابط ابن محمد الشنتجيالى (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م) ببطليوس Badakoz ، وموجيق Monchique ، وشلب Silves ، ورباط الريحانة من عمل شلب ، وروى عنه بتلك الجهات ، وكان له فرس اسمه مرزوق(١) .

وفى هذه المنطقة أيضاً وجد رباط التَّوْبة على ساحل المحيط قبالة مدينة أونبه Huelva ، وقد تحول هذا الرباط فيما بعد إلى دير للفرنسيسكان . ومازال يعرف إلى الآن باسم الرابطة La Rabida . والجدير بالذكر أنه فى هذا الحصن أقام الرحالة المشهور كريستوفر كولمبس قبل قيامه برحلته التى اكشتف فيها أمريكا سنة ١٤٩٢م (٢).

هذه أمثلة لبعض الرباطات الساحلية فى الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى (١١م) ولا شك أننا إذا تصفحنا المعاجم الجغرافية الأسبانية ، وجدناها مليئة بالأماكن التى من أسمائها رابطة ورباط ولا سيما فى السواحل البحرية أو فى الثغور الجبلية التى كانت تفصل بين المسلمين والمسيحيين . وكذلك فى جزر البحر المتوسط مثل الجزر الشرقية (جزر البليار) وغيرها مما يدل على وجود رباطات إسلامية فيها .

أما عن حياة المرابطين فى هذه الروابط أو القصور الساحلية ، فكانت تقوم على الحراسة والزهد والتعبد وذكر الله بصوت مرتفع . وفى ذلك يقول الصوفى الغرناطى ابن أبى زمنين : « ورأيت أهل العلم يستحبون التكبير فى العساكر والثغور والرباطات ، دبر صلاة العشاء وصلاة الصبح ، تكبيراً عالياً ثلاث تكبيرات . ولم يزل ذلك من شأن الناس قديماً » (٣).

---

(١) ابن بشكوال : كتابة الصلة جـ ١ ص ٢٦٧ ترجمة رقم ٥٩٣ .

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ٦٤ والترجمة الفرنسية ص ٨١ حاشية ، نشر وترجمة ليفى بروفنسال .

(٣) ابن أبى زمنين : كتاب قدوة الغازى ورقة ٢٩ (مخطوط رقم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد) وكذلك :

وكانت الحراسة تعتبر صفة أساسية من صفات المرابطة . وعُرف الحراس الليليون باسم السمار . وقد جرت العادة أن تكون الحراسة فى مراقب عالية ملحقة بالرباط ، أو فى أماكن مرتفعة قريبة منه لكشف سفن العدو من مسافة بعيدة . وكانت هذه المراقب تعرف باسم الطوالع جمع طالعة أو طليعة Atalaya (١). وكانت مزودة بالمناور أو المنائر أو المواقيد . فكان على أولئك السمار أو المناورون إذا ما كشفوا عدواً فى البحر مقبلاً من بعيد أشعلوا النار فى هذه المناور إن كان الوقت ليلاً ، أو أثاروا الدخان فيها إن كان الوقت نهاراً بواسطة أخشاب رطبة تبعث دخاناً كثيفاً يرى من بعيد . هذا إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالى المدن المجاورة عن غارة العدو . وكثيراً ما استعمل المنوّرون إشارات نارية أو دخانية بطرق وحركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك ، وإن كانت المصادر المعاصرة للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات (٢) .

ولقد اقتبس الأسبان عن جيرانهم المسلمين نظم المرابطة منذ وقت مبكر ، فدخل لفظ رباط فى اللغة الأسبانية ومنه اشتقت كلمة rebato أى الرباط ، والفعل arrebatar أو يرابط ويقاتل ، وعبارة Tocar èl rebato أى الإنذار

- (Jaime Olivier Asin : Origen Arabe de Rebato P. 26)

ويؤثر عن الرسول (ﷺ) أنه كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات . (عبد الحيى الكتانى : التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٨٣) .

(١) راجع شرح كلمة الطلائع فى :

(Dozy : Supplement aux Dic. Arabes II P. 55).

(٢) استخدم المسلمون هذه المناور فى مقاومة الصليبيين والمغول فى الشرق العربى ، وقد وصفها عدد من المؤرخين أمثال (المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٧٧ نشرى دى خوية ؛ شهاب الدين العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٩٩ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩٨) كذلك استخدم البيزنطيون مثل هذا النوع من المشاعل التى يشعلونها فوق أبراج تمتد من الثغور القريبة من الحدود الإسلامية إلى القصر الامبراطورى فى العاصمة البيزنطية (رانسيمان : الحضارة البيزنطية ترجمة عبد العزيز جاويد) .

بغارة معادية ؛ كذلك استخدموا نفس الوسائل والأدوات بأسمائها العربية مثل الطليعة Atalaya، والمنارة Almenara ، والنفير Anafil ، إلا أنهم زادوا عليها استعمال النواقيس التى تقابل الطبول عند المسلمين .

ولم يقتصروا فى ذلك على أجراس الكنائس ، بل وضعوا فى كل حصن ناقوساً خاصاً أسموه ناقوس الرباط أى ناقوس الخطر Campana del Rebato. كذلك وضعوا لسمارهم أو حراسهم تعليمات خاصة تأمرهم بعدم اقتناء الكتب أو القيثارة Guitarra أو أدوات الصيد كى يتفرغوا تماماً للحراسة (١) .

والجدير بالذكر أن كلمة الرباط التى وردت فى المصادر العربية والأسبانية، لم تكن تعنى المقام فى مكان معين بقصد الدفاع عنه ، بل كانت تعنى أيضاً الهجوم والالتحام فى المعركة . وقد أورد ابن العديم عن أبى الدرداء أن أهل الشام مرابطون فى سبيل الله ، فمن احتل منهم مدينة فهو فى رباط ، ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو فى رباط ، ومن احتل ثغراً من الثغور فهو فى جهاد (٢) .

وفى هذا المعنى أيضاً يقول الرحالة الطنجى ابن بطوطة مبرراً سفره إلى الأندلس : فأردت أن يكون ليس حظ من الجهاد والرباط ، . وقد وردت الترجمة الفرنسية لهذه العبارة :

" et je desirai prendre part à la guerre sainte et aux combats des infidéles".

وهى تعنى القتال والمحاربة (٣) بهذا المفهوم القتالى الهجومى جاءت كلمة arrebatar فى اللغة الأسبانية أيضاً . .ومثال ذلك الملك الفونسو الحادى

---

(١) أنظر :

(J. Olivier Asin : Op. Cit., P. 46, 47) .

(٢) فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى جـ ٣ ص ٣٣٦ ، نقلاً عن بغية الطالب لابن العديم (الدار القومية للطباعة والنشر .

(٣) راجع رحلة ابن بطوطه نشر وترجمة Defermery et Sangiunetti الجزء الرابع ص ٣٥٣ (باريس ١٩٢٢) .

عشر ملك أسبانيا حينما أمر جنوده بعدم الخروج لقتال المسلمين فى قوله :

"Oue no saliesen a los arrebates de los moros" (١)

والخلاصة إن وجود مثل هذه الألفاظ العربية في اللغة الأسبانية ، دليل على شيوع مدلولها بين الأسبان . وحسبنا أن نتصفح مدوناتهم التاريخية ، وأشعارهم ومسرحياتهم كالتى كتبها بيرث دى هيتا Perez de Hita، ثربانتس Cervantes ، ولوبى دى فيجا Lope de Vega، لنرى مدى استعمالهم لهذه الألفاظ ، ومدى ادراكهم لها وتطبيقهم لمضمونها فى حياتهم الحربية (٢) .

ثالثا : الأسلحة الحربية:

استخدم الأندلسيون جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى عالم العصر الوسيط، بل انهم قاموا بتصنيعها وساهموا فى تطويرها معتمدين فى ذلك على ما لديهم من مواد خام ، وأيدى صناعية ماهرة ، وعقول مستنيرة مبدعة . ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نرجع إلى ما ورد فى المصادر التاريخية من وصف لخزائن السلاح وما فيها من ذخائر ، وكذلك ما أمدتنا به كتب الجغرافيا والرحالة من معلومات عن مناجم الحديد والفحم والكبريت وآبار النفط وغيرها من المواد التى قامت عليها صناعة الأسلحة والذخائر الحربية . هذا إلى جانب ما تبقى إلى اليوم من هذه الأسلحة فى المتاحف الإسلامية والدولية .

وعلى الرغم من تداخل استعمالات هذه الأسلحة بين عمليات الهجوم والدفاع ، إلا أن المؤرخين اعتادوا تصنيفها إلى أسلحة هجومية وأخرى دفاعية، وثالثة نفسية أو معنوية لتقوية الروح القتالية فى نفوس المحاربين .

وفيما يلى نماذج لهذه الأسلحة الأندلسية فى هذه الفترة الأولى التى تمتد من الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف .

١ - *الرايات والأعلام والألوية والبنود :*

من المعروف أن الراية هى راية الجيش كله ، وتكنى بأم الحروب ،

---

(١) أنظر : (Eguilaz : Glossario etimológico de las palabras espanolas P. 286)

(٢) لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٠٣ وكذلك (Olivier Asin P. 69) .

مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً (١).

كذلك اهتم الأمويون فى الأندلس بمظهر راياتهم وأعلامهم وألويتهم التى هى شعار لقوة جيوشهم ، ورمز لعظمة دولهم . فأين حيان القرطبى حينما يصف خروج الخليفة عبد الرحمن الناصر فى غزوة حصن وخشمة Osma فى أرض ألبة والقلاع Castilla بالثغر الأوسط عند نهر الدويرة Duero سنة ٣٢٢هـ/٩٣٥م يقول :

« وقد احتفل لتفخيم بروزه فيما أبرزه من صنوف العدة وتماثيل الأعلام والرايات الفخمة البديعة الغريبة الأجناس ، المرتفعة القيمة . وفى هذا البروز ظهر فى أعلامه علم العقاب المصورة التى اخترعها ولم تكن لسلطان قبله ، فكان للناس إليها التفات واستشراف ، ولها بقلوبهم لوْطه (أى محبة) أجرت بينهم حديثاً متعاوراً (متبادلاً) (٢).

ولقد سار على هذه السياسة ولده وخليفته من بعده الحكم المستنصر بالله الذى اهتم بمظهر رايات جيوشه ، فكانت - كما يصفها ابن حيان - رايات مصورة من صور الأسد والنمور والثعابين والعقبان وغيرها من التصاوير الهائلة، وأنه كان لديه كذلك لواء الشطرنج الذى كان على شكل مربعات مثل الشطرنج (٣).

---

(١) محمد بن عبد الوهاب الغسانى : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير . تحقيق ونشر الفريد البستانى (منشورات معهد الجنرال فرانكو (معهد مولاى الحسن الآن) قطوان سنة ١٩٣٩ . راجع كذلك (حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٢٨ (مدريد سنة ١٩٦٧) .

(٢) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ (الخاص بالخليفة الناصر) ص ٣٣٤ نشر شالميتا وكورينطى، وصبح (مدريد سنة ١٩٧١) ويلاحظ أن اسم العقاب يتشابه مع اسم راية الرسول (ﷺ) والعقاب كما هو معروف طائر جارح كالنسر .

(٣) ابن حيان : المقتبس (الجزء الخاص بالخليفة الحكم المستنصر) ص ٢٥ نشر عبد الرحمن الحجى (بيروت سنة ١٩٦٥) وهذا [illegible] لرنجى يذكرنا بصفوف الجيش الهندى التى اقتبست منها لعبة الشطرنج .

(Dozy : Supplement aux Dic. Arabes, Vil. I P. 759).

وهى أكبر من العلم واللواء . وكانت راية الرسول (ﷺ) من صوف أسود مربعة وبها غرة بيضاء وتدعى العقاب .

والعلم ما يعقد على الرمح ويكون طويلاً فى العادة ، ولذا يطلق هذا الاسم على الجبل المستطيل أيضاً مثل قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به　　　كأنه علم فى رأسه نارُ

كذلك يضرب به المثل القائل : أشهر من نار على علم (أى جبل) . وفى غرب الإسكندرية منطقة اشتهرت فى الحرب العالمية الثانية وهى منطقة العلمين (أى الجبلين) .

أما اللواء : فهو دون الراية ويسمى لواء لأنه يلوى على الرمح لكبره . ويقال إن لواء الرسول (ﷺ) أبيض مكتوب عليه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهناك **البند** وهو علم كبير دون الراية واللواء (١) .

وفيما يتعلق بفتح الأندلس لدينا نص طريف هام أورده المؤرخ الأندلسى محمد بن موسى الرازى (٢٤٩هـ/٨٦٤م) فى تأليف له سماه « كتاب الرايات» ، يصف فيه دخول القائد موسى بن نصير الأندلس ، وكم راية دخلت الأندلس معه من بطون قريش وغيرها من قبائل العرب ، فعدها نيفا وعشرين راية ، منها رايتان لموسى بن نصير ، عقد له إحداهما الخليفة عبد الملك بن مروان على افريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له ولده الخليفة الوليد بن عبد الملك على افريقية أيضاً وما يفتحه وراءها إلى المغرب والأندلس ، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير الداخل معه . وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال .وكان اجتماعهم لهذا المشهد الكريم ، فى الموضع الذى كان فيه مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء (Algeciras) وأنه باجتماع الرايات فى ذلك اليوم سمى المسجد بها ، كما سمى الرازى كتابه بها أيضاً . وقال إن موسى بن نصير لم يبرح موضعه ولا فارق

---

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية فى المدينة المنورة العلية جـ ١ ص ٣٢٢ .

وهذا الاهتمام بالرايات والأعلام نجده يتمثل بوضوح في الهدايا الثمينة التي كان خلفاء بني أمية يقدمونها إلى كبار ولاتهم وقوادهم ، مثال ذلك الهدية التي قدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى موسى بن أبي العافية الوالي على مليلية في المغرب الأقصى ، والتي كان من بينها « من غرائب السلاح أربعة بنود : **بند أول** : فيه صورة عقاب مختلف الألوان، رأسه فضة ، مذهب النقش ، له عينان حمراوان ، في وسط جبهته فصّ أخضر ، **وبند ثان** : فيه صورة أسد مزوّق أيضاً ، رأسه فضة ، له عينان سمائيتان ، **وبند ثالث** : مطلق كبير أبيض مكتّب بتذهيب ، في جوانبه الثلاثة كتاب عريض. **وبند رابع** : أحمر مكتوب بالفضة في جوانبه الثلاثة كتاب عريض ، وفيها سيفان وهلالان مذهبّان مزوقان » (١).

ويرى ابن خلدون أن تكثيرالرايات وتلوينها وإطالتها ، ربما تحدث في النفوس زيادة في الإقدام ، معللاً ذلك بأن أحوال النفوس وتلويناتها غريبة (٢).

٢- *الحصان :*

يعتبر الحصان من أهم الأسلحة لجيوش تلك العصور ، ومنها الجيش الأندلسي بطبيعة الحال ، لا سيما وأن استخدامه كان يتناسب مع طبيعة أسبانيا الجغرافية المرتفعة التي تكتنفها الجبال والتلال والهضاب . وإذا أضفنا إلى ذلك أن أغلب المتطوعين الوافدين من المغرب ، كانوا من فرسان البربر أمكننا القول بأن معظم رجال الجيش الأندلسي كانوا من الفرسان .

أما الرجّالة أو المشاة ، فكانوا أقلية بالنسبة لهم . مثال ذلك جيش الحاجب المنصور بن أبي عامر في إحدى صوائفه التي بلغ فيها عدد الفرسان ستة وأربعين ألف فارس ، إلى جانب ستمائة فارس من الحرس ، ومائتي فارس لخدمة العساكر ، ومائة وثلاثين فارس من الطبالين ، بينما انتهى عدد الرجّالة

---

(١) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ (الخاص بعبد الرحمن الناصر) ص ٣٥٣ وقد سبقت الإشارة إلى أن البند علم كبير دون الراية واللواء .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٧ .

إلى ستة وعشرين ألف راجل ، أى بنسبة ثلاثة فرسان إلى اثنين من المشاة(١).

وقد جرت العادة أن يستعان بالرجالة فى عمليات الحصار ، وفى استبدال الحاميات المرابطة فى القلاع والحصون ، وكذلك فى الوقوف بالطرقات لتغطية المواكب الرسمية .

لهذا اهتم الأندلسيون فى الكور المختلفة بتربية الخيول وتدريبها ، كما اهتموا بسلامتها وتغطية أجسامها بدروع جلدية أو فولاذية تعرف بالتجافيف . وكثيراً ما فرضت عليهم الدولة فى أوقات الحروب والأزمات تقديم عدد من الخيول للمساهمة فى الجهاد . ويفهم من كلام ابن سعيد المغربى أن خيول الأندلس كانت ضخمة الأجسام لحملها الدروع وثقال السلاح ، والعدد والركض بها ، فهى حصون القتال(٢).

ولقد حرصت الدولة الأموية على الصعيد الرسمى ، على توفير المراعى الخاصة بإعداد وتربية الخيول فى مختلف أنحاء الأندلس . فيشير العذرى الدلائى الأندلسى إلى أن ساحل تدمير (مرسية) بشرق الأندلس ، كان مركزاً لتربية الخيل حتى إنه كان يخرج ألف فرس من كل ألوان الخيل فى العام (٣).

كذلك يشير ابن حيان القرطبى إلى أن وادى البربر Guadalbarbo الذى يصب فى الوادى الكبير بالقرب من قرطبة ، كانت تقيم فيه جماعة من فرسان البربر على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر . وقد جلب هؤلاء الفرسان معهم جرائد من عِتاق الخيل قاموا باستنتاجها فى وادى البربر المذكور(٤) . هذا

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩٩ (الجزء الثانى الخاص بالأندلس) نشر ليفى بروفنسال .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٥ .

(٣) العذرى : ترصيع الأخبار ص ٢ نشر وتحقيق عبد العزيز الأهوانى (مدريد سنة ١٩٦٥) وكذلك كتاب الأنواء أو تقويم قرطبة لعريب بن سعد ص ٤١ نشره دوزى كملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذارى بعنوان
(Dozy : Calendrier de Cordo[illegible] [illegible]née 961).

(٤) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ ص ٢٥٧ ، مدريد ١٩٧٩ ، محمود مكى : مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى أسبانيا ص ٣٢ ؛ وكذلك :

إلى جانب المراعي الخصبة الرطبة التي كانت في جزائر الوادي الكبير المعروفة باسم المدائن بنواحي اشبيلية ، وكانت تضم - كما يقول ابن حيان - من الرِّماك (أفراس النسل) المستنتجة على أجناسها ، ثلاثة آلاف فرس ، يعدلها من فحول الخيل للضرب أوان الاستنتاج مائة فرس (من ١٥ إبريل إلى ١٥ يونيه) (١). ويضيف صاحب كتاب الروض المعطار قائلاً : « وفي آخر نهر اشبيلية من كلتي جانبيه (أي الوادي الكبير) جزائر كثيرة يحيط بها الماء . كلأها قائم لا يصوح (أي لا يجف ولا ييبس) لدوام ندوتها ورطوبة أرضها . ويصلح نتاجها ، وتدوم ألبانها ، ويمتنع ما فيها من الحوافر والظلف على العدو فلا يصل إليه أحد . وهذه الجزائر تعرف بالمدائن ،وبعضها قريب من البحر (أي المحيط الأطلسي) (٢).

هذا ، ومن المعروف أن الحصان حيوان ذكي ، ولكنه عصبي المزاج ، فإذا سمع ضجيجاً أو رأى شيئاً يزعجه ، جمح بصاحبه . ولهذا عكف المسلمون على تدريب خيولهم على أصوات الطبول والأبواق وضجيج المعارك وصيحات القتال ، والسير بها في الصخور والجبال والمسالك الوعرة كي تعتاد عليها ، إلى جانب تدريبها على سرعة الكر والفر مع اللي التي يسميها الأسبان Turnafuye . ولقد أطلقت كلمة المصارة على أماكن عديدة في المغرب والأندلس وأسبانيا Almuzara ، ولا سيما على الفضاء الفسيح المجاور للمدن الكبرى مثل قرطبة وغرناطة ومرسية وفاس .. الخ . وعادة ما كانت تقام في

=Elias Terés Sádaba : Materiales para el estudio de la toponimia hispano-árabe Naomin fluvial, Madrid 1986)

(أي مواد لدراسة أسماء الأعلام الجغرافية المرتبطة بالأنهار) .

(١) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ص ١٠٠ وكذلك :

(Dozy : Calendrier de Cordoue P. 45)

وأيضاً: Imamuddin : Some aspects of the socio- economic and cultural History of Muslim Spain P. 92 Leiden 1965)

ويلاحظ في المتن استخدام كلمة المستنتجة والاستنتاج بحرف الجيم وليس المستنسخة والاستنساخ بحرف الخاء كما هو شائع اليوم . والفارق بينهما نقطة !

(٢) الحميري : الروض العطار ص ٣١ ، مادة ١٤ نشر وترجمة ليفي بروفنسال .

هذه الأماكن عروض الجيوش وألعاب الفروسية لتدريب الخيول أى تمصيرها ، ولعل كلمة المصارة جاءت من هذا المعنى ، أى المكان الذى تدرب أو تمصر فيه الخيل(١) .

وحينما يحدثنا صاحب الزهرات المنثورة عن هيبة الحاجب المنصور بن أبى عامر ، وضبطه لجنده لدرجة أنهم كانوا فى مواقفهم فى الميدان مثلاً فى الزماتة (الصمت والسكون) والإطراق ، يشير إلى أن الخيل كانت أيضًا تتمثل فى إطراق فرسانها ، فلا تكثر الصهيل والحمحمة !! (٢) .

وهذا الوصف يذكرنا بقول الشاعر الجاهلى النابغة الذبيانى فى مدحه لبنى غسان فيصف خيولهم قبل الدخول فى المعركة بقوله :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غير صائمةٍ تحت العجاج وأخرى تعلُك اللُّجما(٣)

كذلك استخدمت الخيل فى نقل بريد الدولة ، كما استخدمت أنواع ضخمة منها فى حمل الأثقال والمعدات الحربية . ولعل أهمية الخيل تظهر من وثائق الضرائب الجمركية التى كانت تفرض عليها فى الصادر والوارد ، إذ نجد أنها كانت تزيد كثيراً على الرسوم المفروضة على الرقيق من البشر .

٣- *البغال والجمال :*

إلى جانب الخيل ، كانت هناك دواب أخرى تستخدم للركوب فى الأسفار وفى حمل الأثقال . ومثال ذلك البغال الأندلسية التى كانت فارهة جميلة ، سريعة السير نشيطة . وتجلب من جنوب شرق الأندلس ، ويعتمد عليها الأندلسيون فى تنقلاتهم (٤) .

---

(١) أحمد الطوخى : المصارة (مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية ١٩٨١) .

(٢) ابن سماك العاملى : الزهرات المنثورة ص ٨٦ ، نشر محمود مكى (مدريد سنة ١٩٨٤) .

(٣) الصيام فى اللغة هو القيام والوقوف بدون حر[illegible] أ[illegible] عملا . وهو يعنى هنا أنه كانت هناك خيول قائمة فوارسها صامتة لا تت[illegible] [illegible]خرى تتحرك ، وتضبح ، والثالثة تعلك لجمها .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٥ (طبعة محيى الدين عبد الحميد) .

وهناك أيضاً الجمال التى كانت تستخدم لحمل الأثقال ، وكانت لها مراعى بمسارح كورة تدمير (مرسية) تضم حوالى أربعة آلاف جمل (١) .

ويروى ابن عذارى أنه لما توفى الأمير الأموى المنذر بن محمد ، على حصن ببشتر Bobastro محاصراً للخبيث عمر بن حفصون سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م ، حمل على جمل إلى قصر منية الناعورة بغرب قرطبة (٢).

كذلك يروى ابن حيان أن الأمير الزناتى محمد بن خزر ، أهدى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧هـ / ٩٣٠م عشرة نجب مخصبة عجيبة الخلق متخيرة من جنسها ، بسروجها ، وأرسانها ، وأزمتها ، وأجلالها ، وأرجواناتها ، وقرابيسها (٣)، معلقاً عليها عشر درقات من نفائس درق اللمط ، وعشرين ناقة حوامل عشارا وغيرها ، ومعها فحل لها جليل الخلقة ، رفيع البنية ، ومعها راعيها عبد أسود ماهر يرعى الإبل ، بصيراً بأدواتها ، (٤). وفى نفس المجال يروى المقرى أن حاجب الأندلس المنصور بن أبى عامر تسلم هدية من الزعيم الزناتى المغربى زيرى بن عطية المغراوى ، عبارة عن خمسين جملاً من أجود الأصناف التى تعرف باسم مهرية (نسبة إلى أرض مهرة بنجد وتشتهر بالهجن الأصيلة السريعة) (٥).

ولا شك أن كل هذه النصوص السالفة وأمثالها تفند الرواية التى أوردها ابن حلكان من أن أول ظهور الجمال فى أسبانيا كان بعد ذلك على يد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ، وهذا نصها :

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠٠ (نشر ليفى بروفنسال) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ـ ٢ ص ١١٩ .

(٣) يقصد بالأرسان أى الحبال ، وبالأزمة اللجم جمع لجام ، وبالأجلال الجلاجل ، والأرجوانات لعلها أكسية حمراء من الأرجوان ، والقربوس تعنى السرج أو الجزء البارز منه من الأمام .

(٤) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ ص ٢٦٧ (الجزء الخاص بعبد الرحمن الناصر) .

(٥) راجع (ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٦٨) وكذلك :

(R. Dozy : Supplement aux Dic. Arabes II P. 622) .

قال ابن خلكان : وأمر يوسف بن تاشفين بعبور الجمال ، فعبر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء . ولم يكن أهل الجزيرة (أى الأندلس) رأوا قط جملاً ، ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق . وكان ليوسف بن تاشفين فى عبورها رأى مصيب ، كان يحدق بها عسكره ، وكان يحضرها الحرب فكانت خيل الفرنج تحجم عنها ، (١).

لعل ابن خلكان كان يقصد من هذه الرواية ، أن دخول الإبل فى أسبانيا لأول مرة فى موقعة الزلاقة ، كان على شكل فرق عسكرية مقاتلة من الأُبّالة على غرار فرسان الخيالة ، وليس لحمل الأثقال كما كان الحال من قبل بدليل قوله بأن يوسف بن تاشفين كان يحضر هذه الجمال فى ميادين الحرب والقتال، وانه كان يحيط معسكره بها فتحجم عنها وتنفر منها خيل العدو . فلعل هذا الوضع فى حد ذاته جديد على أسبانيا من حيث التكتيك الحربى .

هذا ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الأندلس كثيراً ما كانت تقوم بشراء الخيول والبغال من المراعى المنتشرة على سواحل المحيط الأطلسى بالمغرب وكذلك من المناطق الجبلية المغربية التى اشتهرت بتربيتها . يقول ابن حيان فى هذا الصدد : إن المنصور بن أبى عامر فى إحدى صوائفه ، ترك فى الاصطبلات بقرطبة مقدار ألف فرس عدوية (أى من العدوة المغربية) كانت طرية العبور، استغنى عنها وأمر بالقيام عليها (٢).

٤- الأسلحة :

عرف المسلمون من قديم الأسلحة التقليدية المعدنية البيضاء معتمدين فى ذلك على ما لديهم من مواد خام ، وأيدى صناعية ماهرة . وقد أمدتنا الكتب الجغرافية والأدبية وكتب الرحلات والمعاجم اللغوية بمادة غزيرة عن المعادن المختلفة وأماكنها فى المشرق مثل مناجم الحديد التى كانت منتشرة فى فرغانة وكابل وكرمان وأذربيجان وأرمينية والشام ، إلى جانب المستورد من الهند

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١٥ ترجمة رقم ٨١٥ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠٠ .

وسيلان وروسيا وبيزنطة وغيرها . وعلى أساس هذه الخامات قامت صناعة الأسلحة التى اشتهرت بأسماء الأماكن التى صنعت أو بيعت فيها مثل السيوف الهندية الحادة التى تغنى بها العرب فى أشعارهم باسم المهنّد أى الذى طبع فى الهند ، وهناك السيوف الفارسية ، واليمنية ، والشامية كالدمشقية والمشرفية(١) ، والسيوف الحنيفية التى كانت تصنع فى الحجر عاصمة بنى حنيفة فى اليمامة فى الجزيرة العربية . ومثل الرماح الخطية التى كانت تباع فى الخط بين البحرين وعمان على الخليج العربى .. الخ.

ولما فتح المسلمون أسبانيا بهرتهم مجموعات الأسلحة التى غنموها من القوط مثل السيوف والقسى والرماح والدرقات وغيرها مثل التيجان المرصعة والحلى المذهبة . وقد يؤيد ذلك تلك الجموعة القوطية المحفوظة إلى اليوم فى متحف كلونى Cluny بباريس (٢) .

وقد عمل الأندلسيون بعد ذلك على المحافظة على هذا التراث الصناعى وتطويره وتنميته ، وشجعوا على التنقيب عن المعادن ولا سيما الحديد الأندلسى الذى اشتهر بجودته فى جميع أنحاء العالم . ومن أهم مراكز صناعته : طليطلة واشبيلية والمرية ومرسية وغرناطة وغيرها ، حيث كانت تصنع السيوف والدروع والخوذات والمعافر والسروج وغيرها من الآلات الحربية . وقد اشتهرت كلمة معدن فى المغرب والأندلس بمعنى المنجم الذى تستخرج منه جواهر الأرض . ولقد أشاد المؤرخون بمهارة الأندلسيين فى صناعة هذه الآلات ، وأنهم كانوا – كما يقول ابن غالب الأندلسى – « أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال ، فهم صينيون فى اتقان الصنائع العملية ، تركيون فى معاناة الحروب ومعالجات آلاتها والنظر فى مهماتها »(٣) .

---

(١) المشرفية نسبة إلى مشارف الشام ، وقيل نسبة إلى المشارف وهى قرى من أرض العرب .

(٢) عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ص ٨١ (القاهرة ١٩٥٧) .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٤٧ نقلاً عن كتاب ابن غالب فى كتابه فرحة الأنفس.

ولم يتردد الأندلسيون - إلى جانب ذلك - فى شراء الأسلحة الجيدة من البلاد المجاورة مثل سيوف مدينة بوردو الفرنسيةBordeaux عند مصب نهر الجارون . وكان الأندلسيون يسمونها بردال أو برديل (بالإمالة)[١] وقد اشتهرت بسيوفها التى عرفها الأندلسيون باسم، البرداليات، . وفى ذلك يقول ابن سعيد المغربى : « ويصنع فى بلاد الكفر ما يبهر العقول ، والسيوف البرداليات مشهورة بالجودة ، وبرديل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال » [٢] .

ويلاحظ أن الأندلسيين استخدموا السيوف المستقيمة النصال ذات الحدين والتى امتازت واقياتها بثنيتها إلى الأسفل كما أوضحت ذلك بعض الصور والنقوش الأندلسية [٣].

وكانت قراب أو أجفان أو أغماد السيوف Scabbards تتكوّن من جراب خشبى مغطى بالحرير أو المخمل (القطيفة) أو الجلد أو المعدن ، يوضع فيه السيف ، وأحياناً تحفظ فيه الوثائق والمقتنيات الهامة[٤].

وإلى جانب السيوف استخدم الأندلسيون أسلحة الرمى مثل السهام والنبال والنُشّاب (وهى سهام ذات نصول مثلثة) . وقد اشتهرت مدينة سبتة المغربية Ceuta (وكانت تابعة للأندلس) ، بصناعة هذا النوع من الأسلحة ، حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها هناك ، إذ كان الرمى من طابع أهلها ، فلا تجد شريفًا ولا مشروفاً ، ولا كبيراً ولا صغيراً إلا وهو بصير بالرمى وله

---

(١) كان أهل الأندلس يستعملون الإمالة فى كلامهم ولهجتهم أى يقبلون الألف ياء ، ونجد ذلك واضحاً فى الكلمات العربية التى دخلت اللغة الأسبانية مثل باب الرملة ينطقونة بيب الرملة ، ابن نغراله أو ابن نغريله ، بيت الجبّاس تصبح بيت الجبيس ومنها بالأسبانية Casa del Chapis مقر المدرسة العربية بغرناطة الآن .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٨ .

(٣) عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الإسلامى ص ٨٢ (القاهرة سنة ١٩٥٧) .

(٤) يروى على سبيل المثال أن الإمام على بن أبى طالب كان يحفظ فى قراب سيفه وثيقة الكتاب أو الصحيفة التى عقدها الرسول (ﷺ) مع أهل المدينة المنورة . وقد آلت ملكيتها إلى حفيده محمد النفس الزكية الذى اطلع المؤرخ محمد بن اسحاق عليها فنقلها فى كتابه المغازى .

تقدم فيه » (١).

وبالمثل يقال عن مدينة فاس بالمغرب التى اشتهرت بصناعة السيوف والسكاكين معتمدة فى ذلك على الحديد المجلوب من مناجم بنى سعيد المجاورة لها . ومن الأسلحة الهامة التى استخدمها المحاربون الأندلسيون فى الهجوم ، القسى Arcos وهى عدة أنواع ، نذكر منها قوس اليد التى تستعمل باليد وهى القوس العربية ، ثم قوس الرجل التى تشدّ بين الرجلين وهى الإفرنجية . وهذا النوع الثانى هو الذى كان سائداً فى الأندلس ، وفى ذلك يقول ابن هذيل الأندلسى : « والقوس الإفرنجية خاصة بأهل الأندلس ، بها يصيدون وعنها يرمون ، وفيها يتنافسون ، وعليها يعتمدون فرساناً ورجالاً » ، ثم يصف ابن هذيل هذه القسى الإفرنجية وصفاً فنياً دقيقاً مفصلاً ثم يبين الفرق بينها وبين القسى العربية فيقول بأن قسى اليد العربية كانت أفضل للفرسان وهم على ظهور الخيل لأنها أسرع وأسهل فى الرمى ، بينما قسى الرجل الإفرنجية أكثر نفعاً للمشاة ولا سيمات فى الحصار ، وفى المراكب الحربية (٢).

كذلك استخدم الأندلسيون الرماح أو القنا الطوال Lances كما استخدموا الحراب والمزاريق Jovelins وهى أقصر من الرماحِ ، وتستخدم أحياناً فى حمل الأعلام . وهناك ما يسمى بالجرح وهو قوس كبير يرمى به الحجارة والسهام و النفط والجمع جروخ والرامى يسمى جرخى .

كذلك استخدم الأندلسيون عند الالتحام ما يسمى باللتوت وهى أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة ، والدبابيس ، ومفردها دبوس ، وهى تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة ، والطبر أو الطبرزين وهى الفأس

---

(١) محمد بن القاسم الأنصارى السبتى : وصف مدنية سبتة ، نشر ليفى بروفنسال ، مجلة هسبريس Hésperis ، الجزء الثانى عشر سنة ١٩٣١ ص ١٥٦ .

(٢) ابن هذيل : حلية الفرسان وشعار الشجعان ص ٢١١ وما بعدها ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن (دار المعارف القاهرة ١٩٤٩) .

أو البلطة وسلاحها ذو حدين وحاملها البلطجى ، والمستوفيات وهى عمد مربعة طولها ذراعان ، والباسليقات وهى عبارة عن سلاسل تنتهى برمانة من حديد تكسّر ما تقع عليه لشدة دفعها ، والوضف وجمعها أوضاف وهى آلة مثل المقلاع لقذف الأحجار ، وقد استخدمت ضد النورمانديين (الفايكنج) فى اشبيلية عندما أغاروا عليها فى عهد الأمير الأموى عبد الرحمن الثانى سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م . وفى عهد هذا الأمير أيضاً استخدم الأندلسيون قوارير النفط أو نيمْ النفظ (جميع نيمة) التى تحتوى على مادة حارقة أساسها النفط، فإذا ألقيت على هدف من الأهداف أشعلت النار فيه . وهذا السلاح وجد عند البيزنطيين من قبل ، وأطلقوا عليه اسم النار الإغريقية .

أما **الأسلحة الدفاعية** ، فهى أسلحة الوقاية التى تحمى الجسم من جهة، أو التى يتقى بها المحارب ضربات خصمه من جهة أخرى . ومن أهمها:

١- البيضة أو الخوذة أو القلنسوة الحديدية لحماية الرأس Helmet ، ويطلقون عليها أيضاً اسم الطشتانيات ومفردها طاشتان من اللاتينية Testinia وقد اشتهر بها القائد الأندلسى غالب بن عبد الرحمن أمير الثغور وقائد الجيوش فى عهد الخليفة الحكم المستنصر[١].

٢- المغفر الذى يحمى الرأس والرقبة والأذنين وفى بعض الأحيان الأنف أيضاً Nose Guard وقد تطورت المغافر حتى صارت تغطى الوجه كله فلا تظهر منه إلا العينان وهو ما يسمى بالمغافر المسبلة .

٣- الزرد أى الدرع المصنوع من زرد الحديد تتداخل حلقاته بعضها فى بعض Mail Coat ، بعضه قصير والبعض الآخر طويل . واللأمة هى الدرع التامة .

٤-الجوشن وهو درع من الزرد ولكن تضاف بين ثنايا حلقاته صفائح أو

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١١٣ ، وكذلك :

(Dozy : suppl. aux Dict. Ar. IIP. 44).

رقائق معدنية مستطيلة لتقويته . وفى العادة يكون درعاً صدراً بغير ظهر .

٥- كذلك كانت هناك دروع لحماية الأطراف مثل السواعد والأكف والسيقان ثم الخف وهو حذاء برقبة يرتبط بالمهماز(١).

٦- ومن أسلحة الدفاع التى تحمل باليد لاتقاء ضربات السيوف والسهام وغيرها المجن والتُّرس المعدنى ، والجمع تروس وأتراس Sheild, Escudo ، والدرقة وهى - كما يقول دوزى - من أصل جرمانى ، وبالفرنسية Targe وبالإسبانية Adarga , Adaraga ، وهى من الجلد السميك فوق إطار من الخشب لتكون سهلة الحمل والاستعمال .

وقد استخدم الأندلسيون فى هذا الصدد الجلد اللمطى من صحراء المغرب . واللمط حيوان يعيش فى صحارى افريقيا من فصيلة Cantilopes أو الظباء ذوات القرون كما ورد فى معجم دوزى نقلاً عن معجم الحيوان لأمين المعلوف باشا . ويستخدم جلده فى عمل درقة اللمط . ويقال إنهم كانوا ينقعون الجلود فى اللبن الحليب سنة كاملة ثم يعملونها درقاً . وأن من خاصية درقة اللمط أنها إن أصيبت بضربة سيف أو رمح ، انغلقت الضربة والتحمت من وقتها واختفت فلا تظهر !! (٢)،(٣).

أما **أسلحة الحصار** ، فهى آلات قديمة عرفها المسلمون منذ وقت مبكر وعملوا على تطويرها عبر السنين وقد استخدمها الأندلسيون فى حروبهم نذكر منها :

---

(١) (L.A. Mayer: Saracenic Arms and Armor, Ars Islamica Vol. X 1943) .

(٢) ابن هذيل : حلية الفرسان وشعار الشجعان ص ٢٣١ -٢٣٢ . وكذلك :

(Dozy : Suppl. aux Dict. Ar. II P. 555 & Levi Ptovençal : L'Espagne Musulmane au X Siècle P. 145) Paris 1932.

(٣) أورد صاحب الاستبصار وصفاً لحيوان اللمط قال فيه : وهذا الحيوان المسمى باللمط ، دابة دون البقر لها قرون رقاق حادة تكون لذكرانها وإناثها ، وكلما كبر هذا الحيوان طال قرنه حتى يكون أزيد من أربعة أشبار . وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما عمل من جلود الإناث المسنات التى قد طالت قرونها لكبر سنها حتى منعت الفحل أن يعلوها . راجع (الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مجهول ص ٢١٤ ، تحقيق سعد زغلول ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨) .

أ) الدبابة وهى برج خشبى ذو طوابق مغلق بالجلود المنقوعة فى الخل لدفع النار عنها وتتحرك على عجلات . يصعد الجنود إلى مختلف طبقات هذا البرج بهدف ثقب الأسوار بالمعادل أو النزول فوقها .

ب) الكبش عبارة عن رأس حديدية مثل رأس الكبش تتصل بعمود غليظ داخل الدبابة معلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة ، يدفعه الجنود وهم داخلها لثقب الأسوار .

جـ) سلالم الحصار ، وهى سلالم عالية متحركة يصعد المحاربون بواسطتها إلى أعالى الأسوار ليقتحمونها من الأعلى . وقد أدخلت عليها تحسينات فى تعليتها وتقويتها حسب تطور ارتفاع الأسوار .

ء) المنجنيق اسم أعجمى الأصل والجمع مجانيق ومناجيق ومنجنيقات وهو أشهر آلات الحصار لرمى الحجارة والسهام والنار والعذرة والثعابين والعقارب وكل ما يضر العدو ويؤذيه ويجبره على الاستسلام .

هـ) العرادة : وهى آلة أصغر من المنجنيق وترمى السهام والحجارة على مسافات طويلة .

و) الزيارة : والجمع زيارات وهى آلة قاذفة لأعداد من السهام دفعة واحدة(١).

ولقد أمدنا المؤرخ القرطبى المعاصر أبو مروان بن حيان ، بوصف لبعض محتويات خزانة السلاح بقرطبة على عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر بقوله :

« وكان الرسم أن يصنع من الأخبية عدة للجند كل عام على أجناسها ، ثلاثة آلاف خباء ، إلى ما يقيمه السلطان لنفسه ولمن يتموّن إياه من كبار خدمه وغلمانه ، وكان يصنع بدار التراْسين من أصناف التراس كل سنة حسبما تلقيته من يحيى التراس أحد من بقى من مشيخة التراسين فى وقتنا فقال : كانت الطرّيحة من التراس فى السنة ثلاثة عشر ألف ترْس ، وطريحة

---

(١) أنور الرفاعى : الإسلام فى حضارته ونظمه ص ١٩٨ (دمشق ١٩٧٣) .

القسى فى السنة إثنى عشر ألف قوس بشطرين عربية وتركية ، ستة آلاف من قبل أبى العباس البغدادى المعلم الأكبر بقرطبة ، ومثلها من قبل طلحة الصقلبى بالزهراء . وكانت طريحة النبل فى الشهر عشرين ألفاً » (١).

ولعل أجمل صورة لعرض هذه الأسلحة ، نجدها ممثلة فى حفل الاستقبال الرسمى الذى أقامه المنصور بن أبى عامر فى قصره الزاهرة – شمال شرق قرطبة – بمناسبة زيارة صهره ملك نافارا Navarra(٢). سانشو أباركا Sancho Garces II سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢ م . وكان المنصور تزوج ابنته عبده وأنجب منها ولده عبد الرحمن الذى أطلقت عليه أمه اسم سانشويلو Sacheuelo أى سانشو الصغير لأنه كان يشبه أباها . وقد حرفت العامة هذا الاسم إلى شنجول . قال ابن حيان :

« فوصل الملك شانجه – أى سانشو – لثلاث خلون من رجب سنة ٣٨٢هـ، وأركب المنصور الجيوش والمطوعة لتلقيه فى دخوله إلى قصر الزاهرة. فكان يومه أحد أيام الدينا الشهيرة حتى بهت الذى كفر ، ورأى من وفود المسلمين ونباهة أسلحتهم ، وجمال زيّهم ، وكثرة عددهم ، ما لم يكن ظاناً أن الدينا تجمعه ، ولا الأيام تحشده ،ولا الخزائن تكنفه ولقيه ولد المنصور عبد الرحمن حفيده من بنته ، وقد حف به وزراء السلطان ووجوه القواد ، وأكابر أهل الخدمة ، والمماليك فى أحسن وأكمل تعبئة . فلما وقعت عينه على الصبى، ترجل وباس رجله ، فأمر بالركوب ، وأقبل معه إلى أبيه . وصار بين صفى حديد حفافىّ الطريق أميالاً : ما ثمّ إلا الدروع السابرية (٣)، والجواشن المذهبة ، والأبطال قد لبسوا السُوق والسواعد ، وأسبغوا الجلق ، وعلّقوا الدُرق ، وخلفهم صفوف الرماة مشدوداً عليها المناطق المذهبة . والملك الرومى يقلب الطرف ، قد غشى قلبه ذعراً ، إلى أن وصل إلى مجلس المنصور فى الساعة

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠١ نقلاً عن ابن حيان .

(٢) نظراً لوقوع مملكة نبّرة أو نافارا Navarra أو البشكنس Vascos عند معابر جبال البرنات Pirineos المؤدية إلى فرنسا وأوروبا ، فقد حرص حكام الأندلس على محالفة ملوكها ومصاهرتهم لضمان أمن وسلامة هذه المنطقة من عبور الأعداء من خلالها .

(٣) السايرية درع دقيق النسج محكمه ، ينسبه البعض إلى سابور ملك الفرس .

السابعة من النهار ، وقد قعد له أفخم قعود ، وأعلى مرتبة ، مكتنفًا سريره بالوزراء وأعاظم رجال الدولة . وامتد الوصفاء والصقالبة صفين من باب المجلس إلى باب القصر . فحين وقعت عينه على المنصور بن أبى عامر ، أهوى إلى الأرض مُقبلاً ، يعيد ذلك مرات ، وهو يستدنيه ، حتى قبّل رجليه ويديه . وأمر ، فألقى له كرسى مذّهب قعد عليه ، وأشار ، فخرج الناس ، وخلا به قاضيًا وطره من عدله ، والعلج يقابله بالاعتراف ثم خرج وتبعه بالخلع السلطانية ، ومشت بين يديه المراكب والبروز . وما انفض المجلس إلا تحت جناح الليل ، (١) .

رابعًا : عناصر الجيش الأندلسى :

لم تتقيد مجتمعات العصر الوسيط بتلك الطبقات الاجتماعية القومية الرأسية التى تميزت بها مجتمعات العصر الحديث . فلا نجد فيها جيشاً قومياً مصرياً أو شامياً أو أندلسياً بالمفهوم القومى الحديث ، بل غلب على مجتمعات العصر الوسيط العالمية والطابع الطبقى الأفقى على مستوى العالم الإسلامى حيث يتعاطف أفراد كل طبقة بعضها مع بعض رغم تعدد جنسياتها . فهناك طبقة العلماء ، وطبقة التجار وطبقة المتصوفة ، وطبقة الجند ... الخ.

ولقد درس العرب منذ البداية طبيعة شعوب البلاد التى فتحوها وجندوا منها الأجناس التى لها مواهب طبيعية فى فنون الحرب والقتال كالأتراك والخرسانية والبربر وغيرهم .

وعلى هذا الأساس كانت الجيوش الاسلامية فى كل بلد خليطًا من الأجناس المختلفة التى احترفت مهنة الحرب والقتال وتدربت عليها منذ الصغر . ولقد تنوعت هذه العناصر وتبدلت حسب الموضع الجغرافى لكل بلد وظروفه السياسية ، فجيوش مصر والشام مثلاً كان أغلبها فى العصر الوسيط من العرب والمماليك الأتراك والأرمن والسودان والأكراد والمغاربة وغيرهم .

أما بالنسبة للأندلس فيلاحظ أنه لم يكن يوجد فيها بعد الفتح الاسلامى

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٣-٧٤.

جيش نظامى قائم بذاته ، وإنما كانت هناك قبائل وعشائر تمد الدولة بالجيوش اللازمة على أساس النظام الاقطاعى العسكرى المعروف فى العصور الوسطى: فالقبائل العربية والمغربية التى حلت بالأندلس قد وزعت على الكور والمدن الأندلسية ، وأبيح لها حق استغلالها وجباية الأموال من أهلها ، فكانت تأخذ عطاءها من هذه الأموال ، وترسل الفائض إلى خزانة الدولة وفى مقابل هذا الاقطاع كان على كل قبيلة أن تساهم بعدد من أبنائها فى حالة الحرب . ومن أهم العناصر التى تكون منها الجيش الأندلسى :

١- **العــرب** : وهم العنصر الحاكم بعد الفتح الاسلامى ، وقد دخلوا الأندلس على شكل أفواج متتابعة عرفت باسم الطوالع . وأول طالعة عربية هى طالعة موسى بن نصير سنة ٩٣هـ/٧١٢م . وكان معظمها من عرب الحجاز واليمن الذين استقروا فى المغرب والأندلس واختلطوا بأهلها الأصليين حتى إنهم عرفوا باسم « البلديين » بمعنى أنهم صاروا من أهل البلاد . وقد انتشرت منازلهم فى الأماكن الدافئة فى حوض الوادى الكبير وفروعه ، ثم انساحوا شرقًا فى نواحى مالقة والمرية ، كما انتشرت قبائلهم غرباً وشمالاً فى نفس الخط الحربى الذى سار فيه موسى بن نصير .

وظل الحال كذلك إلى أن قدم الجيش الشامى بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى الذى قتل فى معركة مع البربر فى بقدورة على ضفاف نهر سبو Sbou بالمغرب الأقصى سنة ١٢٣هـ/٧٤١م وخلفه ابن أخيه بلج بن بشر القشيرى الذى انسحب بفلول الجيش إلى سبتة ، ومنها عبر بعد ذلك إلى الأندلس . وقد عرفت هذه الطالعة الشامية بطالعة بلج بن بشر وتقدر بنحو عشرة آلاف فارس .

وقد نتج عن دخول الشاميين على الحجازيين فى الأندلس ، أن ثارت العداوات القديمة بينهما ، إذ أن عرب الحجاز كانوا ناقمين على بنى أمية وأنصارهم عرب الشام لأنهم استباحوا بلادهم الحجاز فى موقعة الحرة شرقى المدينة المنورة سنة ٦٣هـ فى خلافة يزيد بن معاوية ، وكذلك فى مكة المكرمة أيام ثورة عبد الله بن الزبير فى خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٣هـ . لهذا قامت فى الأندلس حروب بين الطائفتين قتل فيها والى الأندلس

عبد الملك بن قطن زعيم الحجازيين ، وأيضاً بلج بن بشر زعيم الشاميين . ثم ولى على الأندلس والٍ جديد سنة ١٢٥هـ /٧٤٣م وهو الشاعر أبو الخطار بن ضرار الكلبى الذى رضى به الشاميون والبلديون لأنه كان يمنى الأصل وفى نفس الوقت من أعيان الشام . واستطاع أبو الخطار أن يعالج الأمور بسياسة الحزم والاعتدال ، فسوى بين جميع القبائل ، ووزع جنود الشام على الكور الأندلسية ليحدَّ من شوكوتهم ، وحرص فى هذا التوزيع على أن تكون الأمكنة التى ينزلون فيها مشابهة إلى حدٍ كبير بالأماكن التى جاءوا منها فى المشرق . فأهل حمص انزلهم اشبيلية وسماها حمص ، وأهل دمشق أنزلهم غرناطة وسماها دمشق ، وأهل الأردن أنزلهم مالقة وسماها الأردن ، وأهل مصر أنزلهم تدمير (مرسية) وسماها مصر وهكذا ، وذلك على هيئة اقطاعات عسكرية ، كل قبيلة تجبى غلة تلك الناحية التى نزلت فيها ، وتأخذ عطاءها منها والزيادة لبيت المال ، وذلك فى مقابل تقديم عدد من أبنائهم فى وقت الحرب .

ومن الطريف أن تلك التسميات الشرقية ظلت مرادفة لأسماء هذه المدن الأندلسية ولا سيما فى الشعر الأندلسى الذى كثيراً ما تخللته كلمات مثل حمص ودمشق للدلالة على اشبيلية وغرناطة (١) .

وبهذا التقسيم هدأت الأمور فى الأندلس ولكن لفترة قصيرة فقط ، إذ سرعان ما قامت حروب العصبيات القبلية بين اليمنية والقيسية التى عمت بلاد المشرق والمغرب أثناء احتضار الدولة الأموية فى دمشق ، وانتقلت عدواها إلى الأندلس حيث انقسمت القبائل الشامية والحجازية على نفسها إلى هاتين العصبيتين ، وقامت بينهما تلك الحروب التى حسمها لصالحه صقر قريش الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل (أى الداخل إلى الأندلس) مؤسساً دولة بنى أمية فى الأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م فأحياها من جديد فى قرطبة بعد ست سنوات من زوالها فى المشرق من دمشق .

---

(١) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٣١ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٨١ (نشر وترجمة ليفى بروفنسال) ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٥ ، ٢٢١ .

على أن المهم هنا ، هو أن هذه الدولة الأموية الجديدة فى قرطبة ، استمرت تعتمد فى حروبها على هذا النظام الاقطاعى العسكرى أو ما يعرف بالكور المجندة . بمعنى أن هذه الكور المجندة كانت بمثابة قوات الجيش الدائمة التى تهرع إلى القتال عند استدعاء الأمير لها فى أى وقت لأداء واجب الجهاد والنزال .

وكان لكل كورة ديوان للجند ، وهو بمثابة وزارة للدفاع ، فيها سجل بأسماء جنودها . ففى حالة اعلان النفير أو الاستنفار ، تتجمع هذه القوات المدونة من الجند أو الأجناد فى ديوان كل كورة ، إلى جانب ما يضاف إليها من المتطوعين المجاهدين والمرابطين الذين عرفوا باسم « الحشد » ولذا جرت العادة فى المصادر الأندلسية استخدام كلمتى « الجنود والحشود » ويبدو أنه كانت هناك ضريبة تكفل بها أهل الأندليس لاستضافة وتموين هؤلاء المتطوعين المرتزقة عرفت بجباية الحشد » ، وقد أشار البكرى إلى ذلك فى قوله :

« وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جبلية ، وكانت جباية هذه الأقاليم فى أيام الحكم به هشام (الربضى) : الحشد ، وناضُّ الطبل ، وناضّ البيزرة للعام ١٤٢ ألف دينار ، ومن وظيفة القمح مدياً (١)٥٣ ألف مُد ، ومن الشعير ٧٣ ألف مد »(٢) .

ومن المعروف لغوياً أن الناضّ والنضّ ، تعنى الدرهم والدينار أى الأموال

---

(١) المُدى والمُد والجمع أمداد وبالأسبانية Mud، كَيْل معين اختلفت سعته فى العالم الإسلامى ، فهناك المد النبوى وهو ربع الصاع وسعته حوالى ٧٥, لتر بينما سعة الصاع ٣ لتر . وكان يلاحظ أن سعة المد الذى كان متداولاً فى المغرب الإسلامى خلال العصر الوسيط صارت أكبر من ذلك بكثير إذ صار يقدر بعشرين أو خمس وعشرين مداً نبوياً !! كذلك كانت سعة المد من القمح فى قرطبة على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر تقدر بقفيزان ونصف بالقروى (أى القيروان) وثمنه ثلاثمائة درهم . راجع كتابنا (تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشياط ص ٥٩ خاشية (مدريد سنة ١٩٧١) .

(٢) راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ٢٥٠ -٢٥١ (ملحق فى آخر الكتاب) .

النقدية . فالنص هنا يدل على وجود موارد مالية خاصة بالتجنيد العسكرى فى القرن الثالث الهجرى (٩م) . فهناك جباية خاصة من هذه الأقاليم لصالح هؤلاء المجندين المتطوعين (الحشد) ، ولصالح ناض الطبل (أى أموال الأمير الأقطاعى) ، وناض البيزرة ، أى الأموال المتعلقة بالبزاة والصقور إلى جانب أمداد القمح والشعير .

ولقد أورد ابن حيان مثالاً احصائياً عن كيفية مساهمة الكور فى حركة التعبئة للجيوش فى عهد الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م) وهو إحصاء لفرق الفرسان المساهمة من كور الأندلس فى الحملةالتى وجهها ضد اشتوريس Asturias فى شمال غرب أسبانيا سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وفيها نجد أن : كورة شذونة Sidonia أعطت ٦٧٩٠ رجلاً، وكورة البيرة (غرناطة) أعطت ٢٩٠٠ رجلاً ، وكورة جيان أعطت ٢٢٠٠ رجلاً ... الخ حتى بلغ المجموع حوالى ٢٢ ألف فارس من الشاميين والبلديين(١).

والواقع إن مسألة تعداد الجيش والفرق التى يتكون منها مرتبطة تماماً بميزانية الدولة . وقد استمر الحال على هذا الوضع حتى أواخر الحكم الاسلامى فى الأندلس حيث نجد ابن خلدون فى مقدمته يربط بين النظام المالى وديوان الجند .

ولهذا حرص المؤرخون على إعطاء بيانات عن خراج الدولة ومواردها

---

(١) أنظر :

(Levi Provençal : Historia de Espana, tomo V P. 49 (Madrid 1957).

نقله عن الفرنسية جاريثا جومث .

ولقد اهتم المؤرخون الأندلسيون بأنساب العرب الذين دخلوا أسبانيا ، وأسماء منازلهم فيها ونخص بالذكر منهم أبا محمد على بن حزم القرطبى فى كتابه جمهرة أنساب العرب (ذخائر العرب رقم ١) وأبا الوليد عبد الله المعروب بابن الفرضى فى كتابه تاريخ علماء الأندلس . وأحمد المقرى فى الجزء الأول من كتابه نفح الطيب . راجع كذلك (مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية فى الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية (دار النشر المغربية - الدار البيضاء) .

ونصيب الجيش منها . فالمقرى يصف دخل الدولة الأموية فى أوائل عهدها بقوله :

« كان مبلغ خراج الأندلس الذى كان يؤدى إلى ملوك بنى أمية قديماً ، ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة ، وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم ، فكانوا يعطون جندهم ورجالهم الثلث من ذلك مائة ألف وينفقون فى أمورهم ونوائبهم ومؤمن أهليتهم مائة ألف دينار ، ويدخرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار » (١) .

ولما ازدهرت الدولة الأموية فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) ارتفعت أرقام هذا الدخل إلى أضعاف ذلك، فيذكر ابن عذارى أن قيمة ما كان يحصل من جباية فى العام من الكور والقرى الأندلسية فى عهده ، بلغ خمسة آلاف ألف وأربعمائة وثمانية ألف دينار ، ومن المستخلصات من الأسواق سبع مائة ألف وخمسة وستين ألف دينار (أى ما يزيد على ستة ملايين دينار) فكان الناصر يقسمها ثلاثة أثلاث: ثلث ينفقه على الأجناد ، وثلث ينفقه على البناء وعلى هبات الشعراء والخطباء والقصاد ، وثلث يدخره فى بيت المال » (٢).

وتستمر الزيادة فى الدخل فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر (ت ٣٩٢هـ/١٠٠٢ م) نتيجة لاتساع حملاته العسكرية ضد الممالك الأسبانية ، وما ترتب عليها من كثرة مال السبى والغنائم إلا أن هذه الحروب تطلبت فى الوقت نفسه كثرة الأنفاق حتى قيل إن غزوة الصائفة الواحدة فى عهد المنصور كانت تقدر ميزانيتها بخمسمائة ألف دينار (أى نصف مليون دينار) وتشمل التموين والرواتب والهبات(٣) .

على أن المهم هنا هو أنه فى خضم هذه الاستعدادات العسكرية الكبرى التى قام بها المنصور بن أبى عامر لشن الحملات على الممالك الأسبانية ،

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٠ ، ٣٢٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٩٨ .

منبت العصبية القبلية العربية ، كما منى النظام الإقطاعى العسكرى بفشل ذريع نتيجة للاصلاحات التى أجراها المنصور فى الجيش الأندلسى والتى كان يهدف من ورائها إضعاف نفوذ القوة العربية الأندلسية التى يقوم عليها نظام الجند والكور المجندة من قديم ، وإحكام سيطرته على القوات المسلحة بمختلف عناصرها .

وكان هذا التنظيم الجديد الذى أجراه المنصور يقوم على جعل الجيش وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادته : فألغى العنصرية أو العصبية فى ترتيب فرق الجيش ، كما ألغى النظام الإقطاعى العسكرى ، بمعنى أنه جعل الجيش كله جيشاً نظامياً دائماً مثل نظام الجيوش الحديثة ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المختلفة كالعرب والبربر والمماليك الصقالبة . وكل جندى من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلاً من استغلاله للإقطاع كما كان الحال سابقًا . وعين على الأرض جباة يجبونها . وبهذا يضعف ويخفف من حدة الفتن والحزازات بين عناصر الجيش وقواده .

وفى ذلك يقول الأمير المعاصر عبد الله بن زيرى آخر ملوك غرناطة فى عصر الطوائف (٤٦٩-٤٨٣هـ/١٠٧٧-١٠٩٠م) مبرراً هذه السياسة العامرية :

« وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخلُّ بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحداً ، وتألُّبهم على معصية أمره متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسوّل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقة : إن همّ أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غلبها بسائر الفئات » (١).

ولقد أفاد هذا النظام الجديد فى بادئ الأمر ، إذ زالت العصبية القبلية بين فرق الجيش ، واستطاع المنصور أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه ، وأن يحرز به انتصاراته .

---

(١) عبد اللهّ بن زيرى : كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة ص ١٦ نشر ليفى بروفنسال ، مجموعة ذخائر العرب رقم ١٨ (القاهرة) .

ولكن بعد وفاة المنصور وابنه المظفر ، دبّ الفساد فى جسم الدولة ، فلم تستطع دفع رواتب الجند ، فكثر شغبهم ، وانتقل الفساد إليهم فضعفوا أمام العدو ، وانتهى الأمر بسقوط الدولة الأموية وتفككها إلى دويلات طائفية سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م . وظل الحال على هذا النحو إلى أن دخل المرابطون الملثمون الأندلس فى أواخر القرن الخامس الهجرى (١١م) ، فرأوا أن خير وسيلة لإصلاح حالة الجيش ، هى إعادة النظام الإقطاعى العسكرى من جديد . وفى ذلك يقول المؤرخ الأندلسى المعاصر أبو بكر الطرطوشى (ت سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م) فى وصف اصلاحات المنصور للجيش وما ترتب عليها من نتائج :

« وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون : مازال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ، وأمر العدو فى ضعف وانتقاص ، لما كانت الأرض مقطعة فى أيدى الأجناد ، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربى التاجر تجارته ، وكانت الأرض عامرة والأموال وافرة ، والأجناد متوافرين ، والكراع(١) والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر فى آخر أيام ابن أبى عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدم على الأرض جباة يجبونها ، فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم ، واستضعفوهم ، فتهاربت الرعايا ، وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضعفت الأجناد ، وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذوا الكثير منها . ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور إلى أن دخلها الملثمون ، فردوا الإقطاعات كما كانت فى الزمان القديم »(٢) .

ومن أسماء الأعلام الجغرافية الأسبانية التى مازالت تحمل أسماء القبائل العربية ، حتى الآن نذكر :

Alcaicia (القيسية) فى بلنسية ، Almoradi (المرادى) نسبة إلى بنى مراد وهى قبيلة يمنية معروفة فى لقنت Alicante ، Alhemdin (همدان)

---

(١) الكراع والأكارع يقصد بها المواشى .

(٢) راجع (أبو بكر الطرطوشى : كتاب سراج الملوك ص ٢٢٩) .

وهى إحدى كبريات القبائل اليمنية أيضاً فى غرناطة ، Ojén(خشيْن) إحدى بطون قضاعة فى مالقة وهكذا (١).

٢- **البربر** : يقرن المغرب دائماً بالأندلس ، ويبدو هذا الاتصال الوثيق بوضوح فى منطقة العدوتين (٢) التى حول مضيق ..... (جبل طارق) منذ القدم . فيذهب علماء ما قبل التاريخ إلى الاعتقاد بأن البلاد المغربية كانت متصلة بأسبانيا فى العصور الجليدية فى العصر الحجرى القديم Paleoletic مستندين فى ذلك إلى البقايا العظمية القديمة التى عثروا عليها فى الكهوف والمغارات الساحلية فى هذه المنطقة مثل مغارة جبل قلب وهو الاسم القديم الفينيقى القديم لجبل طارق Mons Calpe ومعناه تجويف أو مغارة ، أى الجبل المجوف ، ومثل مغارة العالية ، وأشقر بجوار طنجة ، ودار السلطان جنوب الرباط ، والخنزيرة جنوب الجديدة (مازيغان) ، وغيرها (٣) .

وعلى هذا الأساس يفترض العلماء أن عبور الانسان العاقل Homo Sapiens إلى أوروبا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد فى منطقة المضيق ، وليس من منطقة القوقاز فحسب كما هو معروف .

كذلك حدثت فى هذه المنطقة هجرات العناصر الأيبيرية القديمة Iberos إلى أسبانيا ، وهى خليط من العناصر الحامية الليبية فى شمال افريقيا ، التى أعطت شبه الجزيرة اسمها إيبيريا Iberia . ولقد اختلط هؤلاء الأيبيريون فى أسبانيا بالعناصر الكلتية أو السلتية Celtos الأوروبية القادمة من الشمال ، ومن هذا المزيج تكون الشعب الأسبانى القديم Celtiberos .

---

(١) راجع (محمود مكى : مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى أسبانيا ص ١٩ (مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة - الدورة ٦١ مارس - ابريل سنة ١٩٩٥ / شوال - ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ) .

(٢) العدوتان والمفرد عدوة ومعناها شاطئ الوادى أو النهر أو البحر ، والمقصود بالعدوتين هناك تلك المنطقة التى تحيط بالشاطئ الأسبانى الأوربى الجنوبى ، والشاطئ المغربى الافريقى الشمالى حول مضيق جبل طارق فى أقصى الغرب . فالعدوتان منطقة أمن ووصل للمغرب والأندلس .

(٣) رشيد الناضورى : المغرب الكبير فى العصور القديمة ص ٦٢.

واستمرت هذه الصلة القوية بين العدوتين عبر السنين والعصور ، وخدم البربر فى أسبانيا فى عهود الرومان والقوط الذين أشادت مصادرهم بشجاعة البربر أو الأمازيغ وهى التسمية الأصلية القديمة لسكان المغرب ومعناها الحر الأبى ولما جاء الفتح الاسلامى لبلاد المغرب ولمس العرب عن كثب شجاعة البربر وشدة مراسهم فى القتال ، عملوا على اصطناعهم واكتساب قلوبهم عن طريق نشر الإسلام بينهم وادخالهم فى جيوشهم كجنود وقادة محاربين . وهذا يعتبر حدثاً فريداً فى تطور السياسة العربية فى هذه الفترة الاسلامية المبكرة التى كان العرب فيها يعتبرون أعمال السياسة والحرب من صميم اختصاصهم وحدهم . وواضح أن اشتراك العرب والبربر فى جيش واحد ، كان يرجع إلى حد كبير إلى تشابه الشعبين فى كثير من الصفات والعادات الحربية والاجتماعية . لهذا كان البربر أسبق العناصر التى دخلت الأندلس . ومن المعروف أن معظم الجيش الذى فتح الأندلس كان مكوناً منهم وبقيادة رجل منهم وهو طارق بن زياد .

ولقد ساعد اقتراب المغرب من الأندلس على توالى هجرات المغاربة إليها طوال العصور الاسلامية ، فى الوقت الذى قلّت فيه الهجرات العربية من المشرق إلى الأندلس . ولهذا يمكن القول بأن الغالبية من سكان الأندلس من المسلمين كانوا من البربر بينما كان العرب أقلية بالنسبة لهم .

أما من ناحية الأماكن التى نزلوا فيها بالأندلس ، فهى كثيرة جداً ، ومازالت أسماؤهم تطلق إلى اليوم على أماكن عديدة فى أسبانيا والبرتغال .

يقول الزميل العزيز د. محمود مكى فى هذا الصدد :

« وكثير من أسماء المواضع التى تحمل حتى الآن أسماء القبائل البربرية ، نذكر منها Albornoz فى قرطبة واشبيلية ، وكذلك Albornos فى آبلة Avila ،وهو برنس بن بر ، جد شعب كبير من شعوب البربر يدعى فى صيغة الجمع البرانس ، وإليه تنتمى مجموعة كبيرة من القبائل مثل كتامة وصنهاجة ومصمودة وأوربة وهواره . ومنها Azuaga فى بطليوس وهى قبيلة زواغة إحدى قبائل البرانس ، Cenhegin فى مرسية ، وهو اختصار للفظ الصنهاجيين ؛ Zaneta فى قشتليون ، Ceneta فى مرسية ، واللفظان مأخوذان من زناتة ؛

Mequineza فى سرقسطة ، وهى مكناسة إحدى قبائل زناتة ؛ Gazules فى فارس وهم بنو جزولة من البرانس ؛ Gomara غمارة فى المرية وهى من البرانس ؛ Orba أورية فى دانية ؛ وأورية إحدى قبائل البرانس .... الخ (١) .

هذا ، وتجدر الإشارة هنا إلى عدم صحة ما يقال من أن العرب استأثروا بالأماكن الدفيئة تاركين للبربر الأماكن الجبلية الباردة ليعيشوا فيها ، والحقيقة أن كلاً من العرب والبربر قد استقروا فى الأماكن التى تلائم طبيعتهم ومزاجهم . ومن المعروف أن البربر فى بلادهم المغرب عاشوا ومازالوا يعيشون إلى اليوم فى جهات جبلية . ولهذا حينما انتقلوا إلى الأندلس ، استقروا باختيارهم فى المناطق الجبلية الممتدة من وسط إلى شمال أسبانيا وهى المعروفة باسم الجوف، وهو اصطلاح عام فى المغرب والأندلس يعنى الشمال ، ويقابله لفظ القبلة بمعنى الجنوب .

ولهذا كان معظم أمراء الثغور فى تلك الأراضى المرتفعة من البربر مثل بنى ذى النون فى طليطلة ، وبنى سالم بن ورعمال فى مدينة سالم Medinaceli ، وبنى الأفطس فى بطليوس Badajoz ، وبنى رزين فى شنتمرية الشرق Santa Maria de Albarracin التى سميت أيضًا بالسهلة لخصوبتها ، وبالقلاع لحصانتها حيث أنها تقع فى مكان وسط بين الثغر الأعلى سرقسطة ، والثغر الأدنى طليطلة ، فهى ثغر من ثغور الأندلس(٢) .

كذلك استقرت جماعات من البربر فى الجنوب مثل بنى الملاخ فى مرتفعات جيان Jaen ، وبنى يفرن فى رنده Ronda (عصا الأندلس) وبنى برزال فى قرمونة Carmona ، وبنى زيرى فى غرناطة ومالقة .

---

(١) راجع (محمود مكى : مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى أسبانيا (مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة – الدورة ٦١ مارس – ابريل سنة ١٩٩٥ / شوال – ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ) .

(٢) أنظر :

(Jacinto Bosch Vila : Historia de Albarracin) Musulmana y su sierra P. 33 (Teruel 1959) .

وإلى جـانب هؤلاء الملوك والأمـراء ، هناك المجـاهدون المطوعـة من المغاربة الذين اعتادوا مغادرة ديارهم فى المغرب فى شهر رمضان المبارك ، والاتجاه إلى هذه المناطق الثغرية الأندلسية للرباط والجهاد فيها . مثال ذلك رواية ابن حيان عن الفقيه عباس بن ناصح الذى اعتاد فى فترات معينة من كل سنة أن يرابط فى ثغر وادى الحـجـارة Guadalajara بالثغر الأدنى . ومعروف عن هؤلاء البربر المطوعة أنهم فى بلادهم لم يعتادوا عيشة المدن ومعاملة الحكام وأتباعهم ، ولهذا كانوا يفضلون هذه المناطق الجبلية النائية التى يمكنهم فيها ممارسة الزراعة والرعى إلى جانب الحراسة والحرب . ولهذا استقروا فى البداية على سفوح سلسلة جبال وادى الرملة Sierra de Guadarrama ، ووادى التاجو Tajo وفروعه ، ثم فى القلاع الجديدة التى تأسست منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وولده محمد بين طليطلة ومدينة سالم Medinaceli مثل مجريط Madrid ، وقنالش Canales ، ووادى الحجارة ، وأبال Ovejo وغيرها . وكانت شنتبرية Santaver من الحصون القوية التى كان معظم سكانها من المجاهدين القادمين من المغرب(١) .

وهكذا نرى المغرب قد ربط مصيره وإمكانياته بالأندلس منذ البداية ، كما أعد شعبه ليكون شعباً محارباً قد ترسبت فى نفسه فكرة الجهاد والرباط حتى صارت جزءاً من كيانه . ولذا يمكن القول بأن من أهم الانجازات التى قدمها المغرب إلى الأندلس هى تلك الإنجازات العسكرية سواء كانت من الفرسان المدربين أو الأسلحة المتطورة أو التكنيك الحربى وفنون القتال .

يروى ابن حيان فى هذا الصدد أن الخليفة الأموى الحكم المستنصر (توفى سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م) شجع فرسان زناتة من بنى برزال وغيرهم على القدوم إلى الأندلس والخدمة فى جيوشه ، مقدمًا لهم الأرزاق الوفيرة ، فكان

---

(١) أنظر :

(Antonio Guzman Reina : Politica y Milicia en el Andalus, P. 71-72, Cordoba 1969).

واقليم شنتبرية يعرف الآن بقونقة Cuenca شرقى طليطلة . وهذه المناطق كانت تعرف عند المسلمين باسم الجوف أى الشمال .

لديه منهم قوة تقدر بنحو سبعمائة فارس ، وأنه كثيراً ما كان يشرف ويتطلع عليهم بساحة قصره ، دار الرخام ، إذا تحركوا للعب معجبًا بهم ويقول لمن حوله : ما أعجب انقياد الخيل لهم كأنها تفهم كلامهم ! فكأنهم الذين عناهم الشاعر أبو الطيب المتنبى فى قوله :

وكأنما وُلدت قياماً تحتهم وكأنهم وُلدوا على صهواتها !! (١)

ولقد سار على هذه السياسة من بعده الحاجب المنصور بن أبى عامر (ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) الذى توسع فى استخدام البربر كجنود مرتزقة فى جيوشه مقدماً لهم كل الحوافز والتسهيلات من أرزاق وإقامة . فتوافدوا على الأندلس من موانى الجزيرة الخضراء ، ومالقة ، والمرية ، على شكل جماعات قبلية مثل بنى يفران الزناتية بقيادة أبى يدس بن دوناس ، وبنى زيرى الصنهاجيين بقيادة زاوى بن زيرى وابن أخيه حبوس بن ماكسن ، وفى رواية معاصرة نقلها ابن الخطيب أن عدد الفرسان من البرابرة الذين قيدوا فى ديوان المنصور بلغ ثلاثة آلاف فارس . وهذا عدا ما ينضاف إليهم من الأتباع ومن رجالة السودان الداخلين فى عدادهم ويبلغ عددهم ألفى راجل (٢) .

وهكذا امتلأت العاصمة قرطبة بهؤلاء الوافدين الجدد مما أدى إلى اتساعها بإنشاء أحياء جديدة فيها . وقد اضطر المنصور أمام تزايد السكان إلى بناء زيادة جديدة فى جامع قرطبة من جهته الشرقية سنة ٣٨٠هـ بعد أن أصبحت الزيادة التى أجراها قبله الخليفة الحكم المستنصر من ناحية المحراب سنة ٣٥٠هـ غير كافية(٣) .

ولا شك أن إقبال المنصور بن أبى عامر على الاستعانة برؤساء البربر وفرسانهم فى جيوشه ، قد أفاده فى تحقيق انتصاراته على الممالك الأسبانية

---

(١) هذا البيت من قصيدة للمتنبى يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران الأنطاكى . راجع (ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس تحقيق عبد الرحمن الحجى ص ١٩٣ (بيروت سنة ١٩٦٥) .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٨٧ .

المسيحية مما أكسبه شرعية فى الحكم وشعبية بين الناس كمجاهد فى سبيل الله.

وفى الوقت نفسه استطاع بهذا العمل أن يحد من نفوذ الطبقة العربية الأندلسية المحاربة التى يقوم عليها نظام الأجناد القديم . وقد شرح لنا هذه السياسة العامرية ، الأمير عبد الله بن زيرى أمير غرناطة فى مذكراته حينما أشار إلى أن استعانة المنصور بالبربر كان بدافع الخوف من الجيش الخلافى الأنداسى فى أن يثور ضده أو يعزله أو يقضى عليه ، وأن هذا الخوف هو الذى جعله يعيد تنظيم الجيش الأندلسى تنظيماً عسكرياً جديداً فى أواخر حياته(١) .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذه السياسة المغربية التى اتبعها المنصور ، وإن كانت قد حققت له نصراً عسكرياً ، إلا أنها قد تفجرت عنها فيما بعد ما يعرف باسم « الفتنة البربرية » «والحرب الأهلية » العنيفة التى دارت فى الأندلس أثناء احتضار الخلافة الأموية وسقوطها سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م (٢) .

٣- **السودان** : تسمع عن استخدام الجنود السود بالأندلس فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل صقر قريش (ت سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م) إذ يرد فى كتاب أخبار مجموعة أن هذا الأمير أحاط نفسه بحرس من العبيد السود أطلق عليهم « عرافة السود » ، والعرافة هى الدائرة أو الديرة أو المحلة التى يقيم فيها الجنود . يقول النص : « اشترى الأمير عبد الرحمن بزيغ الحارث عندما قاتل وأبلى وظهرت منه نجدة : فقال له الأمير عبد الرحمن : عبد أنت أم حر؟ فقال له : بل عبد ، فأمر بشرائه وعرّفه فى عِرافة السود » (٣) .

كذلك يفهم من كلام ابن حيان أن اسم « الطنجيين » كان يطلق فى

---

(١) راجع (مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة ص ١٦-١٧ ، نشر ليفى بروفنسال (مجموعة ذخائر العرب رقم ١٨) وقد سبقت الإشارة إلى الاصلاحات التى أجراها المنصور فى الجيش الأندلسى .

(٢) ابن سماك العاملى : الزهرات المنثورة ص٧٣ حاشية ، تحقيق محمود مكى (مدريد سنة ١٩٨٤) .

(٣) راجع كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها لمؤلف مجهول ص ١٠٩ .

الأندلس فى أوائل العصر الأموى على أخلاط من الجنود المرتزقة من « أراذل البرابر والعبيد » ، الذين كانوا يفدون إلى الأندلس ويعملون بأقل الرواتب وفى أشق الخدمة(١) . ولا شك أن اسم الطنجيين يرجع إلى مدينة طنجة المغربية التى كانت بمثابة مكان لجمع وتسجيل وترحيل هؤلاء المرتزقة إلى الأندلس . وقد أشار ابن عذارى إلى انضمام جماعة من هؤلاء الطنجيين إلى حركة الثائر عمر بن حفصون سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م فى عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموى (٢). كما يشير أيضاً إلى شغبهم يوم عرض الجيش فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م (٣)، واستشهاد بعضهم فى معركة مع المسيحيين فى عهد الناصر أيضاً سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م (٤).

ومن غريب ما يروى عن الخليفة عبد الرحمن الناصر ما ذكره ابن حيان عن معايب هذا الخليفة وعبثه فى رعاياه بقوله « وعلق أولاد السودان فى ناعورة فى قصره بدلاً من القواديس الغارقة فى الماء فأهلكهم »(٥) .

وفى عهد ولده الحكم المستنصر نجد إشارات واضحة عن استخدام السودان فى جيوشه ، فيذكر ابن حيان أن هذا الخليفة ضم إلى جيوشه فرقة العبيد السود الذين جاءوا إلى قرطبة صحبة سيدهم وقائد الفاطميين السابق جعفر بن على بن حمدون بعد خروجه عن طاعة الفاطميين ، وانتصاره على زيرى بن مناد الصنهاجى وانضمامه إلى الحكم المستنصر متنازلاً له عن هؤلاء العبيد (٦).

ثم جاء الحاجب المنصور بن أبى عامر ، فاستخدم عدداً كبيرًا من رجّالة « الرقاصة السودان » ، بلغ عددهم ألفى راجل ، قدموا إلى الأندلس فى عداد

---

(١) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ نشر عبد الرحمن الحجى .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٣) ابن عذارى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٤) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ (الخاص بعبد الرحمن الناصر) نشر شالميتا وزملاؤه ص ٣٤١.

(٥) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ نشر شالميتا وكورينط وصبح ص ٣٧ .

(٦) ابن حيان : المقتبس (الجزء الخاص بالحكم المستنصر) تحقيق عبد الرحمن الحجى ص ١٩٢ .

طوائف فرسان البربر من المغرب(١) . ويلاحظ أن كلمة رقاص ورقاقيص ، كانت تطلق فى المغرب على عمال البريد والسعاة . ولهذا يبدو أن هؤلاء السودان الرقاصة كانوا مكلفين بهذا العمل الخاص بنقل مراسلات الدولة الرسمية خصوصاً وقد اشتهر عنهم سرعة الركض(٢) . وفى هذا الصدد أيضاً يقول ابن بسام : « وكان المنصور بن أبى عامر تحمل سريره السودان الرقاصة للين مشيهم ، وكان يتأذى بصنان ريحهم مع ما كان حوله من الطيب !! »(٣)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء السودان ، كانوا على الصعيد الشعبى ، منتشرين كخدم فى البيوتات الأندلسية ، ولا بأس من أن نسرد هنا قصة العالم اللغوى أبى العلاء صاعد البغدادى (ت ٤١٧هـ) وغلامه كافور الأسود الذى كان كالنخلة إشرافاً لطول قامته . قال صاعد :

جمعت خِرق الأكياس والصُرر التى قبضت فيها صلات المنصور بن أبى عامر ، فقطّعت لكافور غلامى منها قميصاً كالمرقّعة ، وبكّرت به معى إلى قصر المنصور ... فقلت : يا مولانا ، لعبدك حاجة ، فقال : اذكرها . قلت : وصول غلامى كافور إلى هنا . فقال :وعلى هذه الحال ؟ فقلت : لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك . فقال : ادخلوه . فمثل قائماً بين يديه فِي مرقّعته وهو كالنخلة إشرافاً . فقال : قد حضر وإنه لباذُ الهيئة ، فما لك أضعته ؟ فقلت : يا مولاى ، هناك الفائدة . اعلم يا مولاى أنك وهبت لى اليوم ملىء جلد كافور مالاً . فتهلل وقال : لله درّك من شاكرٍ مستنبطٍ لغوامض معانى الشكر ! وأمر لى بمال واسع وكسوة ، وكسا كافوراً أحسن كسوة ، (٤).

كذلك حينما يتحدث ابن بسام (ت ٥٤٢) عن مقتل الأديب الكاتب ابن

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٠٢ .

(٢) حول كلمة رقاص راجع :

(R.Dozy: Suppl. aux Dict. Ar. tome I p. 457).

(٣) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة المجلد الأول ، القسم الرابع ص ٥٥ (القاهرة ١٩٤٥) .

(٤) ابن سماك العاملى : الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ص ٧١-٧٢ تحقيق محمود مكى (مدريد ١٩٨٤) .

الجزيرى فى عهد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور عن أبى عامر يقول: فأدخل عليه فى مطبقه قوم من السودان وخنقوه ودفن فى شوال سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م (١).

على أنه يبدو أن استخدام السودان فى الأندلس لم يتم على نطاق واسع إلا منذ أيام السيطرة المغربية فى عهد المرابطين والموحدين حينما قوى ارتباط المغرب بالأندلس من جهة ، وبالسودان الغربى من جهة أخرى ، شأنه فى ذلك شأن انتشار الذهب السودانى أيضاً .

٤- **الصقالبة** : الصقالبة جمع صقلبى أو سقلبى وهى تعريب لكلمة Esclave ومعناها عبد أو رقيق . وقد أطلقت على المماليك أو العناصر الأوروبية الأصل الذين جلبوا كرقيق إلى الأندلس منذ صغرهم ، وربوا تربية عسكرية اسلامية ليكونوا جيشاً نظامياً دائماً فى العاصمة قرطبة إلى جانب نظام الأجناد القائم على الإقطاع العسكرى القبلى فى الكور والأقاليم الأندلسية.

وتتفق المصادر على أن الأمير الحكم الأول بن هشام الملقب بالربضى (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م) هو أول من استحدث هذا النظام العسكرى الدائم فى قرطبة عقب ثورة الربض أو حادثة الهيج المعروفة التى قام بها المولدون ، والتى كادت تطيح بعرشه .

وكان لهؤلاء الصقالبة عِرافة (دائرة) خاصة بهم بجوار قصره ، تشتمل على منشآت إقامتهم ، ومصانع للأسلحة والملابس والمهمات العسكرية الخاصة بهم . وكان يقدّر عددهم بنحو ثلاثة آلاف فارس وألفى راجل .

كذلك كان له مائة وخمسون رجلاً مسلحاً من إقليم ناربونة Narbonne (جنوب فرنسا) كحرس خاص له . ويقال إن أهل قرطبة كان يصيبهم الفزع حينما يرون أميرهم يدخل قرطبة بحرسه هذا . وكانوا يطلقون عليهم اسم الخرس لعجمتهم ، وكان يرأسهم قومس (كونت) يدعى ربيع بن تيودولفو

---

(١) ابن بسام : نفس المرجع القسم الرابع المجلد الأول ص ٣٦ .

Teodulfo الذى كان موضع ثقة الأمير (١). وفى ذلك يقول ابن خلدون :

« وكان الحكم بن هشام أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم(٢) ، وارتبط الخيل على بابه ، واستعد بالمماليك حتي بلغوا خمسة آلاف ، منهم ثلاثة آلاف فارس ، وألفا راجل ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه »(٣).

واستمرت أعداد هؤلاء الفتيان الصقالبة فى ازدياد مستمر حتى صاروا فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر يكونون طبقة جديدة فى المجتمع الأندلسى مثل المماليك الأتراك فى المشرق الإسلامى . وحسبنا أن نشير إلى ما ذكره ابن عذارى عن مخصصات الصقالبة من الطعام اليومى فى عهد الناصر التى بلغت من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل ، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان (الأسماك) (٤).

ولقد ترقى بعض هؤلاء الصقالبة إلى مناصب القيادة والرئاسة والوزارة وصار كبارهم يسمون بالخلفاء الأكابر والفتيان الأكابر . ويبدو أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أراد أن يحدّ بهم نفوذ القادة العرب ، فقلد مملوكه نجدة الصقلبى قيادة الحملة التى خرج بها لقتال ملك ليون راميرو الثانى ، وقد أثار هذا العمل غضب القادة العرب لتقديم الصقالبة عليهم ، فأقسموا بأن يتركوا الصقالبة وحدهم فى ميدان القتال عند نشوب المعركة . وقد أدى ذلك إلى هزيمة الجيش الأموى فى موقعة شمنقة Simancas سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م وقتل القائد نجدة الصقلبى وفرار عبد الرحمن بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة .

---

(١) ترجمة جاريثا جومث :

Levi Provençal : Espana Musulmana P. 42 .

(٢) أطلقت كلمة حشم على الجنود المرتزقة من خارج الأندلس مثل هذا الحرس الأجنبى (المرجع السابق ص ٤٢ حاشية ٣٥) .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٩-٣٢٠.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٢ . والحجل نوع من الطيور يشبه السمّان ويطلق عليه الاسبان اسم Perdiz برديث .

على أن هزيمة الناصر فى هذه الموقعة لم تؤثر على قوته العسكرية ، ولا على قوة مماليكه الصقالبة الذين استمر نفوذهم قوياً فى الدولة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر . ولكن بعد وفاة المستنصر ونتيجة لضعف ولده هشام المؤيد وصغر سنه ، استطاع الحاجب المنصور بن أبى عامر أن يستبد بالحكم وأن يشتت قوات الصقالبة ويخرجهم من القصر ، وأن يولى صقالبة غيرهم من مماليكه عرفوا باسم الفتيان العامرية .

وقد شارك هؤلاء الصقالبة بقيادة زعيمهم خيران العامرى فى الفتن والمؤامرات التى صاحبت سقوط الدولة الأموية فى الأندلس . ثم تكونت منهم فى عصر الطوائف الدويلات العامرية الصقلبية التى قامت فى شرق الأندلس ، وكانت تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدول العامرية الصقلبية لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصور بن أبى عامر وأبنائه .

ومن كبار ملوك هذه المنطقة مجاهد العامرى الصقلبى الذى استقل بدانية Denia والجزر الشرقية (البليار) ثم جزيرة سردانيا وبعض سواحل إيطاليا وبسط نفوذه على غربى حوض البحر المتوسط (١).

وإلى جانب الصفات الحربية التى تميز بها هؤلاء الصقالبة ، فقد استطاع عدد كبيرمنهم أن يحتل مكانة عالية فى مجال الأدب والشعر واللغة والفن . وقد وصف ابن بسام أحد هؤلاء الفتيان بقوله : « وكان لابن أبى عامر فتى يسمى فاتنا ، أوحد لا نظير له فى علم كلام العربى وكل ما يتعلق بالأدب ، ناظر صاعد اللغوى بين يديه فظهر عليه وبكته حتى أسكنه فازداد المنصور به عجباً » . ويروى ابن الأبار أن أحد الصقالبة واسمه حبيب الصقلبى ألف زمن الخليفة هشام المؤيد كتاباً تعصب فيه لقومه وعنوانه « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » ، وهذا الكتاب مفقود ، وقد قال ابن بسام أنه اطلع عليه وأنه يحتوى على جملة من أشعار الصقالبة ونوادر أخبارهم .

وإلى جانب هذا الامتياز الأدبى والعسكرى ، اختص الصقالبة بألوان من

---

(١) راجع(أحمد مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣) .

الألحان والرقصات التى نسبت إليهم ، فقبل اللحن الصقلبى ورقص الصقالبة . وقد أعطانا المؤرخ الأندلسى المعاصر أبو بكر الطرطوشى وصفاً جميلاً لهذه الرقصات التى تذكرنا بالرقص الأسبانى فى وقتنا الحاضر ، إذ يقول : ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً فقالوا اللحن الصقلبى ، فإذا قرأوا قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق ، يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل ، ويرخفون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى ورقص الأرجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة » (١).

خامساً : إعداد الحملات العسكرية:

باستثناء فترات الهدنة السلمية ، فإن إرسال الحملات العسكرية إلى دار الحرب، أى أرض العدو ، كان مستمراً خلال أشهر الصيف ابتداء من شهر يونية من كل سنة . ولذا سميت بالصوائف ، ومفردها صائفة التى دخلت اللغة الأسبانية باسم Aceifa . وفى بعض الحالات الضرورية ، كانت الحملات تخرج فى برد الشتاء وتسمى شواتى ومفردها شتية (٢).

كان الاستعداد للصائفة يبدأ عادة قبل شهر على الأقل من خروجها ، أى فى شهر مايو حيث تكون المحاصيل الزراعية فى وقت نمائها فى كلا الجانبين، الإسلامى والمسيحى ، إذ جرت العادة أن تعتمد الجيوش على مواردها الخاصة فى تلك الحروب (٣). وفى أوقات المحل أو القحط والجفاف

---

(١) أبو بكر الطرطوشى : كتاب الحوادث والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبى (تونس ١٩٥٩) .

(٢) أنظر : ترجمة جارثيا جومث :

Lévi Provençal : Espana Musulmana P. 49 (Madrid 1957) .

(٣) راجع قصة الخلاف الذى وقع بين الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) والشاعر يحيى الغزال عندما اضطر هذا الأخير إلى بيع الطعام أى القمح المختزن فى الأهراء لوقت الحاجة إليه ، بسبب وقوع قحط فى البلاد وارتفاع سعر القمح فأنكر الأمير عليه ذلك ثم عاد وعفا عنه . (ابن دحية الكلبى : المطرب فى أشعار أهل المغرب ص ١٣٥ نشر ابراهيم الابيارى وزميليه (القاهرة سنة ١٩٥٤) .

Sequia كان الحاكم مضطر إلى عدم الخروج للغزو ، كما حدث لعبد الرحمن الناصر فى صيف سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م حينما عجز عن تجريد الصوائف إلى العدو بسبب المحْل واكتفى عامئذ بتحصين الثغور وضبط الأطراف ومراقبة أهل الخلاف (١).

ولقد حاول الحاجب المنصور بن أبى عامر تلافى مصاعب القحط والجفاف عن طريق تحزين الحنطة والميرة والأطعمة والعلوفات فى الأهراء والمخازن لاستخدامها وقت الحاجة . وفى هذا الصدد يروى ابن حيان رواية طريفة عن حملة المنصور على مدينة برشلونة يقول فيها :

« أحب محمد بن أبى عامر الوقوف على حاصل الأطعمة فى الأهراء عندما اعتزم على غزو برجلونة Barcelona سنة ٣٧٤هـ/٩٨٥م ، فارتفعت حملته إلى مائتى ألف مُدْى ونيف عليها . قال فلحقه العجب بذلك حتى قال : « أنا أكثر طعامًا من يوسف صاحب الخزائن ! » - يقصد النبى يوسف بن يعقوب عليهما السلام - فلم يمهله بغى كلمته إذ برأها من الاعتصام من ربه تعالى ، واعتورته السنون الشداد المتوالية من سنة ٣٧٨هـ ، فانتسفت أطعمته باتصال الإنفاق وعدم الإغتلال حتى أشفى على المجاعة ، وهمّ بالجواز إلى العدوة المغربية لخصبها يومئذ حتى أغاث الله بلاد الأندلس وأخرج أرزاقها . وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئاً من الأطعمة ، ولا يقتصر على ما يجتنبه منها حتى يخرج المال فى شرائها فى سنى الخصب . فهلك وحاصله منها جملة غليظة » (٢).

وكان صاحب العرض أو عارض الجيش وأعوانه فى الكور المختلفة ، هم الذين يشرفون على إعداد الصائفة قبل خروجها بشهر على الأقل ، فكانوا يجرون تفتيشاً دقيقًا على مخازن ومصانع الأسلحة والملابس ، وعلى أهراء الغلال والأقوات والعلوفات، وكذلك على دور الصناعة الخاصة ببناء الأساطيل.

---

(١) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ - ص ١٠٩ - ١١٠ نشر شالميتا وزميليه (مدريد سنة ١٩٧٩) .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩٩ (نشر ليفى بروفنسال) .

ولقد جرت العادة استخدام آلاف الدواب كالخيل والبغال والجمال لحمل أمتعة الحملة وأثقالها مثل أسلحة القتال وآلات الحصار والأخبية أو الخيام بكل ما يلزمها من غطاء ووطاء وحبال وأوتاد . ثم آلات الطبخ والوضوء والسقاية ، وأرحاء طحن الغلال ، وأنواع المآكل والعقاقير والزيت والفحم والنفط والقطران، والمشاقة (المشاعل) ، والسروج ، وأغلال السجون للأسرى ، هذا إلى جانب هوادج النساء الغوازى (جمع غزية) وإن كنا لا ندرى إن كنّ من حريم القائد أو من المنشدات للأغانى الحماسية لإثارة حماس الجند فى القتال كما هو معروف فى المغرب باسم « تاصوكابت »(١)، أو كنّ كما يقول دوزى للترفيه عن الجنود Prostitutas (٢).

كذلك كان من مهام صاحب العرض أيضًا ، إعداد الأموال الخاصة بنفقات الحملة وأرزاق الجند وحفظها فى صناديق محكمة . وكان عليه أيضًا مراجعة أسماء المجندين فى ديوان الجند عن طريق عرضهم بأسلحتهم فى ساحة خاصة تعرف بالميدان . وهذه العملية تسمى بالعرض أو التمييز كان الغرض منها هو تنظيم وتنسيق فرق الجيش ومعرفة قدراتها القتالية ، ومواردها التموينية فى فترة زمنية محددة(٣) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المستشرق الفرنسى الكبير ليڤى بروڤنسال كان قد أبدى دهشته من أن جلّ اعتماد الأندلسيين فى مواصلاتهم ونقل أثقالهم وأمتعتهم ، كان على الدواب فقط بمختلف أنواعها ، وانهم لم يحاولوا استخدام مركبات العجلات كما كان يفعل جيرانهم الأسبان مستشهداً فى ذلك برواية ابن عذارى التى يقول فيها بأن ملك قشتالة سانشو غرسيه أرسل إلى الخليفة سليمان

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٨ .

(٢) راجع : (R. Dozy : Supplement aux Dict. Arabes t.II P. 212) .

(٣) يروى المؤرخ الأسبانى جنثالث بالنتيا أن وظيفة صاحب العرض فى الجيش الأندلسى ، كان يقابلها فى الجيش الأسبانى قيادة التموين الحربى Maestre Racional ، وهى تؤدى نفس الخدمات . راجع :

A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana, P. 203, Madrid 1946)

المستعين ألف عجلة من الدقيق والعقاقير وأنواع المآكل سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م(١). ويرجح ليفي بروفنسال سبب ذلك بأنه كان ممنوعًا على المسلمين في الغرب الاسلامي استخدام العربات أو العجلات carretas طوال العصر الوسيط(٢) .

والواقع اننا لا نشاطر أستاذنا في هذا الرأي لوجود ما يفيد باستخدام العجلات في الغرب الاسلامي منذ وقت مبكر ، مثال ذلك قول ابن عذارى نقلاً عن الرقيق القيرواني :

« وفي سنة ٩٥هـ انصرف موسى من الأندلس إلى افريقية بما فاء الله عليه ، فأجاز الأموال من الذهب والفضة والجوهر في المراكب إلى طنجة ثم حملها على العجلات ، فكانت وسق مائة عجلة وأربعة عشرة عجلة » (٣).

كذلك يروى صاحب الروض المعطار أثناء وصفه لمدينة شذونة Sidonia في جنوب غرب الأندلس أنه كان يوجد بالقرب منها فأس حديد في شق صخرة جبلية ، وانهم في الأزمنة الماضية حاولوا استخراج الفأس باستخدام « عجلتان تجرهما الثيران فلم تستطع ذلك » (٤).

وفي هذا الصدد أيضًا يروى الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري عند كلامه عن مدينة بهنسى الواحات بليبيا أنه في يوم عيد النصارى كان أهلها وهم عرب مسلمون وقبط نصارى يضعون تابوتاً فيه رجل ميت على عجلة ويسمونه ابن فرمي ويزعمون أنه من الحواريين ويتطوفون به في سكك البلد ويتبركون بذلك ويتقربون إلى الله ، تجر تلك العجلة البقر ، فإن نفرت من موضع ولم تسر فيه ، علموا أن في ذلك الموضع نجاسة (٥).

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٨٦ .

(٢) انظر (ترجمة جارثيا جومث :

(Lévi Provençal : Espana Musulmana P. 55 Nota 99) .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٤٣ .

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٠ رقم ٨٩ والترجمة الفرنسية ص ١٢٤ .

(٥) البكرى : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٤ - ١٥ (نشر دى سلان، الجزائر سنة ١٩١١) .

ولا بأس من أن نذكر هنا أيضاً - من باب تطبيق المتأخر على المتقدم - ما رواه السلاوى الناصرى أن من الآثار الباقية بفاس للسلطان أبى الحسن المرينى ، بيلة (أى حوض) من الرخام الأبيض المجلوبة من المرية Almeria زنتها ١٤٣ قنطاراً ، سيقت بحراً من المرية إلى مرسى العرائش ثم طلعت فى وادى قصر كتامة (١) ، ثم حملت على عجل الخشب تجرها القبائل إلى منزل أولاد محبوب الذين على ضفة وادى سبو Sbou ، فوسقت فيه إلى أن وصلت إلى ملتقاه مع وادى فاس ثم حملت على عجل الخشب أيضًا يجرها الناس إلى أن وصلت إلى مدرسة الصهريج التى بعدوة الأندلس بفاس ، ثم نقلت بعد ذلك بأعوام إلى مدرسة الرخام التى أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم باسم مدرسة مصباح وهو اسم الفقيه الذى تصدى للدرس بها بعد بنائها فنسبت إليه (٢) .

هذا النص السالف الذكر ، وإن كان فيه استطراد للأحداث ، إلا أنه يدل على أن استخدام العجلات Chariots أو Carretas كان معروفًا فى الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط .

سادسًا : الخروج إلى المعركة :

عندما يتم الاستعداد للحرب ، كان النفير العام يعلن حالة الاستنفار فى جميع أنحاء البلاد (٣) ، فيتقاطر الجنود متجهين نحو العاصمة قرطبة . وهناك فى شمال الوادى الكبير ، شرقى العاصمة ، كان يعسكر هذا الجمع الكبير فى مكان متسع يسمى ساحة الحشد أو فحص السرداق نسبة إلى السرداق أو المعسكر الملكى المقام هناك . وبعد أن يجتمع شمل الجند ، يبرز الخليفة إليهم

---

(١) لعله يقصد بقصر كتامة ، ما يسمى اليوم بالقصر الكبير أو قصر عبد الكريم .

(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ٣ ص ١٧٦ وحول شرح كلمة بيلة بمعنى الحوض راجع :

(Dozy : Supplement aux Dict. Arabes , I, p. 137) .

(٣) من رواسب هذه العادة فى بلاد المغرب استعمال النفير إلى الآن فى شهر رمضان لإعلان الإفطار بدلاً من المدفع .

دارعًا مستلئمًا متقلداً سيفه راكباً فرسه وحوله أتباعه وحشمه وسط الهتاف والتكبير ، فيعسكر فى السرادق ثم يشاهد عرضًا عسكرياً لجنوده بأسلحتهم المختلفة فى جو مشبع بالهيبة والرهبة والنظام (١) .

وقبل الرحيل أو البروز ، كان الأمير أو الخليفة وجنوده يقيمون صلاة عامة فى المسجد الجامع بقرطبة . ثم يقام فى المسجد أيضًا احتفال آخر أطلق عليه اسم « عقد الرايات » ، أو « عقد الألوية » ، تجمع فيه الرايات والألوية والأعلام وهى شعارات القيادة ، وتعقد فى الرماح أو القنوات التى يحملها قادة الحملة ، على أن تعلق بعد العودة على جدران المسجد .

وهذه الاحتفالات بعقد الرايات والألوية ، تقليد مشرقى ، ولكنه استمر متصلاً مزدهراً فى الغرب الإسلامى . وقد سبقت الإشارة إلى مسجد الرايات الذى بناه موسى بن نصير فى الجزيرة الخضراء ووضع عليه رايات الفتح وألويته حسبما ورد فى كتاب محمد بن موسى الرازى الذى أسماه بكتاب الرايات .

وفى هذا الصدد أيضاً أشار ابن حيان إلى مثل هذا الاحتفال الذى أُقيم فى المسجد الأموى بقرطبة قبيل خروج الحملة البحرية فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م ، كما أشار كذلك إلى الاحتفال الذى أقامه الخليفة الحكم المستنصر ، وقام فيه القائد درّى المعروف بابن عقبة بعقد الأعلام فى قنواتها (٢) . ونضيف على سبيل الاستطراد ما يرويه ابن عذارى من أن الخليفة الموحدى يعقوب المنصور حينما عبر بجيوشه من المغرب إلى الأندلس واستقر فى قرطبة سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ، عقدت له الرايات بجامعها الأكبر ، وأنشد فى ذلك أبو بكر بن فجير قصيدته التى مطلعها :

---

(١) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ ص ٣٣٣ وقد روى أن المنصور بن أبى عامر قتل جندياً فى ساحة العرض لأنه أخل بالنظام حينما شهر سيفه من غمده بدون إذن (ابن السماك العاملى : الزهرات المنثورة ص ٨٧ تحقيق محمود مكى) .

(٢) ابن حيان : المقتبس (الجزء الخاص بالحكم المستنصر) ص ٢٥ نشر عبد الرحمن الحجى .

بُشـرایَ هـذا لِواءُ قَلَّ مـا عُقِـدا   إلا وقد مدَّه الروحَ الأمينُ يدَاَ (١)

ثم يخـرج الجـيش براياته وألويتـه وأعـلامـه إلى دار الحـرب ، وقـد أمـدنا المؤرخ الغرناطى عبد الرحمن بن هذيل بمعلومات عن تنظيم الجيش الأندلسى أيام الخلافة الأموية ، وهو يشبه إلى حد كبير تنظيمات الجيوش الشرقية فى ذلك الوقت ، فقال إن الجيش كان ينقسم إلى فرق ، كل فرقة تتألف من خمسة آلاف جندى وعليها أمير يحمل راية ، وكل فرقة تنقسم إلى خمس كتائب ، وكل كتيبة تتألف من ألف جندى عليها قائد يحمل علماً . وكل كتيبة تنقسم إلى خمسة أقسام ، كل قسم يتألف من مائتى جندى عليهم نقيب يحمل لواء . وينقسم كل مائتين إلى خمسة أقسام أخرى ، كل قسم يتكون من أربعين عليهم عريف يحمل بنداً . وينقسم كل أربعين إلى خمسة أقسام على ثمانية جنود ناظر يحمل عقدة (٢) .

ويلاحظ أن تنظيم الجيش يقوم على التقسيم الخماسى الذى عرفه المشارقة : المقدمة ثم ميمنة وميسرة وقلب فى الوسط ثم كتيبة فى الخلف وراء الجيش تعرف بالساقة . ولهذا أطلقوا على الجيش اسم الخميس على أساس هذا التقسيم الخماسى ، ولله درُّ أبى الطيب المتبنى (ت سنة ٣٥٤هـ/٩٥٥م) حينما قال فى هذا الصدد :

ولا كُتُبَ إلاَّ المشرفيةُ والقَنَا   ولا رُسُلَ إلاَّ بالخميسِ العرَمرمِ

وفى بعض الأحيان كان الأسطول البحرى يشارك فى العمليات الحربية ولا سيما فى نقل المشاة والأسلحة والآلات الثقيلة إلى أماكن الغزو البعيدة ، كما فعل المنصور بن أبى عامر فى الجملة التى شنها على جليقية أو غاليسيا Galicia فى شمال غرب أسبانيا سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ، إذ أقلع الأسطول من ميناء قصر أبى دانس Alcacer Do Sal على ساحل غرب الأندلس (البرتغال فيما بعد) ، واتجه نحو الشمال ، بينما سار المنصور براً على رأس

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٩ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٠٧ .

(٢) ابن هذيل : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، نشره وترجمه إلى الفرنسية لويس مرسييه Louis Mercier (باريس ١٩٤٦) .

فرسانه مخترقاً الأراضى الأسبانية شمالاً حتى التقى بأسطوله عند نهر دويره Duero وجعل من المراكب جسراً بعرض النهر يعبر الجنود عليه .

ولقد جرت العادة عندما يقترب الجيش من أرض العدو أو دار الحرب ، ينضم إليه قواد الثغور بجيوشهم وعتادهم ، ثم يتقدم الجميع لملاقاة العدو . وكان يتقدم الجيش ، عيونه وجواسيسه لمعرفة أخبار العدو وعدد شجعانه وجنوده . وكانت مناطق الثغور مرتعاً خصباً لأعمال التجسس واكتساب المعلومات ونقل الأخبار من كلا الجانبين ، إذ كان يعيش فيها عدد كبير من المسلمين الذين يتقنون اللغة الأسبانية ويطلقون عليهم Moros Latinados أو Ladinos (أى مسلمون ينطقون اللاتينية التى هى أصل الأسبانية) . كذلك كان يعيش فيها مسيحيون يعرفون اللغة العربية ويسمونهم Cristianos Algraviados (وهى من كلمة Algarabia أى اللغة العربية) . كذلك كان يوجد مجموعة من الناس يطلقون عليهم اسم Enaciados ، كانوا يقومون بأعمال التجسس ونقل الأخبار والمعلومات للجيش الذى يدفع لهم أكثر ، وبطبيعة الحال كانوا يتحدثون باللغتين العربية والأسبانية (١) .

وإلى جانب العيون والجواسيس ، كان هناك الأدلاء الذين يتقدمون الجيش لإرشاده إلى المسالك والطرقات الصحيحة بين الجبال الوعرة . ولهذا كان يختار لهذه المهمة الرجال الموثوق بأمانتهم وإخلاصهم . ومن الطريف أن كلمة دليل انتقلت إلى اللغة الأسبانية بلفظها ومعناها قصار الاسبان يطلقون على أدلائهم اسم Adalides . كذلك كان يلحق بالجيش الخطباء والشعراء لوعظ الجنود وتقوية روحهم المعنوية إلى جانب الأطباء لعلاجهم وقاضى الجند لحل قضاياهم والفصل فى منازعاتهم .

سابعًا : طرق الاشتباك فى الحرب:

١ – اتبع العرب فى الجاهلية طريقة الكر والفر واللّى . وفى أيام الرسول (ﷺ) اتبعوا طريقة الزحف بالصفوف مثل صفوف الصلاة استناداً إلى قوله

---

(١) انظر :

(Angel González Palencia : Historia de la Espania Musulmana) P. 193, (Coleccion Labor, No. 69, 1945) .

تعالى : « إن الله يُحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصرص» .
ولم تلبث أن صارت كلمة مصاف تطلق مجازًا على الحرب فى قولهم ضرب مع العدو مصافًا أى معركة حربية . وبعد أن اتصل العرب بالفرس والروم والأسبان ، اتبعوا نظام التعبئة أى تقسيم الجيش إلى كراديس أو كتائب أو وحدات توزع على شكل خمسة أجزاء رئيسية Phalanges يحركها القائد فى شكل أهلة أو مربعات أو مثلثات ولهذا أطلقوا على الجيش اسم الخميس كما سبق أن ذكرنا.

وعلى الرغم من تطور أساليب القتال عند المسلمين حسب تطور المدنية وتقدمها خلال العصر الوسيط ، إلا أنهم ظلوا مع ذلك يطبقون طريقة الكر والفر مع اللّى التى اعتادوا عليها من قديم مادام ميدان المعركة يسمح بذلك . إذ أن هذه الطريقة – على حد قولهم – تحتاج إلى انفساح فى الأرض حيث يروحون وينصرفون فى الطول والعرض(١) . أو كما قال ابن خلدون « إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط » . وبعد أن فتح العرب أسبانيا ، وجدوا أن طريقة الكر والفر لا يمكن تطبيقها فى أراضيها الجبلية الوعرة ، إلا أنهم مع ذلك طبقوها فى المعارك التى دارت فى السهول ، لدرجة أو الأسبان تأثروا بها وأعطوها اسماً مرادفاً وهو Torna fuye أى الكر والفر .

على أن مسلمى أسبانيا مع مرور الزمن وتطور الاستراتيچية العسكرية ، ما لبثوا أن تأسبنوا أو تأقلموا بالبيئة الأسبانية ،واعتادوا القتال فى المناطق الجبلية وأظهروا براعة فيها . مثال ذلك الحملة التى قادها المنصور بن أبى عامر لغزو مدينة شنت ياقب (القديس يعقوب أحد الحواريين للسيد المسيح عليه السلام) Santiago de Compostela، قاصية بلاد حليقية أو غاليسيا فى شمال غرب أسبانيا سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م . وقد اشتهرت بصعوبة مداخلها ، ووعورة مسالكها ، وكثرة أنهارها وخلجانها . يقول ابن عذارى : « وقطع المنصور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر (خليج بسقاية أو بسكاى فى أقصى الشمال) ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى جبل شامخ

---

(١) ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالإمامة على المستضعفين ص٥٠٧ نشر عبد الهادى التازى .

شديد الوعْر ، لا مسلك فيه ولا طريق ، لم تهتد الأدلاء إلى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه ، وتسهيل مسالكه ، فقطعه العسكر إلى أن بلغ البحر المحيط(١) .

وهناك أيضًا المعارك الجبلية التى اقتحم فيها المنصور أرض قشتالة من ناحية مدينة سالم Medinaceli ، وكانت أشدها معركة جبل جربيرة المنيع Carvera التى انتصر فيها على ملك قشتالة سانشو جارثيا Sancho Garcia سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م بعد شدائد وأهوال أثبت فيها الأندلسيون قدرتهم على القتال ضد هذه المعاقل والقلاع الوعرة(٢).

والنص الوحيد الذى لدينا عن طريقة القتال وتعبئة الجيش الأندلسى عند لقاء العدو أيام الأمويين ، أورده المؤرخ الأندلسى أبو بكر الطرطوشى (ت سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م) فى كتابه سراج الملوك حيث يقول :

« فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلدنا ، فهو أن تتقدم الرجّالة بالدرق الكاملة ، والرماح الطوال ، والمزاريق المسنونة النافذة . فيصفوا صفوفهم ، ويركزوا مراكزهم : رماحهم خلف ظهورهم فى الأرض ، وصدورهم شارعة إلى عدوهم ، وهم جاثمون فى الأرض ، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض بركبته اليسرى ، وترسه قائم بين يديه . وخلفهم الرماة المختارون التى تمرق سهامهم من الدروع . والخيل خلف الرماة . فإذا حملت الروم على المسلمين ، لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه . فإذا قرب العدو ، رشقتهم الرماة بالنشّاب ، والرجالة بالمزاريق ، وصدور الرماح تلقاهم ، فأخذوا يمنة ويسرى ، وتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله » (٣).

نلاحظ من هذا الوصف السابق ، أن هناك نوعًا من التطور والتجديد فى طرق الاشتباك ، تحقق على أيدى الأندلسيين فى العصر الأموى .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(٢) راجع وصف هذه المعركة فى (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٦٩ وما بعدها) .

(٣) أبو بكر الطوطوشى : سراج الملوك ص ٣٣٧ (القاهرة ١٣٥٤هـ) .

٢- **المبارزات الفردية** : جرت العادة أن تحدث قبل الموقعة مبارزات فردية بين أبطال الجيشين قبل المعركة ، وهى عادة قديمة عند العرب وغيرهم الغرض منها هو تقوية روح الجنود المعنوية ، لأن منظر الدماء يثير حماسهم ، فضلاً عن أن هذه المبارزات تبين أهمية هذا النوع من القتال الفردى فى سير المعركة بعد ذلك ، إذ أن قوة الجيش كانت تقاس بعدد أبطاله وشجعانه وليست بكثرة أعداده . لهذا حرص ملوك المسلمين وقوادهم على معرفة عدد الشجعان فى جيوش أعدائهم عن طريق عيونهم وجواسيسهم ، لأن النصر والهزيمة كانا يتوقفان إلى حد كبير على عدد هؤلاء الأبطال الشجعان .

ولقد أورد الطرطوشى (ت سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م) قصة طريفة عن إحدى هذه المبارزات الفردية وعن مدى أهميتها وتأثيرها فى سير المعركة . يقول :

« وسمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد الباجى رحمه الله (ت سنة ٤٧٣هـ/١٠٨١م) يحكى ، قال : بينما كان المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته ، إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع ، فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه ويساره وقد ملأوا السهل والجبل . فالتفت إلى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المصحفى ، فقال : كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير ؟ فقال ابن المصحفى : أرى جمعًا كثيراً وجيشاً واسعًا . فقال له المنصور: لا يعجزنا أن يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة ؟ فسكت المصحفى . فقال المنصور : وما سكوتك ، أليس فى هذه الجيوش ألف مقاتل ؟ قال : لا . فتعجب المنصور ، ثم انعطف عليه وقال : أفبهم خمسمائة رجل من الأبطال المعدودين ؟ قال : لا . فحنق المنصور ، ثم انعطف عليه فقال : أفيهم مائة رجل من الأبطال ؟ قال : لا . قال : أفيهم خمسون من الأبطال ؟ قال : لا . فسبه المنصور واستخفف به وأمر به فأخرج على أقبح صفة . فلما توسطوا بلاد المشركين ، اجتمعت الروم ، وتصاف الجمعان ، فبرز علج من الروم بين الصفين شاك سلاحه يكر ويفر وهو ينادى هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ، ففرح المشركون ، وصاحوا واضطرب لها المسلمون . ثم جعل العلج يمرح بين

الصفين وينادى هل من مبارز ؟ اثنين لواحد ! فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة فقتله العلج ، وجعل يكر ويحمل وينادى : هل من مبارز ؟ ثلاثة لواحد! فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العلج . فصاح المشركون ، وذُلّ المسلمون ، وكادت تكون كسرة . فقيل للمنصور : ما لها غير ابن المصحفى . فبعث إليه فحضر . فقال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم ؟ قال: بعينى جميع ما جرى . قال : فما الحيلة فيه ؟ قال : وما الذى تريد ؟ قال: أن تكفى المسلمين شره . قال : نعم الآن . ثم قصد إلى رجال يعرفنهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد نشزت أوراكها هزالاً ، وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس . والرجل فى نفسه وحليته غير متصنع ، فقال له ابن المصحفى: ألا ترى ماذا يصنع هذا العلج منذ اليوم ؟ قال قد رأيته فماذا ترى فيه ؟ قال : أريد رأسه الآن . قال : نعم . فحمل القربة إلى رحله ، ولبس لأمة [1]حربية ، وبرز إليه ، فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجًا إليهم يركض ، ولا يدرون ما هنالك ، وإذا الرجل يحمل رأس العلج ، فألقى الرأس بين يدى المنصور . فقال له ابن المصحفى : عن هولاء الرجال أخبرتك أنه ليس فى عسكرك منهم ألف ولا خمسمائة ولا مائة ولا خمسون ! فردّ ابن المصحفى إلى منزلته وأكرمه »[2] .

هذه القصة ترينا أن قوة الجيش فى رأى الطرطوشى كانت تقاس بعدد شجعانه وأبطاله . غير أن المؤرخ المعروف ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) لم يتفق مع الطرطوشى فى هذا الرأى ، إذ ردّ عليه فى مقدمة تاريخه بقوله : وقد ذكر ابن الطرطوشى أن من أسباب الغَلَب فى الحرب ، أن تَفضُل عدّة الفرسان المشاهير من الشجعان فى أحد الجانبين على عِدّتهم فى الجانب

---

(١) اللأمة : الدرع التامة التى لها فضول (زيادات) كان للرسول (ﷺ) درع يقال لها ذات الفضول . أما الجوشن إذا كانت درعاً صدراً بغير ظهر . راجع (عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى : حلية الفرسان وشعار الشجعان ص ٢٢٥ وما بعدها ، نشر محمد عبد الغنى حسن ، دار المعارف سنة ١٩٤٩) .

(٢) أبو بكر الطوطوشى : سراج الملوك ص ٣٣١ وما بعدها (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ) .

الآخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرةُ أو عشرون من الشجعان المشاهير، وفى الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر ، فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب . وأعاد ذلك وأبدى وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة وليس بصحيح . وإنما الصحيح المعتبر فى الغلب ،حال العصبية ، أن يكون فى أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم ، وفى الجانب الآخر عصائب متعددة ، لأن العصائب إذا كانت متعددة ، يقع بينها من التخاذل ما يقع فى الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية ، تنزّل كل عصابة منهم منزلة الواحد ، ويكون الجانب الذى عصابته متعددة ، لا يقاوم الجانب الذى عصبته واحدة .واعلم أنه أصح فى الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشى ، ولم يحمله على ذلك إلا نسيان شأن العصبية ، (١).

لا شك أن ابن خلدون الذى عاش فى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م) أى بعد الطرطوشى بنحو ثلاثة قرون ، كان متأثراً فى رأيه بالبيئة المغربية التى عاش فيها ،وهى تقوم على النظام القبلى والعشائرى الذى يستند إلى العصبية القبلية وهو أمر يختلف عن المجتمع الأندلسى الذى عبر عنه الطرطوشى فى عصر المنصور بن أبى عامر الذى - كما ذكرنا آنفاً - قضى على العصبية القبلية فى جيوشه .

وقد يؤيد هذا أيضاً رسالة ابن الربيب التميمى القيروانى إلى أبى محمد بن حزن الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى (١١م) ينتقد فيها سيرة أهل الأندلس فى رجال الحرب من حيث أنهم يقدمون فقط من قدمته شجاعته وعظمت فى الحروب نكايته(٢) . وكذلك قول ابن سعيد المغربى فى نفس هذا المعنى :

، والضابط فيما يقال فى شأن أهل الأندلس فى السلطان ، أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان ، أو جواداً يبرع الأجواد ، تهافتوا فى نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبير فى عاقبة الأمر إلام يؤول ، (٣).

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٧ - ٢٧٨ (المطبعة الأميرية) .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٥٢ (نشر الشيخ محيى الدين عبد الحميد) .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠١ (، ، ، ، ، ،).

فوضع الأندلس كثغر قريب مجاور للعدو ، هو الذى فرض عليها هذا الاتجاه السياسى والحربى الذى عبر عنه بصدق كل من الطرطوشى وغيره من المؤرخين الأندلسيين .

٣- صيحات المجاهدين فى القتال : إلى جانب المبارزات الفردية التى تسبق المعركة ، كانت هناك صيحات الحرب التى يصرخ بها القادة والجنود خلال القتال لاستجماع القوى وشحذ العزائم فضلاً عن أنها كانت بمثابة العلامة المميزة أو كلمة السر التى يتعارف بها الجنود فى الحرب ولا سيما فى ظلمة الليل .

ولقد عرفت هذه الصيحات فى المشرق الاسلامى من قديم ، فيروى أن شعار المشركين فى غزوة الأحزاب كان : « يا للعزى ، يا لهبل » ، بينما كان شعار الرسول (ﷺ) فى يوم أحد وفى غزوة بنى المصطلق « يا منصور أمِت! » ، والمراد هنا التفاؤل بالنصر مع الأمر بالإماتة . وفى يوم حنين كان شعاره (ﷺ) « حاميم لا ينصرون » أى اللهم لا ينصرون . ويقال إن كلمة حاميم نزلت فى سبع سور قرآنية مما جعل الرسول يحرص على ذكرها لشرف منزلها ، ويستظهر بها على إنزال رحمة الله فى نصرة المسلمين(١) . ولقد اتخذ المهلب بن أبى صفرة هذا الشعار « حاميم لا ينصرون » فى حروبه ضد الخوارج (٢). بينما كانت صيحة «يا منصور أمت » شعار المسلمين الأوائل بعد وفاة الرسول(ﷺ) مثل أسامة بن زيد بن الحارث فى الغارة التى شنها على حدود الشام . ومثل المختار بن أبى عبيد الثقفى فى حروبه ضد بنى أمية سنة ٦٦هـ/٦٨٥م(٣) . وكان شعار أبى بكر الصديق « أنت أنت » مرتين(٤) . وشعار صلاح الدين الأيوبى فى يوم حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م « يا للإسلام»(٥). وكانت صيحة السلطان قطز فى عين جالوت سنة

---

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٣) فاروق عمر : الإسلام فى القرن العشرين ص ٥٥ .

(٤) عبد الحى الكتانى : نفس المرجع جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ ٢ ص ١٤٥ .

٦٥٨هـ/١٢٦٠م « وا إسلاماه !» وقد انتهت بالنصر المبين على التتار[١] . وهناك صيحة القائد اليمنى نور الدين عمر بن رسول فى جنوده : « هى هى ! » فرددوا وراءه : هى هى ! ثم حملوا على أعدائهم وانتصروا سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٥م[٢] .

وإذا انتقلنا إلى الأندلس ، نجد أن الشعار السائد فى حروبهم « يا منصور! » ، مثال ذلك الزعيم المغربى زيرى بن عطية المغراوى الزناتى الثائر بالمغرب فى حروبه ضد المنصور بن أبى عامر . يروى صاحب كتاب مفاخر البربر أن صيحة زيرى وجنوده فى هذه الحرب « هشام يا منصور ! » ، بينما كانت صيحة جنود المنصور بن أبى عامر « يا منصور ! »[٣] وواضح أن هناك مغزى سياسيًا لكل من الصيحتين : فمن المعروف أن المنصور بن أبى عامر استبد بالخليفة الأموى هشام المؤيد وحجر عليه مما أثار استياء بعض رجال الدولة ومنهم نائبه فى حكم المغرب زيرى بن عطية المغراوى الثائر ضده . ومن هنا يتضح بجلاء الفرق بين الشعارين : صيحة جنود زيرى : هشام يا منصور ! فيرد عليهم أعداؤهم لا بل « يا منصور ! » أى المنصور بن أبى عامر.

ومن الطريف أن الأسبان أخذوا من المسلمين أمثال هذه الصيحات التى تستنجد بالقوى الإلهية وبالرسل والقديسين. فتروى المصادر الأسبانية فى وصف بعض المعارك التى دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا، أن المسلمين كانوا يصيحون يا محمد! بينما كان الأسبان يصيحون: يا سانتياجو! Santiago[٤].

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٣١ نشر محمد مصطفى زيادة .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى جـ ١ ص ٤١٥ نشر سعيد عاشور .

(٣) كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٢٩ نشر ليفى بروفنسال .

(٤) انظر :

(Américo Castro : Espania en su Historia P. 140, Buenos Aires 1948).

وسانتياجو أو شنت يا قب - كما تسميه المصادر العربية - هو القديس يعقوب أحد الحواريين الإثنا عشر ومن أخص الناس بالسيد المسيح حتى اعتبره المسيحيون أخاه التوأم حتى فى شكله وفى صوره للزومه إياه . ويزعم الأسبان أن هذا القديس كان أسقفاً لبيت المقدس ، وأنه ساح فى الأراضى داعياً لمن فيها إلى المسيحية حتى انتهى إلى هذه القاصية من جليقية أو غالسييا Galicia فى شمال غرب أسبانيا ، ومات ودفن بها . ثم اهتدى أحد رجال الدين إلى قبره عن طريق نجمة أضاءت له كما يقولون Campus Stellae (١)(حقل النجمة) ثم أقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم وتسمى كنيسة سنتياجو دى كومبوستلا Santiago de Compostela . قال ابن سعيد الغرناطى : « وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا ... فيها يحلفون ، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومه وما وراءها» (٢).

والأساطير الأسبانية القديمة تشير إلى أن سنتياجو كان يخرج للجنود المحاربين الأسبان على شكل ملاك بيده سيف ويمتطى فرساً أبيض ثم يأخذ فى معاونتهم على قتال المسلمين فى المعركة حتى يكتب لهم النصر . ولهذا أطلقوا عليه اسم Matamoros أى قاتل المسلمين .

لقد أبدى بعض المؤرخين الأسبان الحديثين شكاً كبيراً فى أن سنتياجو مدفون فى أسبانيا وأن هذا المكان كان مزاراً وثنياً قديماً ، وأن تقديسه على تلك الصورة فى الفترة الاسلامية ، كان وجهاً من أوجه التأثير الاسلامى فى أسبانيا حيث كان لا بد من مقابلة الحماس الدينى عند المسلمين ، باعتقاد يثير الحماس الدينى عند المسيحيين . ولذا اشتقت صورة القديس يعقوب (سنتياجو) من الصورة التى يراها المسلمون فى نبيهم ، فإذا كان محمد نبياً مثل المسيح

---

(١) على الرغم من أن الرأى السائد بأن اسم كمبوستيلا Compostela مشتق من اللاتينية بمعنى حقل النجمة Campus Stellae ، إلا أن هناك رأياً حديثاً أبداه الأب S. Portela أسقف كاتدرائية سنتياجو يقول فيه بأن الكلمة معناها Que Ben Composta vay!! أى المدينة المرتبة المنظمة ! بدليل إننا عندما نرى شيئاً جميلاً مرتباً نقول Composta y ella .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص٣٩٠ .

فيعقوب أخو المسيح ، وإذا كان محمد محارباً ومجاهداً ، فكذلك يعقوب كان فارسًا ومحارباً على صهوة جواده الأبيض المنير (١). وكيفما كان الأمر ، فالحقيقة التى لا شك فيها ، هى أن الأسبان فى العصر الوسيط قد آمنوا بهذا القديس ومعجزاته ، واتخذوه رمزاً قومياً بل وشفيعًا لهم فى حروبهم مع المسلمين .

وهكذا نرى أن نظرة الأسبان إلى سنتياجو كانت تختلف تمامًا عن نظرة العالم المسيحى له . فالأوروبيون بصفة عامة ينظرون إليه على أنه القديس الذى يحجون إليه Santiago el Peregrino بينما ينظر إليه الأسبان على أنه سنتياجو المحارب Santiago el Bélico . ومن هذا ندرك تمامًا لماذا حرص المنصور بن أبى عامر على حملته المشهورة على غاليسيا سنة ٣٥٧هـ/٩٩٧م . لقد كان هدفه من غير شك هو تخريب كنيسة سنتياجو وتحطيم أسطورته الحربية .

ولكن على الرغم من كل هذا ، فقد ظلت مدينة سنتياجو وكاتدرائيتها إلى يومنا هذا هى القاعدة الدينية لأسبانيا ، كما لا يزال الأسبان يحتفلون بذكرى سنتياجو بوصفه حامى حمى أسبانيا فى ٢٥ يوليو من كل عام .

هذا وقد وردت صيحة سنتياجو فى شعارات وصيغ مختلفة مثل Santiago y a ellos! بمعنى سنتياجو على الأعداء ! ومثل Santiago rompe Espana! وقد تعنى سنتياجو الذى يخترق أسبانيا . وهناك صيحات أخرى اقليمية أسبانية ، فالقشتاليون اتخذوا من اسم بلدهم شعاراً فى الحرب وهو ! Castiella (٢) أى قشتالة ! . أما أهل مملكة أرجوان فى شمال شرق أسبانيا ، فكان شعارهم !Dispietra Hierro : بمعنى استيقظ أيها الحديد !

---

(١) انظر :

(Americo Castro : Op. Cit . P. 131 , Buenos Aires 1948) .

(٢) أنظر :

Alfonso el Sabio : Primera Crónica General de Espana tomo II P. 726-727, publicada per MR. Menéndez Pidal).

(أى السيف Espada !) (١).

وكل هذا يبين مدى التأثير الإسلامى . بقيت نقطة أخيرة ينبغى أن نشير إليها فى هذا الصدد ، وهى وجوب التفرقة بين هذه الصيحات والشعارات الهادفة التى تشحذ الهمم ، وبين التهليل والصياح والصراخ (العياط) الذى لا يعبر عن اى هدف أو معنى إيجابى . ولهذا نسمع عن بعض المسلمين الأوائل انهم كانوا يعارضون فكرة الصياح ورفع الأصوات خلال المعركة ويعتبرونها فشلاً .

قال أبو بكر الطرطوشى : « ورأيت غير واحد ممن ألف فى الحروب يكره رفع الصوت بالتكبير ويقولون يذكر اسم الله فى نفسه ، وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه : « ألا ترون أصحاب محمد جثياً على الرُكب كأنهم خرس يتلمظون تلمُظ الحيّات !؟ . وقال بعض المصنفين : « كثرة التكبير عند اللقاء فشل ، غضُوا الأصوات ، وتجلبوا السكينة وأكملوا الوئام » (٢) .ومن وصية الإمام على بن أبى طالب لأصحابه يوم صفين قوله رضى الله عنه : « فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع ، وأخرّوا الحاسر ، وعضوا على الأضراس فإنه أنْبَى للسيوف عن الهام ، والتووا على أطراف الرماح ، فإنه أصون للأسنّة ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأخفتوا الأصوات فإنه أطردُ للفشل ، وأولى بالوقار ، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » (٣).

٤- الشعر والموسيقى والأناشيد الحماسية : إلى جانب ما تقدم من مبارزات وصيحات ، لجأ الأندلسيون إلى وسائل أخرى معروفة فى المشرق والمغرب لتقوية روح الجنود خلال المعركة مثل إنشاد الأشعار ، والأناشيد

---

(١) انظر :

(Miguel Esquerdo Galiana : Espana Cara al mar P. 56, 62) .

(٢) أبو بكر الطرطوشى : سراج الملوك ص ٣٣٣ - ٣٤١ (القاهرة سنة ١٩٣٥) .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٥ .

الحماسية ، وقرع الطبول والدفوف ، ونفخ القرون وضرب الصنوج . وقد أعطانا ابن حيان فى هذا الصدد وصفاً فنياً دقيقاً للهدية التى أرسلها الخليفة عبد الرحمن إلى والى مليلية فى المغرب موسى بن أبى العافية ، ومن بينها أربعة قرون جاموسية مجزعة الأطراف للضرب أو للنفخ فيها ، غلائفها ديباج ، وعلقها أديم أحمر .... وستة من الطبول اللاطونية المذهبة الكاملة الآلة ... الخ(١). ويبدو أن استخدام نفخ القرون استمر متبعًا بعد ذلك فى الجيوش الأندلسية ، إذ يروى ابن بسام أن المنذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة ، أمر بعرض الجند ورئيسهم مملوك رومى يقال له خيار ، فجعل ينفخ فى القرن ليجتمع أصحابه على عادة لهم فى ذلك(٢) . ويرى البعض أن كلمة البوق من الأصل اللاتينى Buecina غير أن المستشرق الأسبانى سيمونيت يرى أنها عربية . وأن ضرب البوق انتقل إلى الأسبانية باسم Albogue (٣).

ومن أمثلة الأناشيد الحماسية يروى ابن خلدون أن الجيوش المغربية الزناتية التى حاربت فى الأندلس ، كان الشاعر يتقدم صفوفها ، ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى ، ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها، ويسمون ذلك الغناء « تاصوكايت » . وأصله كله فرح يحدث فى النفس فتنبعث عنه الشجاعة ، كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث فيها من الفرح(٤). ومن الطريف أن الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب أوجز وصف هذا النوع من الغناء بشىء من السخرية عند قوله : « وتصوكيت صوت يقرقر به قوم من الأوقاح بين يدى القتال » (٥).

---

(١) ابن حيان : المقتبس جـ ٥ ص ٣٥٣ ، ص ٤٢٦ (نشر شالميتا وكورينطى وصبح) ولعل كلمة لاطون التى وصف بها الطبول مشتقة من الكلمة الأسبانية Laton بمعنى النحاس الأصفر . راجع كتابنا مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس ٩٨ ، ١٢٣ (جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨) .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٢١٨ .

(٣) انظر : (Dozy : Supplm. aux Dict. Arabes t. I. P. 129) .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٨ .

(٥) ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ٣٣١ ، نشر أحمد مختار العبادى .

ويبدو أن الجيوش الأسبانية لم تستعمل الطبل فى حروبها ، وقد ذكر ذلك ابن خلدون فى مقدمته بقوله : أما الجلالقة لهذا العهد بالأندلس ، فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة فى الجو صعدا ، ومعها قرع الأوتار من الطنابير ، ونفخ الغيطات (gaita نوع من المزمار) . ثم يقول فى موضع آخر : وتتخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقية لا طبلاً ولا بوقاً ، فيحدق المغنون بالسلطان فى موكبه بآلاتهم ، ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة »(١).

وهكذا نرى أن الأسبان لم يستخدموا الطبلة فى حروبهم لدرجة أنهم حينما أرادوا لها اسماً مرادفاً فى لغتهم ، اختاروا كلمة Tambor وهى تطابق كلمة طنبور العربية ، ولكن المعنى يختلف فى كل منهما : فالطنبور الأسبانية تعنى الطبل فى حين الطنبور العربية تعنى آلة موسيقية ذات عنق طويل ولها أوتار نحاسية مثل القيثارة . وقد وردت Tamborوهى فى المصادر الأسبانية حينما تحدثت عن موت المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م بقولها : En Catalanazor murió el Manzor y perdió el Tambor ! أى وفى قلعة النسور مات المنصور وفقد طبله (أى بالمعنى المجازى فقد سروره وفرحه) .

٥- قوة ضربات السيوف والرماح : لقد كانت قوة ضربات سيوف الأبطال ورماحهم من الأمور التى اهتم بها أهل المغرب والأندلس ، واتخذوها مادة للدعاية لأنفسهم والفخر بها على عدوهم . ولقد وصف ابن حيان بعض هذه الضربات ، كما ذكر أسماء أصحابها الأبطال من المغاربة وذلك عند كلامه عن الحرب التى قامت بين الخليفة الأموى محمد الثانى بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدى بالله ، وبين ابن عمه ومنافسه سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين . وقد استعان الأول بالنصارى الأسبان ، بينما استعان الثانى بالبربر ومن زعمائهم زاوى بن زيرى ، وابنا أخويه حبوس وحباسة أبناء ماكسن. ودارت معركة عنيفة بين الفريقين عند حصن عقبة البقر El Vacar شمالى قرطبة بنحو عشرين كيلومتراً (وذلك فى ٥ شوال سنة ٤٠٠هـ/٢٢ مايو سنة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

١٠١٠ م) وانتهت الموقعة بانتصار المهدى وفرار المستعين ومن معه من البربر إلى الساحل الجنوبى الشرقى للأندلس حيث دارت معركة أخرى بين الفريقين فى ٦ ذى القعدة من نفس السنة (٢١ يونيه سنة ١٠١٠م) عند وادى السقائين المعروف بوادى يارو أو وادى آرو Guadiaro فى أحواز مربلة Marbella . وقد قاتل البربر قتال المستميت الذى لا يطمع فى الحياة . وانتهى الأمر بانتصارهم بقيادة المستعين وهزيمة المهدى ومن معه من القرطبين وفرسان برشلونه (١) . يقول صاحب كتاب مفاخر البربر نقلاً عن ابن حيان : « وكان من عجائب الضراب يوم آره ، المتحدث عنه فى الآفاق إلى اليوم ثلاث ضربات ما سمع بمثلها فى الدهر ، مضاء سيوف وقوة سواعد : منها ضربة أبى زوليت البيضاء التى حملت إلى مدينة برشلونة والتى وضعتها الإفرنجة فى الكنيسة هناك اعتباراً ومعذرة . وضربة حباسة بن ماكسن الصنهاجى فارساً آخر منهم بدرع حصينة ثقيلة فهتكت الزرد وقدّته وقدّت جنب لابسه فجدلته . وضربة بهلول بن تمايت الدمرى لخطم فرس علج منهم ففصلت حديدتى اللجام ولحيى (فكّى) الفرس جميعاً ، ورمت بخطمه وما تكتنفه من الحديد ناحية ، وخرّ الفرس على فيه . فصارت هذه الضربات أعجوبة عند الناس(٢) .

ولقد أيد الطرطوشى جزءاً من رواية ابن حيان بقوله :

« دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا ، فوجدوا فى المعترك قطعة من بيضة الحديد قدر ثلثها بما حوته من الرأس ، فيقال إنه لم ير قط ضربة أقوى منها، ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا إسلام ، فحملتها الروم (أى بقايا الخوذة) وعلقتها فى كنيسة لهم . وكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون : لقينا أقواماً هذا ضربهم ، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها » (٣) . ويضيف الطرطوشى بعد ذلك كلاماً لا يخلو من فخر واعتزاز عندما يقارن بين أبطال

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١١٥ ؛ ديوان بن درج القسطلى ص ٥١ وما بعدها، نشر وتحقيق محمود على مكى ، دمشق سنة ١٩٦١ .

(٢) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ورقة ١٥٨ (النسخة الخطية) .

(٣) أبو بكر الطرطوشى : سراج الملوك ص ٣٢٤-٣٢٥ .

عصره وأبطال العروبة السابقين مثل قوله : وكانت العرب تفخر فى هذا الباب بقول النمرين تولب يصف ضربة سيف :

أبقى الحوادث والأيام من نمر   آثار سيف قديم أثره بادى

تظل تحفر عنه إن ضربت به   بعد الذراعين والقيدين والهادى

ولكن أين هذا من قد الحديد بما حواه من الرأس ، وأين الثريا من الثرى ، وأين الحسام من المنجل ! (١)

أما عن قوة الرمى بالرمح ، فحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى قصة الفارس الأمير الشاعر حريز بن عكاشة الذى كان أميراً على قلعة من قلاع الثغر الأدنى طليطلة على عهد ملكها يحيى المأمون بن ذى النون (٤٣٥-٤٦٧هـ/١٠٤٣-١٠٧٥) فيروى أن ملك قشتالة الفونسو السادس طلب الاجتماع به يوماً ، فوافق حريز على طلبه بشرط أن يسترهنه فى نفسه عدة من أمراء الروم . فأجابه الملك إلى ما ارتهن . وكان مكان اللقاء قلعة رباح Calatrava جنوبى طليطلة . وخرج حريز لابسًا لأمة حربه . فلما وصل فسطاط الملك ، تلقته الأمراء بالرحب والسعة ، ولما أراد النزول عن فرسه ركَز رمحه فى الأرض . ثم قال له الملك : يا حريز أريد أن أنظر إلى مبارزتك هذا الفارس البطل . فقال له حريز : المبارز لا يبارز إلا أكفاءه ، وإن لى بيّنة على صدق قولى أن ليس لى فيهم كفء ، هذا رمحى قد ركزته ، فمن ركب واقتلعه بارزته ، كان واحداً أو عشرة ، فركب عظيمهم فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه ، ثم فعل ذلك مراراً ، فقال له الملك : أرنى يا حريز كيف تقلعه ؟ فركب وأشار بيده واقتلعه ، فعجب القوم ، ووصله الملك وأكرمه(٢) .

---

(١) أبو بكر الطرطوشى : سراج الملوك ص ٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٥ ص ٩٩ . وهذا الفارس الأمير حريز بن عكاشة كان شاعراً أيضاً وقد أورد له المقرى جملة من أشعاره (فى نفس الجزء والصفحة) .

الفصل الثانى

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس في عصر المرابطين

(٤٧٩ - ٥٤١ هـ / ١٠٨٦ - ١١٤٧ م)

الفصل الثانى

صور لحياة الحرب والجهاد فى
عصر دولة المرابطين (الملثمين)

أولاً : التعريف بالمرابطين :

سقطت الخلافة الأموية بقرطبة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م ، ونتج عن سقوطها تفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة ، واستقل كل أمير بناحيته ، وأعلن نفسه ملكاً عليها ، فدخلت الأندلس بذلك فى عصر ملوك الطوائف أو ما يسمى بعصر الفِرق .

وانتهز الملك الأسبانى القونسو السادس هذه الفرصة ، وأخذ يتدخل فى شئون تلك الدويلات الأندلسية ، ويضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض ، ويغير على أراضيهم ويطالبهم بالأموال كى يضعفهم حربياً واقتصادياً . ثم توج مجده الحربى باحتلال طليطلة Toledo قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، واتخذها عاصمة لدولته مملكة قشتالة وليون . ولم يكتف بهذا النصر بل سارع إلى مدينة سرقسطة Zaragoza قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين طامعًا فى الاستيلاء عليها هى الأخرى ؛ مستغلاً حالة الفوضى السياسية التى كانت سائدة فى الأندلس .

وما يقال عن الأندلس ، يقال أيضًا عن بلاد المغرب التى كانت تعانى أيضًا فى ذلك الوقت ، حالة انقسام إلى دويلات طائفية ينتسب بعضها إلى متنبئين مارقين عن الاسلام ، مثل حاميم بن منّ اللّه الملقب بالمقتدى (أو المفترى) الذى تنبدأ فى قومه قبائل غمارة فى جبال الريف شمال المغرب ، فأجابه بشر كثير وأقروا بنبوته .

ومثل صالح بن طريف البرغواطى الذى تنبأ هو الآخر فى قبائل برغواطة فى إقليم تامسنا أو ما يسمى اليوم بالشاوية وهى الأراضى الممتدة غرباً على المحيط الأطلسى من مكان مدينة الرباط الحالية إلى بلدة أزمور عند مصب وادى أم الربيع فى غرب المغرب . وقد شرّع لهم ديانة جديدة

استهواهم برخصها ، كما وضع لهم قرآنا باللغة البربرية فى ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء الأنبياء .

ولم يستطع أحد من ملوك المسلمين الذين تداولوا حكم المغرب فى ذلك الوقت ، القضاء على هذه الطوائف المارقة التى ظلت باقية مستقرة وخطرها يزداد شدة ، وحددوها تزداد اتساعاً على حساب المسلمين المجاورين .

وتشاء الظروف فى ذلك الوقت العصيب أن ينعم الله على هذا الجناح الغربى الاسلامى ، بقوة فتية عسكرية لتنقذه مما هو فيه ، ألا وهى قوة الصنهاجيين المعروفين باسم المرابطين والملثمين والصحراويين وصنهاجة اللثام .

وبداية تاريخ هذه الدولة الصنهاجية المرابطية ، يبدأ فى الصحراء الغربية ، صحراء شنجيط أو ما يسمى اليوم بموريتانيا (٢) .

فى هذه الصحراء الشاسعة التى كانت تحدها من الجنوب بلاد السودان الغربى حيث مملكة غانا الوثنية ، وفى الغرب المحيط الأطلسى ، وفى الشرق نهر النيجر عندما يلتوى شمالاً إلى جهة تمبكتو ، وفى الشمال منطقة سجلماسة التى يقال لها اليوم تافيلالت (٣) .

---

(١) راجع التفاصيل فى مقالنا (أحمد مختار العبادى : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد العشرون سنة ١٩٦٦) .

(٢) كلمة شنجيط أو شنقيط كانت تطلق فى الأصل على قرية من قرى ولاية أدرار فى موريتانيا ومعنى شنجيط بالبربرية عيون الخيل ، ويقال إنها بنيت من قديم فى القرن الثانى للهجرة ثم جددت فى القرن السابع فى موضعها الحالى . ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله وصار أهلها يعرفون بالشناجطة ومازالت شنجيط هى العاصمة الروحية للبلاد ، أما العاصمة السياسية فهى مدينة نواكشوط على ساحل المحيط الأطلسى . راجع (الشيخ ماء العينين الشريف الإدريسى الشنجيطى : كتاب الجأش الربيط فى النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط ص ١١ ، (مكتبة صحراء المغرب سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) .

(٣) يلاحظ أن تافيلالت الحالية تقابل مقاطعة سجلماسة القديمة ، أما مدينة سجلماسة القاعدة فتقابها اليوم مدينة الريسانى .

فى هذه الصحراء ، كانت تعيش قبائل صناهاجة اللثام البربرية التى يصفها المؤرخ والجغرافى الأندلسى المعاصر أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) بأنهم ظواعن رجالة فى الصحراء ، وهم إلى بلاد السودان أقرب ، ولا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزاً أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الاسلام أو بلاد السودان ، فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق(١) ! ويضيف صاحب كتاب الاستبصار : « وإنما لهم الأغنام الكثيرة ، فيعيشون من لبنها ولحمها ، فهم يجففون اللحم ويطحنونه ، ويصبون عليه الشحم المذاب والسمن ويأكلونه ويشربون اللبن ، قد غنوا به عن الماء ، فيبقى الرجل منهم الشهر لا يشرب الماء ولا يأكل الخبز ولا يعرفونه ، وصحتهم من ذلك متمكنة ... » (٢).

ومن أشهر قبائل صنهاجة اللثام : لمتونة فى شمال الصحراء ، تليها جنوباً مسوفة ثم جدالة بالقرب من نهرى السنغال والنيجر وساحل المحيط .

وهذه القبائل كانت امتداداً لقبائل صنهاجة التى فى شمال المغرب ، والتى تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية فى المغرب الأدنى والأوسط ، وكذلك الدولة الزيرية التى قامت فى غرناطة بعد سقوط الخلافة الأموية فى عصر الطوائف .

غير أن هذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها فى الشمال فى عدة نواحى نذكر منها :

أولاً : إن قبائل صنهاجة الجنوب كانت تتلثم أو تتقنع ، ولهذا سميت بصنهاجة اللثام يقول البكرى : « وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك فى حال من الأحوال ، ولا يميز رجل منهم وليه ، ولا حميمه إلا إذا تنقب . وكذلك فى

---

(١) البكرى : المغرب فى وصف افريقية والمغرب ص ١٦٤ ، نشر دى سلان (الجزائر سنة ١٩١١) .

(٢) كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مجهول ص ٢١٣ ، نشر سعد زغلول (السكندرية سنة ١٩٥٨) .

المعارك ، إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه ، لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك ألزم من جلودهم ، (١).

ولقد اختلفت الآراء حول هذا الزى المميز لهم وهو اللثام ، فالبعض يرى أنهم أخذوه عن زنوج افريقيا المجاورين لهم ، والذين استخدموا الأقنعة Mascara لدفع العين الشريرة عنهم (٢) . والبعض الآخر يرى أن استخدام اللثام كان بهدف تغطية الأفواه والشفاة الذابلة المتشققة من الحر والعطش وقلة الماء بدليل قول البكرى : ، وهم يسمون من خالف زيهم أفواه الذّبان ، بلغتهم أى الذابلة من العطش (٣) .

وفى لسان العرب لابن منظور : ذبن والذُبْنة ، ذبول الشفتين من العطش، والأصل : الذُبلة (الذبول) فقلبت اللام نونًا . وهذا النص يدل على أن استخدام اللثام كان بهدف تغطية هذا الجزء من الوجه . ويعزز هذا المعنى قول ابن حوقل : ، وهم يتلثمون وهم أطفال ويزعمون أن الفم سوأة تستحق الستر كالعورة ، لما يخرج منه ، إذ ما يخرج منه عندهم انتن مما يخرج من العورة،(٤).

هذا ، ويذهب علماء الانثروبولوچيا إلى أن استخدام المرابطين للثام ، قد يكون مظهراً من مظاهر انتسابهم لأمهاتهم واحترامهم للمرأة ، ويبدو ذلك فى أسماء أمرائهم وقوادهم امثال : ابن فاطمة ، وابن عائشة وابن غانية ، وابن الصحراوية وغيرهم ، ومازالت إلى اليوم قبائل الطوارق أو التواركه أو التوارجة فى صحراء الجزائر يستعملون اللثام . ويقال إنهم من قبيلة ترغه أو تارجه السالفة الذكر وهى إحدى قبائل الملثمين ، ويضمهم ابن خلدون فى كتلة البربر البرانس التى تنتمى إليها صنهاجة ، كذلك يقول محمد بن الطيب القادرى (ت ١١٨٧هـ/١٧٧٣م) فى كتابه ، نشر المثانى ، والتوارك كلهم من لمتونة بلا ريب كما هو عند المؤرخين فمحلهم بين بلاد السودان وبلاد

---

(١) البكرى : نفس المصدر ١٧٠ .

(٢) أنظر : André Julién : Histoire de l'Afrique du Nord P. 77, Paris 1952.)

(٣) البكرى : نفس المصدر ص ١٧٠ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٢ (ليون ١٩٦٧) .

المغرب، وهم ذوو شوكة عظيمة تخافهم السودان ، وقد لعبوا دوراً هاماً فى نشر الاسلام في السودان الأوسط ووسط افريقيا (١). وفى هذا المعنى لاحظ عالم الانثروپولوچيا د. أحمد أبو زيد أن التواركة فى أغانيهم يحرصون على الانتساب لأمهاتهم مثل قولهم :

أنا تارجى ابن تارجية الصحرا وما فيها لىَّ ! (٢)

هذا ، ويذهب بعض المستشرقين إلى أن كلمة الطوارق تعنى الحمر أو ذوو اللون النحاسى تمييزاً لهم عن السود المجاورين لهم .

والواقع إن الآراء اختلفت حول أصل عادة استخدام اللثام ، وأغلب الظن أنهم أخذوها عن زنوج افريقيا المجاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة الحسودة عنهم . ومن الطريف أن عادة الأقنعة مازالت تستخدم إلى اليوم فى الحفلات التنكرية باسم Mascara وعربها المسلمون إلى مسخرة !

ثانيًا : بالنسبة لملابس المرابطين ، فتجدر الإشارة إلى أن استخدام اللثام أو النقاب كان خاصاً بالمرابطين أو صنهاجة اللثام فقط ولا يستخدمه غيرهم . وفى هذا المعنى نجد نصاً أورده أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق يصف فيه دخول داعية الموحدين محمد بن تومرت فى بداية أمره مدينة مراكش عاصمة المرابطين حيث وجد الأمير المرابطى على بن يوسف بن تاشفين قاعداً والوزراء واقفون . فقال له الوزراء : وَدْ الخلافة على الأمير (أى تودد وتحبب إليه) فقال لهم : وأين الأمير ؟ إنما أرى جوارى منقبات ! فلما سمع ذلك على بن يوسف ، حطّ النقاب عن وجهه وقال لهم : صدق فلما رآه ابن تومرت قال له : الخلافة لله وليست لك يا على بن يوسف ! (٣)

---

(١) محمد بن الطيب القادرى : نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى جـ ١ ص ١٦٤ ، نشر محمد حجى وأحمد توفيق (الرباط سنة ١٩٧٧) .

(٢) أحمد أبو زيد : دراسات أنثروپولوچية فى المجتمع الليبى (فصل عن التوارجة) دار الثقافة سنة ١٩٦٣ ، راجع كذلك ليفى دلافيدا (Levi Della Vida) كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء العرب لمحمد بن حبيب فى :
Journal of the American Oriental Society Vol. 62,1942) .

(٣) أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق (ق ٦هـ) : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء —

هذا النص يدل على أن اللثام كان قاصراً على المرابطين الصناهجة فقط وإن كانت هناك حالات استثنائية اتخذ فيها بعض العبيد اللثام للتستر وراءه فى ارتكاب المعاصى والفجور كما يقول ابن عبدون (١).

ولقد استخدم المرابطون نوعاً من اللثام يسمى الرِّيْط(٢) أخضر اللون ، وقد أورد النويرى شعراً فى مدحهم يقول فيه :

إذا التثموا بالرَّيْط خِلْتَ وجوهَهم

أزاهرَ تبدو من فتوق الكمائمِ(٣)

كذلك نجد إشارة واضحة فى كتاب الروض الهتون أن المرابطين كانوا يلبسون الغفارة القرمزية اللون ، والعمائم ذوات الذؤابات ، والمهاميز التاشفينية والسيوف المحلاة (٤) . وينبغى أن نقف هنا عند كلمة الغفارة التى وردت فى النص السابق لأنها تعنى معنيين مختلفين :

المعنى الأول : الغفارة (بكسر الغين وفتح الفاء) وجمعها الغفائر وتعنى غطاء الرأس يلبس تحت العمامة مثل الطاقية أو الشاشية ، ومثل الزرد الذى يلبسه المحارب تحت القلنسوة شأنها شأن المغفر والمغافر والمغفرة (٥).

- دولة الموحدين ص ٦٨ وقد نشره وترجمه إلى الفرنسية ليفى بروفنسال تحت عنوان:
(Documents Incdits D'Histoire Almohade P. 108, Paris 1928).

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢١٨ .

(٢، ٣) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة رابطة وريط ورياط ، فقد تكون بمعنى ثوب يشبه الملحفة أو الحبرة أو ملاءة ذات قطعة واحدة ، أو بمعنى العمامة التى تلف بها الرأس كما ورد فى مقامات الحريرى : وقد اعتم بريطة .
راجع :

(R. Dozy : Supplement aux Dictionnairs Arabes , I,P. 575 & R.Dozy : Noms des Vetements chez les Arabes P. 192-193) .

(٤) محمد بن غازى (ت سنة ٥٩٩هـ/١٥١٣م) : الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ص ٦ (الرباط سنة ١٩٥٢) .

(٥) المنجد فى اللغة والآداب والعلوم مادة غفارة ؛ دوزى : معجم مفصل فى أسماء الألبسة عند العرب ص ٣١٦ (ترجمة عربية) .

المعنى الثانى : الغَفّارة (بفتح الغين أو ضمها وتشديد الفاء) بمعنى الرداء الخارجى وهى المقصودة هنا فى النص بالغفارة القرمزية ، وجمعها الغفافير وهى كلمة دخيلة كانت تطلق فى الأصل على رداء واسع يلبسه الأحبار ورجال الدين فى الهياكل ، ثم استعملها المسلمون فى مصر والمغرب مثل العباءة أو المعطف أو الجبة أو السلهام المغربى (١) . ومثال ذلك ما يروى فى مصر أن رجلاً كان مقربًا من الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ، فكانت تصنع له ملابس مخصوصة بدمياط وتنيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب ، ويلبس فوقها الغفافير الديباج . ومثل قول النويرى فى وصف حملة لويس التاسع على مصر ،، وبعث مع الكتاب غفّارة ريدافرانس (أى ملك فرنسا) إلى جمال الدين ، فلبسها وهى اسقلاط أحمر تحته سنجاب وفيها شكل بكلة ذهب(٢) .

كذلك استخدمت الغفّارة فى المغرب كرداء خارجى مثل السلهام ، وقد أورد صاحب الحلل الموشية ذكرها ضمن الهدية التى قدمها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبى بكر ابن عمر اللمتونى (٣)، نذكر منها : مائة عمامة مقصورة (٤)، وأربعمائة من الشواشى(٥) (وفى رواية أخــــرى من

---

(١) المنجد فى اللغة مادة غفّارة ، وكذلك :

(Dozy: Suppl. ayx Dict. Arabes II, P. 218)

(٢) دوزى : معجم الألبسة ص ٣١٧-٣١٩ وقد أطلق المقريزى على هذه الغفارة اسم كزاغند وهى المعطف الذى يلبس فوق الزردية وتصنع من الحرير المبطن . وقد وجدوا على المعطف الشعار الملكى الفرنسى وهو زهرة الزنبق Fleur de Lis . ويبدو أنها بكلة الذهب التى وردت فى النص وهى المشبك الذى يشبك فى الثياب على شكل هذه الزهرة . ومن المعروف أن هذه الغفارة كانت للكونت روبرت أرتوا أخى الملك الذى قتل فى معركة المنصورة فظنوا أنها للملك لويس نفسه (المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥٣ حاشية ٤) .

(٣) الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول (القرن الثامن الهجرى) ص ١٦ نشر علوش .

(٤) عمامة مقصورة أى مبيضة ، يقال قصّر الثوب أى دقه وبيضه ، والقصّار هو محوّر الثياب ومبيضها .

(٥) الشواشى ومفردها شاشية نسبة إلى اقليم الشاش أو طشقند فى بلاد ما وراء نهر -

السوسى)[١]، ومائة غفّارة ، ومائتين من البرانس منها بيض وكحل وحمر ، وألف شقة من الكتان ، واثنتين وخمسين جبه اشكرلاط[٢] .

وهكذا نرى مما تقدم أن المرابطين ، اتخذوا أردية مختلفة مثل اللثام، والرّيْط ، والشواشى ، والعمائم البيضاء ، والبرانس ذات الألوان المختلفة ، والغفافير القرمزية والجباب وغيرها .

على أنه يبدو أن هذه الألوان القرمزية أو الحمراء التى غلبت على ملابس المرابطين فى بداية عهدهم ، لم تلبث أن تغيرت بعد ذلك ومالت إلى السواد بعد أن دعا يوسف بن تاشفين لخلفاء بنى العباس فى بغداد واتخذ شعار الدولة العباسية وهو السواد ، فصاروا يرتدون الغفائر والعمائم السوداء ويرفعون الرايات السود اعترافاً بسيادتهم الروحية على البلاد المغربية [٣]وقد يؤيد ذلك ما روى عن المعتصم بن صمادح أمير المرية حينما خرج لاستقبال يوسف بن تاشفين فى عبوره الثانى إلى الأندلس سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م أنه (أى ابن صمادح) ظهر بين فرسانه فى ثوب مرابطى أسود ، فكان ، كما يصفه بعض الرواة ، كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض [٤]. ولعل هذا أيضاً كان من الأسباب التى جعلت الموحدين بعدهم يطلقون على أعدائهم المرابطين اسم الزراجنة ، لأن

=جيجون وتطلق على الطاقية أو الكلوتة Calotte التى تلبس على الرأس ويلف حولها شال العمامة . يقول ابن بطوطة : وضربوه بالأيدى والنعال حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فأنكروا عليه لباسه (دوزى : معجم أسماء الألبسة عند العرب ص ٢٤١) ويضيف أبو المحاسن فى نجومه الزاهرة أنه جرت العادة أن تصنع الطاقية التى تحت العمامة من قماش رخيص بينما وجد نوع مختلف من الحرير يعرف بالشاشية (ماير : الملابس المملوكية ص ٩٢ ترجمة صالح الشيتى) .

(١) السوسى يقصد بها سوسه فى تونس التى اشتهرت بصناعة العمائم المنسوبة إليها (دوزى جـ ١ ص ٧٠١) .

(٢) اشكرلاط وأشكيلاط وبالفرنسه Écarlate نوع من القماش أحمر اللون من جزيرة أيرلندا (دوزى : تكملة المعاجم العربية جـ ١ ص ٢٥) .

(٣) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ٢ ص ٢٣٣ ترجمة عبد الله عنان (القاهرة سنة ١٩٤٩) .

(٤) « « : نفس المرجع جـ ١ ص ٩٥ .

الزرجان طائر أسود البطن[1] .

أما بالنسبة لصنهاجة الشمال ، أى الدولة الزيرية فى المغربين الأدنى والأوسط ، فقد اشتهرت بعمائمها - ولا سيما عمائم ملوكها - التى تشبه التيجان المذهبة . يقول صاحب الاستبصار : وكان لملوك صنهاجة عمائم شرب[2] مذهبة يغالون فى أثمانها ، تساوى العمامة الـ ٥٠٠ أو الـ ٦٠٠ دينار وأزيد . وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتى تيجاناً وكان ببلادهم صناع لذلك . يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد ، وكانت لهم قوالب من عود فى حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم[3] .

ثانيًا : قيام دولة المرابطين فى المغرب والأندلس :

فى أوائل القرن الخامس الهجرى (١١م) حدثت فى صنهاجة اللثام انتفاضة دينية اصلاحية ألفت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم على أسس دينية واخلاقية صحيحة ويرجع الفضل فى تحقيق هذه الوحدة السياسية والدينية إلى زعيم سياسى هو الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى زعيم الملثمين، وإلى زعيم دينى هو الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى ، وكلا الرجلين ، كما هو واضح من اسميهما ، كانا من أصل صنهاجى[4] .

ولقد استطاع هذا الفقيه ، عبد الله بن ياسين ، بفضل ذكائه وإخلاصه وحزمه أن يخلق من قبائل الملثمين برياسة لمتونة قوة دينية سلفية تقوم على:

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ نشر محمود مكى .

(٢) الشّرب تعنى هنا نسيج كتانى رقيق غالى الثمن كان يستعمل فى معظم الأحيان . (دوزى : ملحق المعاجم العربية جـ ١ ص ٧٤).

(٣) الاستبصار فى عجائب الأمصار ص ١٢٩ نشر سعد زغلول (الاسكندرية سنة ١٩٥٨).

(٤) سبقت الإشارة إلى أهم قبائل صنهاجة اللثام وهى لمتونة وجدالة ومسوفة . وتضيف إليهم كذلك قبائل جزولة ولمطة وهسكورة ، فهى معدودة من شعب صنهاجة نسباً . ولما كانت مواطنهم قرب مواطن قبائل المصامدة بجبال درن أو الأطلس الكبير ، فقد نسبهم بعض المؤرخين إلى مصمودة وهذا غير صحيح فهى ليست منهم وإنما من صنهاجة . راجع (عبد الوهاب ابن منصور : قبائل المغرب جـ ١ ص ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣١١ ، الرباط سنة ١٩٦٨) .

١- الإيمان الراسخ والذود عن الاسلام بالجهاد والرباط .

٢- التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس فيما يرجعون إليه من قوانين دينية ودنيوية (١).

ويبدو أن عبد الله بن ياسين أراد أن يتوج أتباعه بتسمية تتفق مع تلك الأهداف السامية ، فسماهم بتلك التسمية الخالدة « المرابطون » وهى التسمية التى لم تلبث أن صارت اسمًا علمًا لهم بمعنى المجاهدين الصابرين ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكرى يمنحه كل سلطان مرابطى لأتباعه المرابطين ليؤكد من جديد سنة أسلافه فى ايثار الجهاد والرباط . مثال ذلك قول عبد الواحد المراكشى :

« وحين ملك يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس تسمى هو وأصحابه بالمرابطين . ثم يقول فى ترجمة ابنه على : وقام بأمره ابنه على بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمى أصحابه بالمرابطين ، فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد(٢) . ومن الطريف أن كلمة مرابط مازالت تستخدم فى بلاد المغرب كلقب من ألقاب التشريف الموروثة عن الآباء .

بهذه الرسالة السامية كان خروج المرابطين من صحراء شنجيط (موريتانيا) شمالاً نحو المغرب فى منتصف القرن الخامس العجرى (١١ م) يقودهم زعيمهم الدينى عبد الله بن ياسين وقائدهم الحربى أبو بكر بن عمر اللمتونى ومعه ابن عمه يوسف بن تاشفين .

---

(١) عبد القادر زمامة : أبو عمران الغفجومى (مجلة البينة ، يوليو سنة ١٩٦٢) وكذلك (كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس فى القديم لمؤلف مجهول ، نشر وتحقيق عبد القادر زمامة فى (مجلة البحث العلمى ، العدد الثالث سنة ١٩٦٤ ، والعددان الرابع والخامس سنة ١٩٦٥) .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٦٣ ، ١٧١ . انظرمقالنا كذلك (دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس سنة ١٩٦٠) .

فاتجهوا إلى هذه القبائل المارقة غمارة فى الشمال ، وبرغواطة فى الغرب، فاستأصلوا شأفتها ومحوا دعوتها، وأسلم الباقون منهم اسلاماً جديداً (١).

ولقد استشهد الفقيه عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م أثناء قتاله برغواطة بالقرب من مدينة الرباط (عاصمة المملكة المغربية حاليًا) فى منطقة زعير ، ودفن هناك بموضع يسمى تيلمت على ربوة تطل على وادى كريفله أحد فروع وادى أبى الرقراق .

ولا يزال قبره فى هذا المكان ويسميه أهالى تلك الناحية سيدى عبد الله مول الغارة .

أما الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى ، فإنه بعد هذا النصر الذى أحرزه ، قام بتأسيس مدينة مراكش كعاصمة للدولة المرابطية الجديدة على سفح جبال أطلس سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م ثم اتجه بعد ذلك بجزء من جيشه نحو السودان الغربى برسم الجهاد ونشر الاسلام فى مملكة غانة الوثنية ، فأبلى هناك بلاءً حسنًا إلى أن استشهد بسهم مسموم سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م . وكان ابن عمه يوسف بن تاشفين قد خلفه فى حكم المغرب منذ رحيله إلى السودان ، وقد تم له توحيد المغربين الأقصى والأوسط ثم العبور إلى الأندلس لإنقاذها من براثن الملك الأسبانى الفونسو السادس ، ملك قشتالة وليون ، والانتصار عليه فى موقعة الزلاقة Sacralias وتسمى حاليًا Sagrajas بالقرب من بطليوس Badajoz فى غرب الأندلس ، وذلك فى رجب سنة ٤٧٩هـ/أكتوبر سنة ١٠٨٦م.

وبعد فترة وجيزة خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف فى الأندلس بعد أن ثبت تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع الأعداء . وبذلك أصبح هذان القطران المغرب والأندلس يكونان دولة واحدة عاصمتها مدينة مراكش .

---

(١) ويروى ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١٩٠ أن بقايا من قبائل برغوطة ظلت موجودة فى بداية عصر الموحدين ، حاربها الخليفة عبد المؤمن بن على وأجال فيهم السيف ، ولم يبق منهم إلا من لم يبلغ الحلم .

ثالثا : عناصر الجيش المرابطى :

كانت دولة المرابطين منذ نشأتها دولة عسكرية مجاهدة ، واستمرت كذلك بعد أن توطدت أركانها واتسعت حدودها وازدهرت حضارتها وتطورت نظم الحكم فيها . فقد ظلت الصفة العسكرية تغلب عليها ، كما ظل الجيش هو قوام حياتها .

وكان أمير المسلمين من قبيلة لمتونة ، هو القائد الأعلى للجيش ، ويعاونه كافة أفراد أسرته الذين كانوا يلقبون بالأمراء ، بينما كانوا ينعمون بلقب قائد على كل شخصية من الشخصيات البارزة التى تسند إليها المناصب الهامة فى الدولة .

أما نساء المرابطين ، فكن يتمتعن بحرية كافية . وقد يحارين مثل الرجال إذا دعت الحاجة إلى ذلك . فهناك إشارات واضحة إلى معارك حربية دارت فى ديار لمتونة بالصحراء خاضتها نساؤهم ملثمات فى زى الرجال لصد غارة على بيوتهم فى غياب أزواجهن ، وقد انتصرن على المعتدين (١) . واستمرت هذه الصفة الحربية ملازمة لهن حتى آخر أيام الدولة المرابطية وبشهادة أعدائها ، ومثال ذلك إشارة أبى بكر الصنهاجى المكنى (٢) بالبيذق بشجاعة الفارسة المرابطية فانّو بنت عمر بن ينتان (٣) حينما اقتحم الموحدون مدينة مراكش ، فكانت فى ذلك اليوم تقاتلهم فى هيأة رجل ملثم ، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها ومن شدة ما أعطاها اللّه من الشجاعة وهى بكر ، فلما

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٢٩ (نشر محيى الدين عبد الحميد) .

(٢) البيذق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، نشر بروفنسال ص ١٧٠ ، ونشر حاجيات ص ١١٧ .

(٣) من المعروف أن جدها ينتان بن عمر كان من كبار رجالات المرابطين وهو الذى يرجع إليه الفضل فى إطلاق سراح محمد بن تومرت من سجن على بن يوسف حينما تشفع له فيه . وقد أورد كل من البيذق وابن القطان أسماء أبنائه وبناته ومنهم عمر بن ينتان والد هذه الفارسة المرابطية الذى حارب الموحدين وأسروه فى فاس فعفا عنه عبد المؤمن بن على إكراماً لوالده . (البيذق : نفس المصدر ص ٩٠ ، ١١٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ص ١٩٥ – ١٩٦ حاشية) .

ماتت حينئذ دخلوا القصر ، ولم يعرف الموجودن هل هى امرأة أم لا حتى ماتت. ولهذا كله كانت نساء المرابطين موضع تقدير واحترام الرجال ، وكثيرمن أمراء المرابطين وقوادهم كانوا ينتسبون إلى أمهاتهم مثل : ابن عائشة(١) ، وابن فاطمة (٢) ، وابن غانية(٣) ، وابن الصحراوية(٤) ، وغيرهم .

ويصف ابن خلكان زينب النفزارية زوجة يوسف بن تاشفين بقوله :

« وزوجته من أحسن النساء ، ولها الحكم فى بلاده » (٥)كذلك يقال مثل

---

(١) هو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين ، ويعرف بابن عائشة ، وكان من كبار قواد المرابطين . شارك فى معارك عديدة أهمها موقعة أقليش Uclés ، وبرشلونه ، وسرقسطه . وفقد بصره بعد كارثة البورت أو الباب عند بلدة مارتوريل التى قتل فيها القائد المرابطى ابن الحاج حاكم سرقسطه سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م . استدعاه أخوه أمير المسلمين على بن يوسف إلى مراكش وولى مكانه على مرسيه أخاه ابراهيم بن يوسف (ابن القطان : نظم الجمان ص ٨ حاشية) .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة أحد مشاهير القواد المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين وابنه على . استولى على بلنسية بعد وفاة السيد القمبيطور El Cid Campeador وشارك فى معارك اقليش وطليطلة وطلبيره . وولى على بلنسية وغرناطة وفاس واشبيلية ، وتوفى سنة ٥١١هـ/١١١٨م (محمود مكى : وثائق تاريخية جديدة فى عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد السابع سنة ١٩٥٩، ص ١٥٤) .

(٣) بنو غانية ، زعماء من قبيلة مسّوفة الصنهاجية التى تلى لمتونة فى القوة والمنعة ، ومنهم على بن يحيى المسوفى الذى تربى تحت رعاية يوسف بن تاشفين الذى زوجه فتاة من أهل بيته تدعى غانية وأنجبت منه يحيى ومحمد . وقد ولى على بن يوسف بن تاشفين ، محمد بن على المسوفى (ابن غانية) على جزر البليار أو الجزر الشرقية . وقد حمل أبناء محمد وأحفاده راية المرابطين فى جزر البليار بعد سقوط دولة المرابطين، وكثيراً ما أطلق عليهم اسم الميورقيين نسبة إلى جزيرة ميورقة كبرى هذه الجزر . راجع (عصام سيسالم : التاريخ السياسى لجزر البليار ص ٢٧٨) .

(٤) هو فارس المرابطين الأمير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين الملقب بالصحراوى وابن الصحراوية . وله مواقف حربية مشهورة تدل على شجاعته . تزوجت أخته الوزير الأديب أبا جعفر بن عطية . (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦٨ نشر سعيد العريان ، وكذلك البيذق : المصدر السابق ص ١٠٦ - ١٠٧ ، والترجمة الفرنسية ص ١٦٠ حاشية ٣) .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٢٥ .

هذا الكلام عن قمر زوجة على بن يوسف بن تاشفين التى كان نفوذها كبيراً فى الدولة .

ويبدو أن هذه الحرية أو هذه المشاركة الإيجابية التى تميزت بها المرأة المرابطية ، قد استغلها أعداء الدولة المرابطية للإساءة إليها . فإمام الموحدين المهدى ابن تومرت كان يقول عن المرابطين : « وهم يشبهون النساء فى تغطية الوجوه والتلثم والتنقب ،ويتشبه نساؤهم بالرجال فى الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب ، وقد لعن رسول الله (ﷺ) المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء [1] ويروى ابن خلدون أن ابن تومرت لقى ذات يوم الأميرة « الصورة » أخت السلطان على بن يوسف بن تاشفين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين فى زى نسائهم ، فوبخها ودخلت على أخيها باكية [2].

كذلك نجد مؤرخى الدولة الموحدية أمثال ابن القطان ، والبيذق ، وعبد الواحد المراكشى ، يتهمون حكام دولة المرابطين بالضعف بسبب سيطرة النساء على الأحوال حتى صارت كل امرأة من أكابر لمتونة أو مسوفة تشتمل على كل مفسد وقاطع طريق[3] .

وقد سايرهم فى تلك الكراهية بعض المؤرخين الحديثين مثل العالم الهولندى راينهارت دوزى الذى دفعه اعجابه ببنى عباد ملوك اشبيلية وغيرهم من ملوك الطوائف إلى كره خالعيهم المرابطين واتهامهم بالجهل والتعصب الدينى[4] . وقد رد عليه المستشرق الأسبانى فرانسسكو كوديرا متهماً إياه بالتعصب ضد رجال الدين[5] .

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤٦ .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر جـ ٧ ص ٤٦٨ .

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٩٨ ، ١٠٣ .

(٤) راجع كتاب دوزى الخاص بتاريخ بنى عباد Loco Abbadidis وكذلك :

(Dozy : Hist. des Musulm. D'Espagne , III, P. 162.

(٥) أنظر :

(F. Codera : Decadencia y desaparción de los Almorávides en Espana P. 190, Zaragoza).

وعلى الرغم من هذه الحملة التى شنها الموحدون والأندلسيون على هذه الدولة المجاهدة ، فإنه يمكن القول بأن هذه الدولة المفترى عليها ، استطاعت على الأقل أن تنقذ الأندلس من سقوط وانهيار محقق، لأن الأمة المرابطية كلها عملت وراء جيشها لتلبى له كل ما يحتاج إليه .

وكان الجيش المرابطى بعد ضم الأندلس ، ينقسم إلى قسمين : قسم فى المغرب مع السلطان ؛ وقسم آخر فى الأندلس وله قيادته الخاصة التى غالبًا ما تكون فى يد أحد أبناء أمير المسلمين أو أحد أخوته ، ومقرها فى قرطبة وأحياناً فى غرناطة أو اشبيلية .

ويفهم من الوثائق والرسائل المرابطية أن نظام الحكم المرابطى فى الأندلس كان متجهاً إلى اللامركزية بحيث كان للأمير (النائب) سلطة واسعة فى التصرف فى الأمور دون رجوع إلى السلطان فى مراكش (١)

وكانت وحدات جيش المرابطين فى الأندلس موزعة على الولايات الخمس الرئيسية وهى : قرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية ، ومرسية ، وبلنسية ، يضاف إليها سرقسطة بعد انضمامها للمرابطين . ويقدر عددها جميعاً بنحو سبعة عشر ألف فارس (٢) .

أما العناصر التى كان يتألف منها الجيش المرابطى فهى على النحو التالى:

١- **المرابطون** : وهم القوة الرئيسية فى الجيش التى تعتمد على قبائل صنهاجة اللثام مثل لمتونة ، ومسوفة ، وجدالة . وكان زعماء لمتونة ملوكًا لدولة المرابطين .

٢- **الحشم** : سبقت الإشارة إلى الحشم وجمعها أحشام التى كانت تطلق

---

(١) حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ ص٥٧ ؛ محمود مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد السابع سنة ١٩٥٩ ص ١٤٥ .

(٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٦٥ نشر علوش .

فى عهد الدولة الأموية على الجنود المرتزقة الذين وفدوا على الأندلس من أوروبا وأفريقيا كالصقالبة والبربر والعبيد السود الأفارقة ، بينما عرف أفراد الجيش الوطنى الأندلسى من أبناء الفاتحين من العرب والبربر باسم الجند والأجناد .

أما فى عصر المرابطين ، فقد اختلفت الأقوال حول طائفة الحشم والعناصر التى تتألف منها . فيفهم من كلام صاحب الحلل الموشية انهم كانوا عناصر مختارة من قبائل مختلفة خارجة عن جماعة المرابطين الأصليين وذلك فى قوله :

« وعظم ملك يوسف بن تاشفين وضم من جزولة ولمطة وقبائل زناته ومصمودة جموعاً كثيرة وسماهم بالحشم » (١) . ومن المعروف أن قبائل جزولة ولمطة ينتمون إلى صنهاجة بالنّسب ، بينما كانت مصمودة من كتلة البرانس التى تنتهى إليها صنهاجة ، ولكنها لم تختلط بسواها إلا نادراً . أما زناتة فهى كتلة من البربر البتر بفروعها مثل مغراوة وبنى يفرن التى كانت تحكم المغرب من قبل ، وقد اصطنعها المرابطون بعد اخضاعها (٢).

كذلك يفهم من كلام ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة، أن طائفة الحشم هى جماعة من الأتباع الخارجين عن أصحاب السلطان من صنهاجة بوجه عام . وذلك حينما اشتكى من سوء أفعالهم بالأندلس فى قوله : «يجب ألا يتلثم إلا صنهاجى أو لمتونى أو لمطى ، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يتلثم ، يلثمون على الناس فيهيبونهم ويأتون ألوانا من الفجور كثيرة بسبب اللثام» ، ثم أوصى بألا يلثّم الحشم والعبيد حتى لا يحسبهم الناس نبلاء فيخدعون » (٣) .

أما مؤرخو الدولة الموحدية أمثال ابن القطان والبيذق ، فيطلقون كلمة الحشم على المرابطين بوجه عام ، فيقول ابن القطان : وسموا – أى المرابطون

---

(١) الحلل الموشية ص٢١-٢٢ .

(٢) عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ص ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

(٣) رسالة ابن عبدون فى الحسبة ص ٢١٨ (نشر ليفى بروفنسال) .

- بالحشم للثامهم كما يفعل النساء المتحشمات ، فيقولون تاشفين بن على الحشمى ، وينتان بن على الحشمى ، وهما من أبناء أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين (١) .

ويقول البيذق فى وصف أحد قواد المرابطين اسمه الجيانى : «وكان الجيانى له حظ عظيم حتى لم يكن فى زمن الحشم أحظُ منه » (٢).

مثال آخر يرويه صاحب روض القرطاس ، وأغلب الظن أنه نقله من أحد مؤرخى الموحدين ، يقول : « فخرجوا - أى الموحدون - قاصدين إلى مدينة أغمات، فاتصل خبرهم بأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، فبعث لقتالهم جيشاً من الحشم ، وقدّم عليهم الأحول ، وكان له النظر على لمتونة ، فهزِم جيش على بن يوسف ، وقتل الأحول ، واستمرت الهزيمة على لمتونة ، واتبعهم الموحدون بالسيف » (٣).

واضح من النصوص السابقة أن الموحدين أرادوا الإساءة إلى المرابطين فأطلقوا عليهم اسم الحشم وفسروه تفسيراً يسىء إليهم وهو تشبيههم بالنساء المحتشمات الملثمات . وفى هذا المعنى الذى يلتبس فيه شكل الرجل مع المرأة ، يروى الغبرينى أن بنى غانية المرابطين حكام جزر البليار ، لما هاجموا مدينة بجاية الجزائرية فى صلاة جمعة سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، لجأوا إلى إكراه قاضيها أبى على حسن المسيلى على مبايعتهم ، وكانوا يتلثمون ، فأجابهم قائلاً نحن لا نبايع من لا نعرف هل هو رجل أم امرأة !! فكشف له الميورقى (ابن غانية) عن وجهه » (٤).

٣- العرب : وهم عناصر محدودة تتكوّن من العناصر العربية التى استوطنت المغرب من قديم ولا سيما فى فاس وطنجة وسبتة على عهد

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ١٨١ - ١٨٢ نشر محمود مكى .

(٢) البيذق : أخبار المهدى ص ٦٥ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٢٢ .

(٤) الغبرينى : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ص ٦٨ ، تحقيق رابح بونار (الجزائر) .

الأدارسة . أما قبائل العرب الهلالية (١١م) ، فإنها لم تكن قد وصلت بعد إلى المغرب الأقصى في عهد المرابطين . وسوف يكون لهم دور بارز بعد ذلك فى أحداث المغرب والأندلس على عهد الموحدين وبنى مرين أو بنى عبد الحق ، ومع ذلك فإن هناك من يرجح أن طائفة من عرب افريقية الهلالية جازوا إلى الأندلس برسم الجهاد وخاضوا مع جيوش المرابطين معارك عديدة فى حروبهم مع الأسبان .

يقول أبو مروان بن الكردبوس : « وفى سنة تسعين وأربعمائة (١٠٩٧م) ، جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس الجواز الثالث ، وجرد عسكراً جراراً من مرابطين وغرب وأندلس الشرق والغرب ، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج ، فالتقوا بكنشرّة Consuegra ، من أعمال طليطلة وفى جنوبها الشرقى ، فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين وولوا مدبرين » (١).

كذلك يرد ذكر اشتراك العربان فى موقعة اقليش Uclés شرقى طليطلة سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م التى انتهت بانتصار الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين على جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة ، وبمصرع ابنه الوحيد وولى عهده دون سانشو (شانجة) . وقد نبه على ذلك الدكتور حسين مؤنس فى معرض التعليق على ما ورد فى رسالة ابن شرف حول فتح اقليش عن بلاء الفرسان العرب في تلك الموقعة (٢) . وكذلك الدكتور محمود مكي عند نشره لأحداث هذه الموقعة كما وردت فى كتاب نظم الجمان (٣) .

٤- **العبيد السود** : اعتمد المرابطون فى جيوشهم على العبيد السود من رقيق السودان الغربى . ويبدو أنهم فى بادئ الأمر كانوا بمثابة الحرس

---

(١) أحمد مختار العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ص ١٠٧ (مدريد ١٩٧١) .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، ديسمبر سنة ١٩٤٩ ص ١٢٩ حاشية ٢ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ٩-١٠ حاشية ١ .

الخاص بالسلطان ثم توسعت الدولة فى استخدامهم بعد ذلك . يروى صاحب الحلل الموشية أن يوسف بن تاشفين اشترى جملة منهم بلغ عددهم نحو ألفين، وأركبهم فرساناً ، فغلظ حجابه » (١).

ويضيف المقرى أنه فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ، أمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حشمه السودان ، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان . وتلاحق الأذفونش (الفونسو السادس) بأسود نفذت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود وقبض على عنانه ، وانتضى جنجراً كان متمنطقاً به فأثبته فى فخذه (فى رواية أخرى فى ركبته) فهتك حلق درعه ونفذ من فخذه ، طعنة بقى الطاغية - يخنع بها بقية عمره (٢) .

واستمر هذا العنصر الزنجي يتردد ذكره فى حروب المرابطين حتى نهاية دولتهم ، بل أن بعض الأماكن الجغرافية حول العاصمة مراكش تسمت باسمهم مثل « كدية العبيد » على ربوة بالقرب من وادى تانسيفت (٣) .

٥- **النصارى** : استعان المرابطون بعناصر مسيحية أسبانية أطلقوا عليها اسم الروم والإفرنج والعلوج . ولقد أشاد ابن خلدون بطريقة هؤلاء الجنود فى القتال التى تقوم على الثبات فى الزحف صفوفاً . وهى فى رأيه أوثق وأشد من طريقة الكر والفر السائدة بين العرب والبربر والتى تكون عرضة للإجفال والهزيمة ولهذا كان جنود الإفرنج فى زحفهم وثباتهم بمثابة قلعة ثابتة حول السلطان فى قلب الجيش . ويضيف ابن خلدون أن ملوك المغرب استعانوا بهذه العناصر المسيحية الأسبانية ضد الخارجين عن الطاعة فى دولتهم من العرب والبربر . أما فى حالة الجهاد فى دار الحرب بأسبانيا فلا يستعينون بهم حذراً من ممالأتهم على المسلمين (٤) .

---

(١) الحلل الموشية ص ١٤ .
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠٠ -١٠١ طبعة محيى الدين عبد الحميد .
(٣) انظر :
(Gaston Deverdun : Marrakech des origines a 1912 , P. 4 , Rabat 1959).
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٤ .

ويروى صاحب الحلل الموشية أن بداية استخدام هؤلاء الروم فى دولةالمرابطين كان على شكل حرس مملوكى خاص بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى بعث إلى الأندلس سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م ، فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارساً شراء ماله (١) . ثم جاء ابنه على بن يوسف بن تاشفين فتوسع فى استخدامهم كجنود مرتزقة، فأركبهم وقدمهم على جباية المغارم وفى الأغراض الحربية بوجه عام (٢) .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا الصدد إلى القائد الأسبانى المسيحى المسمى رويرتير Reverter(٣) كان فى الأصل من نبلاء برشلونة ، ثم أسره أمير البحر على بن ميمون وأرسله إلى مراكش حيث رحب به السلطان على بن يوسف بن تاشفين وعينه قائداً على الفرقة الأسبانية فى المغرب . واستمر هذا القائد يحارب فى جيش المرابطين إلى أن قتله الموحدون فى إحدى المعارك عند تلمسان سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥ م . وكان لهذا القائد ابن نشأ مسلماً وعرف باسم أبى الحسن على بن الربرتير . وقد دخل فى طاعة الموحدين وصار من كبار قوادهم ، ولعب دوراً هاماً فى انتزاع جزيرة ميورقة من أيدى بنى غانية المرابطين على عهد يعقوب المنصور الموحدى ثم استشهد فى معركة عند بلدة عمرة بنواحى قفصة بافريقية على يد ابن غانية وحلفائه من الغز والعرب سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م(٤) .

واستمر هؤلاء الجنود الأسبان يتمتعون بثقة المرابطين لدرجة أنهم (أى المرابطون) استعانوا بهم فى بناء القلاع التى أقاموها على سفوح جبال أطلس

---

(١) الحلل الموشية ص ١٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٩ .

(٣) ورد اسمه محرفاً فى بعض المصادر مثل الإيرتير والزبرتين والدبرتير والريرتير .

(٤) حول أخبار الربرتير وابنه أبى الحسن على ، راجع تعليف ليفى بروفنسال فى ترجمته لكتاب أخبار المهد للبيذق تحت عنوان :

Levi Provençal : Documents Inedits D'Hist. Almohade P. 139 note I, Pars 1928).

لصد غارات المصامدة (أى الموحدين) كما ولوهم حراسة أحد أبواب العاصمة مراكش عند هجوم الموحدين عليهم . ولكن يبدو أن اخلاص هذه الفرقة للمرابطين لم يستمر حتى النهاية بدليل أنهم تواطأوا مع الجيش المهاجم سراً . وفى ذلك يقول صاحب الحلل الموشية : « ولما أراد الله فتحها (أى مدينة مراكش) داخل جيش الروم الذين كانوا بداخلها عبد المؤمن بن على ، واستأمنوه فأمنهم ، واتفقوا معه على أن يدخلوه من الباب المعروف بباب أغمات (سنة ٥٤١هـ / ١١٤٧م) (١) .

٦- **الأندلسيون** : يضاف إلى العناصر السابقة ، جيش أهل الأندلس بأعلامه الحمراء ذات الصور ، وفرقه المختلفة القادمة من المدن والكور والأقاليم الأندلسية حسب التقسيم الإدارى الذى وضعه المرابطون للأندلس ويتكون من ثلاث مناطق إدارية كبيرة وهى : الشرق والغرب والموسطة (٢) .

رابعًا : أجور المحاربين :

كانت أجور المحاربين تجمع بين الاقطاع العسكرى ، والراتب الشهرى ، وقد أشار الطوطوشى - كما أسلفنا - إلى أن المرابطين أعادوا نظام الإقطاع العسكرى فى الأندلس بعد أن كان المنصور بن أبى عامر قد ألغاه ، وذلك فى قوله :

« مازال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ، وأمر العدو فى ضعف وانتقاص ، لما كانت الأرض مقطعة فى أيدى الأجناد ، فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربى التاجر تجارته . وكانت الأرض عامرة والأموالة وافرة ، والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما تحتاج إليه، إلى أن كان الأمر فى آخر أيام ابن أبى عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدّم عليها جباة يجبونها ، فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم ،

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٢) حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد المجلد الثانى سنة ١٩٥٤ ، ص ٧٣ .

واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا من العمارة، فقلّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضعفت الأجناد وقوى العدو على بلاد المسلين حتى أخذ الكثير منها. ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور إلى أن دخلها المتلثمون (أى المرابطون) فردوا الاقطاعات كما كانت فى الزمان القديم ، ولا أدرى ما يكون وراء ذلك »[1] .

ولعل صاحب الحلل الموشية قد أيد هذا الكلام حينما قال :

« وكان ترتيبهم (أى المرابطون) فى الأندلس ، أنهم لا يزيدون فارسًا على خمسة دنانير للشهر شيئًا ، مع نفقته وعلف فرسه ، فمن ظهرت نجدته وإعانته وشجاعته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده»[2] .

وتجدر الإشارة هنا إلى حالة الرخاء الاقتصادى التى سادت المغرب والأندلس فى عهد المرابطين خصوصاً بعد سيطرتهم على مراكز تجارة الذهب مثل سجلماسة [3] وأوداغشت ، وطرق القوافل والمسالك الغربية المؤدية إلى ذهب السنغال والسودان الغربى . ولهذا استفاد المرابطون من فيضان الذهب المار عبر هذه المسالك الصحراوية الغربية . ولعل أبلغ دليل على ذلك ، تلك الشهرة العالمية والسمعة الاقتصادية التى تمتع بها الدينار الذهبى المرابطى [4]،

---

(١) أبو بكر الطوطوشى : سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢) الحلل الموشية : ص ٦٧ .

(٣) ولاية سجلماسة مكانها اليوم تافيلالت فى جنوب المغرب الأقصى ، أما القاعدة مدينة سجلماسة فهى اليوم قرب مدينة الريسانى . ولعل الأطلال الموجودة هناك والتى يسميها العامة بالمدينة العامرة ، هى أطلال هذه المدينة التاريخية سجلماسة التى ينسب إليها الدينار السلجماسى الذى كان سائداً فى الأندلس فى العصر الأموى والذى صار الدينار المرابطى استمراراً له بعد ذلك . راجع ما كتبه بن حوقل والبكرى وابن عذارى عن سجلماسة .

(٤) يصف المؤرخ الغرناطى ابن الخطيب الدينار المرابطى بقوله : وكان درهمه فضة وديناره تبر محض ، فى إحدى صفحتيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحت ذلك « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، وفى الدائرة : « ومن يبتغى غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . وفى الصفحة الأخرى : الإمام عبد الله أمير المؤمنين » . (ويقصد به الخليفة العباسى)، وفى الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة . راجع (ابن الخطيب : الإحاطة فى تاريخ غرناطة لوحة ٣٩٣ نسخة الاسكوريال) .

وكان يعرف باسمهم Marabotin ، حتى غدت دول العالم الاسلامى والمسيحى تتنازع عليه. وكل هذا من غير شك ساعد على الانفاق والتسلح والازدهار الحضارى[١] .

خامساً : التحصينات العسكرية :

تأثرت دولة المرابطين بالبيئة الصحراوية التى نشأت فيها ،ونلحظ هذا التأثير فى كثرة اعتمادهم على الجمال بدلاً من الخيول ، وكثرة استخدامهم للعبيد السود من مشتروات غانا وغينيا بالسودان الغربى المجاور لها . كذلك نلحظ هذا التأثير فى اهتمامها بإنشاء القلاع والحصون ، لأن الصحراء المنبسطة تستلزم إقامة مثل هذه الاستحكامات الدفاعية لصد غارات المغيرين . وقد عرفت هذه الحصون باسم « تاجرارت » أو « تاقررت » ومعناها بلسان البربر المحلة أو المعسكر أو المجتمع[٢] . ومن المعروف أن النواة الأولى لكل من مدينتى تلمسان فى الجزائر ، ومكناسة فى المغرب الأقصى كانت حصناً من هذه الحصون التى بناها المرابطون باسم تاجررت[٣] .

وحينما هاجم يوسف بن تاشفين بلاد غمارة بجبال الريف فى شمال المغرب ، استعان فى مهاجمتها بحصون وقلاع شيدها فى مواجهتها مثل

---

(١) راجع (موريس لمبار : الذهب الاسلامى منذ القرن السابع إلى الحادى عشر الميلادى ص ٦٣ ، ترجمة توفيق اسكندر (القاهرة ١٩٦١) ؛ وكذلك أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٨٦ ترجمة أحمد محمد عيسى .

(٢) محمد بن غازى المكناسى : الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ص ٦ (الرباط ١٩٥٢) .

(٣) يقول الإدريسى : ومدينة مكناسة هى المسماة بتاقررت ، وهى مدينة حسنة مرتفعة على الأرض ، يجرى فى شرقها نهر صغير عليه أرحاء وتتصل بها عمارات وجنات وزروع وأرضها طيبة (الادريسى : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ص ٥١-٥٢ ، نشرهنرى بيرس ، الجزائر ١٩٥٧) وحينما استولى يوسف بن تاشفين على مدينة تلمسان أسس بجوارها مدينة عسكرية أسماها تاجررت ، ولم تلبث المدينتان أن اندمجتا وأصبحتا تلمسان . راجع :

(Ency . of Islam art Tlemecen by Alfred Bel) .

حصن تاودا أو توده ، وحصن أمرجو Amergo الذى استخدمت فيه الأبراج المستديرة . وقد أشاد المؤرخون بمناعة تلك الحصون ، وبالدور الهام الذى قامت به فى فتح هذه البلاد وتطهيرها من العبث والفساد المنتشر فيها ومثال ذلك قول صاحب الاستبصار :

وكانت تاودا مدينة كبيرة أسسها الملثمون ليتمكنوا منها جبل غمارة ، وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر . وكانت فى أيامهم معمورة بالمبانى الحسان والقصور المنيعة ، وهى على وادى ورغة ، وعليها جبل منيف فيه حصن كبير من بناء الملثمين يسمى أمرجو وهو مبنى بالحجارة والجير ، ولا يقدر أحد على هدم شىء منه إلا بالمشقة (١).

ومازالت أطلال مدينة تودا باقية إلى اليوم شمالى فاس بنحو تسعين كيلومتراً فى طريق وزان وتعرف الآن بقلعة فاس البالى ، وقد تهدمت فى عصر السعديين(٢) .

كذلك يلاحظ أن بناء مدينة مراكُش أو مرُوكش(٣)سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م ، عاصمة للمرابطين على يد أميرهم أبى بكر بن عمر اللمتونى عند سفح جبال أطلس ، كان فى بداية الأمر يهدف إلى هذا الغرض الدفاعى وهو حماية جيوش الدولة وأموالها وسلاحها من غارات قبائل المصامدة الضارية فى جبال أطلس . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « وجعل يوسف بن تاشفين مدينة

---

(١) كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول ص ١٩٠ نشر سعد زغلول .

(٢) الصديق بن العربى : كتاب المغرب ص١١٩ ، عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ٢ ص ٥٤ وكذلك :

(Henri Terrasse : Histoire du Maroc , I, P. 248-249) & Le Guide Blue : Maroc P. 396).

(٣) ورد اسم مراكش فى صيغة مروكش على لسان الأمير عبد الله به زيرى الصنهاجى أمير غرناطة فى عصر الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (١١م) راجع مذكرته التى نشرها ليفى روفنسال فى مجموعة ذخائر العرب ص ١٢٥ ، ١٦١ . وهذه الرواية إن صحت انه يكون اسمها مروكش أيام المرابطين ، فإن التسمية الأسبانية التى نقلت عنها تكون مطابقة : Marruecos .

مراكش لعسكره ، وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة (المقيمة) بمواطنهم بها في جبل درن[1] (أطلس) . ولهذا كانت مدينة مراكش منذ تأسيسها بمثابة قلعة عسكرية غير صالحة للسكنى ، وقد بنى فيها الأمير أبو بكر بن عمر بن قصر الحجر أو دار الحجر وهى تعنى عند العرب من قديم القلعة أو القصبة أو المدينة الحصينة . ويلاحظ أن مدينة مراكش فى البداية ، اقتصر سورها على القصبة والمسجد فقط إلى أن جاء على بن يوسف بن تاشفين فأمر بتسوير المدينة كلها سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م بناء على نصيحة الفقيه الأندلسى أبى الوليد بن رشد (الجد)[2].

لهذه الأسباب السابقة ، بقيت مدينة أغمات المجاورة لها ، حاضرة لهذا الحوز الجنوبى مدة زمنية لما كانت تتمتع به من أسباب الرخاء والاستقرار الحضارى . ولكن مع مضى الوقت انقلبت الآية ، وأخذت مراكش فى الازدهار والعمران فى عهدى المرابطين والموحدين على حساب أغمات التى صارت فى النهاية قرية خاملة .

وما يُقال عن بناء العاصمة مراكش ، يقال أيضاً عن سلسلة الحصون والقلاع التى شيدها المرابطون جنوباً على سفوح جبال أطلس الكبير لمراقبة تحركات المصامدة الموحدين وصد غاراتهم . ولقد أفرد المؤرخ الموحدى المعاصر أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق فصلاً خاصاً عن هذه الحصون وأسمائها وأسماء من كان فيها من مدافعين ، ونهايتهم المحتومة [3].

---

(١) سبقت الإشارة إلى أن جبال درن بلسان البربر تعنى ملك الجبال لعلوها وضخامتها ومن الطريف أن ملك اشبيلية المخلوع المعتمد بن عباد لما نفاه المرابطون إلى أغمات على سفح جبال درن هجاها بقوله :

هذى جبالُ دَرَنِ وكم بها مِن دَرَنِ
فليتنى لم أرَهَا وليتها لم ترَنى !

(٢) الاستبصار ص ٢٠٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٦ ، حمدى عبد المنعم حسين: تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين ص ٣٧٣ .

(٣) البيذق : كتاب أخبار المهدى ابن تومرت نشر وترجمة ليفى بروفنسال ص ١٢٨ – ١٣١ ، والترجمة الفرنسية ص ٢١٨ – ٢٢١ .

ولم يتـردد المرابطون فى الاسـتـعـانة بالأنـدلسـيين لبناء هذه القـلاع والحصون لخبرتهم فى هذا المجال مثال ذلك ما رواه صاحب الحلل الموشية من أنه حينما استقر المهدى بن تومرت وأصحابه فى قلعة تينملل بقلب جبال أطلس ، كان يوجد بمدنية مراكش رجل من أصل أندلسى يعرف بالفلك أو الفلكى الأندلسى ، وكان فاتكاً شهماً قاطع سبيل ، فعفا عنه سلطان المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ، وسد به ثغور مراكش . فأول ما صنع له حصوناً ضبط بها أنقاب (مسالك) جبل درن (أطلس) الذى يتوقع بسببها الخوف من نزولهم (أى الموحدين أو المصامدة) إلى البسائط ، فمنعهم من الهبوط عليها (١).

ولم تقتصر أعمال المرابطين الدفاعية على المناطق الجبلية ، بل شلمت أيضاً المناطق الساحلية ، ويكفى أن نشير إلى سلسلة الرباطات والمحارس والقلاع التى انتشرت فى أيامهم على طول السواحل المغربية . ولعل من أهمها ذلك المحرس أو الطالع(٢) العظيم الذى بنوه فى مدينة سبتة ليشرف على كل حركة فى مضيق جبل طارق ، وقد شرح أهميته محمد بن القاسم الأنصارى السبتى (ق ٩هـ/١٥م) بقوله :

«ومنها الطالع الكبير الفذ النظير ، طالع سبتة الذى بأعلى جبل مينائها المعروف عندنا بالناظور . ابتناه المرابطون هنالك للناظر الراتب ، به حصناً وبه قلهرة كبيرة(٣) ، وبداخل القلهرة مسجد ، وكان ذلك على يد القاضى أبى

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٣ ويفهم من كلام ابن القطان (نظم الجمان ص ٨٥) أن هذا الفلكى اعتنق بعد ذلك مبادئ التوحيد وانضم إلى الموحدين فى عهد الخليفة عبد المؤمن بن على .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن الطالع والطلائع بمعنى الحارس الأمامية قد انتقلت إلى الأسبانية باسم Atalayas .

(٣) يروى دوزى نقلاً عن سيمونيت الأسبانى أن قلهرة من أصل بشكنسى وتتكون من كلمتين الأولى Cala بمعنى قصر والثانية Gorri بمعنى الأحمر أى القصر الأحمر . كذلك من معانيها القلعة أو برج القلعة .

(Dozy : Supplement aux Dictionnairs Arabes , II, P. 401) .

الفضل عياض(١) . وهذا الطالع من أعجب الطلائع لكونه يكشف البرين ، ويشرف على العدوتين إلى بادس من بر الريف ، ومن مالقة شرقًا وإلى ما وراء طريف غرباً ، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفى حكم أهلها ، إذا تقع فتنة أو يحصل حصار »(٢) .

كذلك يشير صاحب الحلل الموشية إلى القصبة المنيعة التى بناها أمير المسلمين تاشفين بن على فى الرباط عندما احتل الموحدون مدينة سلا المجاورة (٣). وأغلب الظن أن هذه القصبة كانت مكان قصبة الوداية الحالية فى العاصمة المغربية .

هذا ، ولم تقتصر أعمال المرابطين الدفاعية على المغرب فحسب ، بل شملت أيضاً بلاد الأندلس ، باعتبارها جزءاً من دولتهم . يروى ابن عذارى أن الفقيه أبا الواليد بن رشد قاضى قرطبة وجدّ الفيلسوف ابن رشد المعروف ، سافر إلى العاصمة مراكش وتحدث مع السلطان على بن يوسف بن تاشفين حول تجديد وترميم الحصون والأسوار المحيطة بالمدن الأندلسية الكبرى لمقاومة الغزو الأسبانى(٤) ، وأن السلطان اهتم بهذه المسألة وأمر عماله فى الأندلس باصلاح الحصون والأسوار التى حول المدن الرئيسية . كما فرض ضريبة جديدة على أهل الأندلس سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م تحت اسم « التعتيب » وكان الغرض منها تعتيب المدن أى بناء أسوارها وترميم حصونها ، ويقوم

---

(١) هو القاضى المعروف فى عصر المرابطين عياض بن موسى اليحصبى السبتى (توفى سنة ٥٤٤هـ) صاحب المؤلفات الجليلة فى الدين واللغة والنحو والأنساب ومن أهمها الشفاء ، ومشارق الأنوار ، والمدارك وغيرها وقد كتب المقرى له كتاباً بعنوان « أزهار الرياض فى أخبار القاض عياض » .

(٢) محمد بن القاسم الأنصارى السبتى : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار (نشر ليفى بروفنسال ، مجلة هسبريس سنة ١٩٣١ جـ ١٢ ص ١٥٠) .

(٣) الحلل الموشية ص ١١٢ .

(٤) فى خلال هذه الفترة كان ملك أراجون الفونسو الأول المحارب قد قام بحملة على الأراضى الشرقية الأندلسية سنة ١١٢٥ دامت أكثر من سنة ولم تجد مقاومة جدية . ولعل هذه الزيارة جاءت بسبب ذلك :

Aguado Bleye P. 630 Hist. Esp.

بسدادها أهل هذه المدن المنتفعة بها (١). ويبدو أن هذه الضريبة أو أتاوة الدار ، ظل معمولاً بها حتى أواخر الحكم الاسلامى فى الأندلس ، وهى وإن كانت خارجة عن الضرائب الشرعية ، إلا أن فقهاء الأندلس أجازوها لأن المصلحة تقضى بذلك ، بدليل قولهم :

« وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت على أهل الموضع ، وقد أجاز ذلك الفقيه أبو اسحاق الشاطبى(٢) معتمداً على قيام المصلحة التى إن لم يقم بها الناس فيعطون ، ضاعت عليهم»(٣).

ولقد حاول المرابطون منذ دخولهم الأندلس استرجاع قواعد الثغر الأدنى وعلى رأسها مدينة طليطلة التى احتلها الأسبان سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، ونجحوا فى عهد السلطان على بن يوسف بن تاشفين استرداد قلعة اقليش Ucles فى شرق طليطلة سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م بعد معركة ضارية قتل فيها دون سانشو (شانجة) الابن الوحيد للملك الفونسو السادس ومعه كبار قواده السبعة . ثم نجح المرابطون فى العام التالى سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م فى الاستيلاء على قلعة طلبيرة Talavera فى غرب طليطلة بقيادة السلطان على بن يوسف نفسه ، محاولين بذلك تطويق العاصمة طليطلة والاستيلاء عليها . وعلى الرغم من الحملات الشديدة التى شنها المرابطون على طليطلة وأحوازها ، إلا أنهم لم يتمكنوا من استردادها لارتفاع موقعهاوحصانة أسوارها والتفاف نهو التاجو

---

(١) أويثى ميراندا : على بن يوسف وأعماله فى الأندلس ، مجلة تطوان سنة ١٩٥٨ ص ١٧٣ وما بعدها .

(٢) هو ابو اسحاق ابراهيم الشاطبى ويقال له أيضاً الغرناطى وكان عالماً بالزصول والفقه والتفسير واللغة وتوفى فى غرناطة سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م (ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال جـ ١ ص ٩٧ رقم ٢٣٦) .

(٣) تحدث الحميرى (الروض المعطار نشر وترجمة ايڤى بروڤنسال) أثناء وصفه لمدينة المرية عن ضريبة التعتيب التى كانت تجبى منها ومقدارها . وقد ورد ذلك فى الترجمة الفرنسية ص ٢٢٣ بينما لا نجد له ذكراً فى الأصل العربى ص ١٨٤ !! راجع كذلك (أحمد بابا التمبكتى : نيل الابتهاج ص ٤٩-٥٠ ،

(López Ortiz : Fatwas & Granandinas de los siglos XIV, XV, Al Andalus, Vol. VI fasc. I, 1941)

حولها واستماتة أهلها فى الدفاع عنها . واضطر المرابطون إلى الانسحاب عنها، ولكنهم تركوا حولها حصوناً منيعة ظلت شوكة فى جنبها مثل حصن قاصرش Caceres وحصن ترجالة Turjillo اللذين وصفهما الجغرافى المعاصر الشريف الادريسى (ت سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م) بقوله :

« ومدينة قاصرش حصن منيع ومحرس رفيع ، فيه خيل ورجال يغاورون فى بلاد الروم وترجالة كبيرة كالحصن المنيع وأسوار عالية وخيل ورجال يقطعون أعمارهم فى الغارات على بلاد الروم » (١).

أما منطقة الثغر الأعلى سرقسطة Zaragoza فى شمال شرق أسبانيا ، فقد حرص المرابطون على تركها مستقلة فى يد ملوكها بنى هود الجذاميين الأندلسيين ليكونوا حائلاً بينهم وبين العدو فى الشمال . ولكونهم أيضًا أخبر بأحوال هذه المنطقة ، وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات ، فضلاً عن مناعة وقوة حصونها مثل حصن روطة Rueda الذى وصفه ابن الكردبوس بأنه معقل على مقربة من سرقسطة مساو لأعنان السماء ، وفى غاية المنعة والارتقاء ، كان المستعين بن هود قد أعده وبناه ، وبالأقوات والسلاح قد شحنه، وحفر فيه إلى الوادى سرباً أتقنه ، أدراجه تنيف على الأربعمائة درج ، فما يقطع له شرب ولا منهج ...»(٢).

ولهذا حرص المرابطون على مساعدة بنى هود والإحسان إليهم . فكانوا متى وصلتهم خيل من العدوة المغربية ، بعثوا بها إلى أهل هذه الثغور . وكانت وصية يوسف بن تاشفين لإبنه وولى عهده أبى الحسن على يوسف ، أن يهادن بنى هود ، وأن يتركهم حائلاً بينهم وبين الروم(٣) .

غير أن هذه السياسة لم تلبث أن تغيرت وعلى يد السلطان أبى الحسن على بن يوسف نفسه الذى اضطر إلى احتلال سرقسطة سنة ٥٠٣هـ/١١١٠م

---

(١) الإدريسى : نزهة المشتاق ، نشر دى خويه ص ١٨٧ (ليون سنة ١٨٦٦) .

(٢) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ص ١١٩-١٢٠ ، نشر أحمد مختار العبادى (مدريد ١٩٧١) .

(٣) الحلل الموشية : ص ٦٧ .

بعد مصرع أميرها المستعين بن هود فى معركة بلتيرة Valtierra أمام الفونسو الأول الملقب بالمحارب El Batallador ملك أراجون ، وفرار ولده عبد الملك عماد الدولة إلى حصن روطة المنيع بعد ثورة الأهالى ضده واستنجادهم بالمرابطين .

كان احتلال المرابطين لسرقسطة ، بداية لمتاعبهم فى هذه الجبهة الشمالية الشرقية ، إذ كان عليهم أن يحاربوا ضد ملك قطالونيا ، إلى جانب عدد كبير من المتطوعين الفرنسيين والانجليز وسكان الجبال المعروفين باسم Almogavares أى المغاورين وهم فرق خفيفة من المشاة احترفوا فن الإغارة على أعدائهم واكتسبوا شعبية كبيرة فى أسبانيا وأوروبا فاقوا فيها شهرة فرق الفرسان ولم يلبث اسم Almogavares أن صار اسماً علماً لهم أى المغاورون .

ولقد انتهى الأمر بسقوط سرقسطة وانهيار مملكة الثغر الأعلى سنة ٥١٢هـ/١١١٨م . وكان لهذه الكارثة أثر كبير فى نهاية دولة المرابطين وسقوطها عقب ذلك بوقت قصير .

سادساً : أسلحة المرابطين وطريقة قتالهم :

أشاد المؤرخون بشجاعة الملثمين فى القتال ، وبقوة ضربات سيوفهم عند الالتحام فقال ابن خلكان : وكان قد ظهر لأبطال الملثمين فى المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس ، وطعنات تنظم(١) الكلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب فى قلوب المتدبين لقتالهم »(٢) . ويصف المؤرخ المعاصر أبو عبيد البكرى طريقة قتالهم فى الصحراء بقوله : « ولهم فى قتالهم شدة وبأس وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب(٣) ، وأكثر قتالهم رجّالة

---

(١) انتظم الصيد : طعنه أو رماه حتى ينفذه .

(٢) ابن خلكان (ت سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م) : وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١١٣ ترجمة رقم ٨٤٤ .

(٣) وردت فى الحلل الموشية ص ١١ : وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل .

صفوفاً (١)، يكون بأيدى الصف الأول القنا الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد عدة يزرقها فلا يكاد ، يخطئ ولا يشوى (٢). ولهم رجل قد قدّموه أمام الصفوف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعًا ، فكانوا فى ذلك أثبت من الهضاب ، ومن فرّ أمامهم لم يتبعوه ، (٣).

ولا شك أن هذه الطريقة الصحراوية التى وصفها البكرى فى بداية عهدهم (٤) ، لم تلبث أن تعدلت وتطورت بعد عبور المرابطين إلى الأندلس والتحامهم مع الأسبان ، فلجأوا إلى تغييرها عندما دعت الحاجة إلى ذلك . ومن أمثلة ذلك ما حدث فى موقعة الزلاقة عندما وجد يوسف بن تاشفين أن خيول العدو المدرعة لا يؤثر فيها السلاح ، أمر العبيد فترجلوا عن الخيل فى نحو الألف ودخلوا المعترك بالمزارق كى يتمكنوا من طعن الخيل فى الأماكن الغير مدرعة من أجسامها ، وبذلك أثرت فيها بالطعن ، فجعلت ترمح بفرسانها(٥).

وهناك موقف مشابه تعرض له السلطان على بن يوسف بن تاشفين حينما حاصره الموحدون بمدينة مراكش ، وكان فى ضيافته فارس مشهورٌ من أصحابه الأندلسيين وهو القائد أبو محمد ابراهيم بن همشك ومعه مائة فارس من اصحابه الاندلسيين . فعمّ الخوف والهرج فى أنحاء المدينة ، وقتل من الازدحام على الأبواب خلق كثير ، واستمر الحصار أربعين يوماً . فسأل ابن همشك السلطان عن جدوى المقام تحت هذا الحصار !؟ فضحك أمير

---

(١) فى الحلل الموشية ص ١١ : وكان معظم قتالهم مرتجلين يقفون على أقدامهم صفًا بعد صف .

(٢) أشوى السهم : أخطأ الغرض .

(٣) البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٦٦ نشر دى بلان (الجزائر ١٩١١) .

(٤) يلاحظ أن البكرى أنهى كتابه المذكور آنفًا فى سنة ٤٦٠هـ أى وقت قيام دولة المرابطين فى المغرب ، وقبل عبورها إلى أسبانيا بنحو ١٩ سنة . فهذا الوصف الذى أورده ينطبق على طريقتهم فى القتال فى ذلك الوقت المبكر .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام – القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب – ص ٢٤٣ نشر أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتابى (الدار البيضاء ١٨٦٤) .

المسلمين من قوله وقال : أبو محمد يحسب أن قتال المصامدة مثل قتال الروم ! فقال له : يا أمير المسلمين ، قد كان عندى ببلاد الأندلس جماعة منهم ، نعلم خفتهم وشجاعتهم وتسارعهم للقتال ، ولكن المقام هكذا ليس بصواب ، فالفرسان والرماة عندكم كثيرون ، والكل غير نافع ، إذ ينظر بعضهم بعضاً ، وإنما يصنع ذلك مع القلة ، أما مع الكثرة فلا . ثم طلب من السلطان أن يأذن له فى الخروج إليهم ، فأذن له ، فخرج ابن همشك بمن تجمع له من أصحابه الأندلسيين لقتال الموحدين ، فتعرف على أحوالهم وكيفية قتالهم ، فرأى لهم عوالى كثيرة الطول (أى رماحًا طويلة) ، عند ذلك أشار على أصحابه (المرابطين) أن يقصروا رماحهم وأن يردوها من ستة أذرع (أى يجعلوها أقل من ستة أذرع لتساعدهم على الإلتحام) . وخرج المرابطون بقيادة الشيخ أبى محمد بن وانودين وانتصروا على الموحدين انتصاراً ساحقًا وقتلوا قائدهم الشيخ أبا محمد البشير وذلك فى موقعة البحيرة بأحواز مراكش سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م(١) . هذه الرواية السابقة تبين كيف اضطر المرابطون إلى إجراء تعديل فنى فى بعض أسلحتهم القتالية التى اعتادوا عليها إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

كذلك استخدم المرابطون فى معاركهم طريقة التعبئة الخماسية المعروفة وهى :

المقدمة والقلب والجناحان ثم الساقة فى مؤخرة الجيش . ونجد ذلك بوضوح فى الوصف الذى أورده كل من ابن الخطيب وصاحب الحلل الموشية لطريقة القتال التى اتبعها الأمير تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين فى المعركة التى خاضها بقرب موضع الزلاقة فى غرب الأندلس سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م يقول :

« فكان فى القلب مع الأمير تاشفين وجوه المرابطين ، وأصحاب الطاعات والبنود البيض الباسقات ، مكتتبة بالآيات . وفى الجانبين الكفاة والحماة من أبطال الأندلسيين، وادمار المجاهدين ، عليهم حمر الرايات بالصور الهائلات .

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٤–٩٥.

وفى الجناحين أهل الثغر وذوو الجلادة والصبر ، وفى المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالرايات المصبغة والأعلام المنيفة ، فهزم الروم واستنقذ الأسرى»(١) .

ويلاحظ من الوصف السابق وغيره من النصوص أن المرابطين قد غالوا فى كثرة استخدام الرايات والبنود والأعلام المختلفة الألوان لإرهاب العدو وبث الرعب فى نفسه ، بدليل أن إمام الموحدين ابن تومرت كان كلما رآها حاول أن يستهين من شأنها ويقلل من تأثيرها ، فيسميها بالخرق ، ويصيح فى أصحابه : « لا تهولنكم هذه الخرق ! » (٢).

أما عن أسلحة المرابطين ، فكانت فى البداية أسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم الصحراوية البدوية مثل الرماح والمزاريق والسيوف ونوع من الخناجر المقوسة أو المعقوفة يطلقون عليها اسم الأطاس أو الطاس . ويبدو أن هذا السلاح الأخير لم يكن معروفاً لدى الأسبان بدليل أن الملك الفونسو السادس قد ظنه منجلاً حينما طعنه به فى فخذه أحد عبيد يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة إذ صاح قائلاً :

« ضربنى غلام أسود بمنجل أراق دمى » (٣).

كذلك استخدم المرابطون الدرق اللمطية الخفيفة الاستعمال فى تلقى ضربات العدو وسهامه . واللمط حيوان من فصيلة الظباء يعيش فى صحارى بلادهم بافريقيا . وقد ورد ما يفيد أن لمطة اسم مكان وقبيلة من قبائل صنهاجة عند السوس الأقصى قرب ساحل المحيط الأطلسى وقاعدتها نول لمطة (حالياً وادى نون) قال ابن حوقل : وهى معدن الدرق اللمطية ، ولا يوجد مثلها فى الدنيا » (٤).

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام – القسم الثالث الخاص بالمغرب – ص ٢٥٨ ؛ الحلل الموشية ص ١٠١ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٨ .

(٣) الحلل الموشية ص ٤٨ طبعة علوش وكذلك المخطوطة الأصلية رقم ٢٣٠٠ ورقة ٢١ (خزانة الرباط) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١٤ ترجمة يوسف بن تاشفين رقم ٨١٥ ؛=

ولا شك أن هذا النوع من الدرق قد عرفه الأندلسيون من قبل ، واستخدمه الأمويون في جيوشهم كما أسلفنا ، ولكن عن طريق استيراده من المغرب ، يؤيد ذلك ما روى من أن يوسف بن تاشفين حينما ردّ على خطاب المعتمد بن عباد بقبوله نجدته ، أرفق بخطابه درقاً لمطية مما لا يكون إلا فى بلاده (١) .

على أن المرابطين لم يكتفوا بهذه الأسلحة اليدوية الخفيفة ، بل عملوا على تطويرها ، واستخدام كل ما هو معروف وشائع من أسلحة هذا العصر ، فيروى صاحب الحلل الموشية أنه لما عزم يوسف بن تاشفين العبور إلى الأندلس ، أرسل وفداً إليها برسم شراء العدد وآلات الحروب ، فاشترى له منها الكثير ، وعرف ذلك العام بعام اقتناء العدد واتخاذ السلاح واختبار الرجال(٢) . وقد عرف عن الأندلسيين أنهم كانوا يتقنون صنع الأسلحة ولهم مصانع لهذا الغرض فى اشبيلية والمرية حيث يتوفر معدن الحديد .

كذلك كانوا يستوردون السلاح الجيد من أوروبا ولا سيما من فرنسا حيث اشتهرت مدينة بردال أو برديل (بالإمالة) (وهى بوردو الحالية عند مصب الجارون) بجودة سيوفها البردليات . وقد أشار المؤرخ الغرناطى ابن سعيد المغربى إلى شهرة هذه الأسلحة الفرنسية وإقبال الأندلسيين على شرائها (٣).

ومن الأسلحة الهامة التى اعتمد عليها المرابطون فى قتالهم الإبل والخيل. وقد سبقت الإشارة إلى أن المرابطين فى بداية عهدهم بالصحراء كان قتالهم على النجب أو الإبل أكثر من الخيل . صرح بذلك صاحب الحلل الموشية وأيده فى ذلك صاحب كتاب مشاهير أعيان فاس(٤) ، عند وصفه لهجوم المرابطين

- البيذق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ١٤٠ نشر عبد الحميد حاجيات ؛ وتروى الأساطير اليهودية أن النبى يونان (يونس) خرج من بطن الحوت ولجأ إلى مكان قريب من نول لمطه .

(١) ابن خلكان : نفس المصدر جـ ٦ ص ١١٣ ترجمة رقم ٨١٥ .

(٢) الحلل الموشية ص ٢٤ ، ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ٣٩٣ (نسخة الاسكوريال) .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٨ .

(٤) كتاب مشاهير أعيان فاس فى القديم لمؤلف مجهول ، نشر عبد القادر زمامة (مجلة -

على قبائل برغواطة فى جنوب غرب المغرب بقوله : إن المرابطين رابطوا على الجبال التى تليهم فى شمال الصحراء فى ثلاثين ألف جمل بخت [1] ، وقليل من الخيل ، وانهم دعوا البرغواطيين إلى دين الاسلام أو أداء الجزية ، فرفضوا ... فقاتلوهم وانهزم أهل بلاد السوس أتباع صالح بن طريف ، وسمى عبد الله بن ياسين أتباعه بالمرابطين من صبرهم ورباطهم عليهم . وفى موضع آخر يقول : إن يوسف بن تاشفين كان له من الجيوش مائة ألف نجيب[2] . وحينما دخل الموحدون مدينة مراكش عاصمة المرابطين ، غنموا من الجمال عدداً كثيراً قيل ثمانين ألفاً [3].

واضح من النصوص السابقة أن استخدام المرابطين لسلاح الأبّالة (أى الإبل) كان فى معارك المغرب والصحراء . وهذا شيء طبيعى ومعقول ومقبول فى نفس الوقت .

أما من جهة المعارك التى خاضها المرابطون فى أسبانيا ، فالوضع فيها يختلف لأن طبيعة أراضيها وطرق القتال فيها تحتم عليها استخدام الخيل بدلاً من الجمال ، ونجد ذلك واضحًا فى المصادر العربية والأسبانية التى تناولت وصف هذه المعارك ابتداء من الزلاقة فكلها تجمع على استخدامهم للخيل مثل قولهم : وركب يوسف بن تاشفين وأحدق به جياد خيله ورجله [4] ... فترجل العبيد عن الخيل [5] ... وأحدقت بهم الخيل . وقولهم : « ولما انفض الجيش عن الأمير تاشفين ، قدّم له سائسه فرسه لينجو عليه ، فانتهره وقال لا أسلم وأسلم الأمة » [6].

- البحث العلمى العدد الثالث – سبتمبر – ديسمبر ١٩٦٤) .

(١) البخت كلمة فارسية عربيها الحظ والمعنى هنا الجمال المحظوظة .

(٢) النجيب من الرجال الكريم ذو الحسب وكذلك تطليق النجيب على البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين والجمع نجب وانجاب ونجباء . ونجائب الإبل عتاقها التى يسابق عليها (لسان العرب لابن منظور) .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٢ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١٠١ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٤٣ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٥٩ (القسم الثالث الخاص بالمغرب) .

على أن هذا لا يمنع القول من أن المرابطين استخدموا الإبل كقوة عسكرية فى ميادين القتال لأغراض متعددة مثل إحاطة معسكراتهم بها كى تنفر خيل العدو من صوت رغائها ، وتجمح من رؤيتها . ومثل استخدامها فى حمل الأثقال والأمتعة والمعدات الحربية ، بالإضافة إلى شىء هام آخر وهو شرب لبنها الذى يعتبر الغذاء الرئيسى لأهل صنهاجة جميعًا . ولا صحة لقول ابن خلكان من أن عبور الجمال إلى الأندلس كان لأول مرة فى عهد يوسف بن تاشفين(١) . وقد سبق أن بيّنا فى الفصل السابق أن الأندلسيين عرفوا الجمال منذ وقت مبكر، واهتموا بتربيتها فى مراعى خاصة بشرق الأندلس ، واستخدموها فى نقل أثقالهم وأمتعتهم فى السلم والحرب .

ومن آلات الحرب التى استخدمها المرابطون وغالوا فى استعمالها ، آلات الطبول التى أكثروا من قرعها فى معاركهم لإرهاب العدو وإثارة خيوله ، وكذلك عند البشرى بخبر هام . وقد سبقت الإشارة إلى أن الأندلسيين فى العصر الأموى ، استخدموا الطبول والأبواق فى مواطن الحروب ، ولكن يبدو أن المرابطين قد بالغوا فى استخدامها بشكل أقوى من ذى قبل ، متأثرين فى ذلك بزنوج افريقيا بحكم الجوار والنشأة ، وقد يؤيد هذه العلاقة أن الطبل الكبير مازال يعرف فى المغرب باسم طبل جناوة أى الطبل المنسوب إلى غينيا Guinée (جنوب السنغال) يقول العمرى : « وكانت تحد افريقية جنوباً الصحراء بينها وبين بلاد جناوة المسكونة بأمم من السودان » (٢) .

وقد عبرت المصادر الأندلسية والمغربية عن هذه الظاهرة عند وصفها للقاء المرابطين والأسبان فى موقعة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) ، فالمقرى يصف جيش المرابطين بقوله :

« وركب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ،وأحدق به جياد خيله ورَجْله

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١٥ رقم ٨١٥ وقد نقل المقرى هذه الرواية (نفح الطيب جـ ٦ ص ٩٤) .

(٢) ابن فضل الله العمرى (ت سنة ٧٤٨هـ) : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس ص ٢ نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس .

من صنهاجة ورؤساء القبائل ،وقصدوا محلة الأنفونش فاقتحموها ، وضربت الطبول وزعقت الأبواق ، فاهتزت الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق ، ودخلوا المعترك بدرق اللمط ، وسيوف الهند ، ومزاريق الزان ، (١). بينما يصف ابن الكردبوس الجيوش الأسبانية بقوله :

« كأنها الليل الدامس ، والبحر الطامس ، قد لبسوا الدروع الضافية ، وتقلدوا السيوف الماضية ، تقلسوا بالحديد ببأس شديد ، طبولهم القرون ، وألويتهم السحاب الجون » (٢).

وفى خطاب ليوسف بن تاشفين يصف المعركة بقوله : « وأظلتهم سحائب الرماح ، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح » (٣). وقولهم أيضاً : واجتمع النصارى للقتال على نفخ القرون والمزمار ، واجتمع المسلمون على قرع الطبول » (٤). وقولهم : « واقتحم أمير المسلمين محلات العدو وقد قرعت الأسماع طبوله » (٥).

أما عن تعداد جيوش المسلمين والمسيحيين ، فقد بالغت المصادر المسيحية فى تعداد الجيوش الاسلامية ، كما بالغت الرواية العربية فى تقدير عدد الجيوش المسيحية . وحسبنا أن نكتفى برواية صاحب الحلل الموشية المعتدلة التى تقدر عدد جيوش المسلمين فى الزلاقة بنحو خمسين ألف فارس ، أربعة وعشرون ألف فارس من الأندلسيين ومثلها أو أكثر من المرابطين وأهل العدوة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١٠١ .

(٢) أبو مروان بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ص ٩٢ نشر أحمد مختار العبادى (مدريد ١٩٧١) والجون (الجمع بضم الجيم والمفرد بفتحها) لها معانى كثيرة منها ضرب من القطاسود البطون والأجنحة ولعل المراد هنا بالسحاب الجون هو الكثيف القاتم اللون كناية عن سود الألوية أو كثرتها .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١٥٠.

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ص ١٠٣ ترجمة عبد الله عنان.

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام – القسم الثالث – ص ٢٤٣ .

المغربية(١) . ويقدر ابن الأثير تعداد جنود الأسبان فى هذه المعركة بخمسين ألف فارس أيضاً (٢) . فهناك إذن نوع من توازن القوى فى حشود الجانبين .

سابعًا : العيون والجواسيس وخُدع الحرب :

جرت العادة أن يصاحب الجيش ، العيون ، والأدلاء ، إلى جانب الفقهاء والوعاظ والشعراء والخطباء وكل ما يساعد على سلامة الجيش وتقوية روحه المعنوية وتحقيق النصر .

ومن أمثلة أخبار التجسس فى هذا الصدد ما يرويه المقرى من أنه قبيل وقعة الزلاقة استطاع جواسيس المعتمد بن عباد أن يصلوا إلى داخل محلة الملك الأسبانى الفونسو السادس وأن يسمعوا ما دار بينه وبين أصحابه من حديث ، يقول : « ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مسعّر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوى بصائر فى الحروب ، فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه واصبروا، فإن انكشف لكم ، هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة» . عند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر بن القصيرة إلى محلة السلطان يوسف بن تاشفين يعرفه بجلية الأمر (٣).

ويضيف المقرى فى هذا الصدد أيضاً ، أن المعتمد بن عباد أذكى عيونه فى محلات الصحراويين خوفًا عليهم من مكايد الأذفونش ، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء حاجة أو أمر إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات»(٤).

---

(١) الحلل الموشية ص ٤٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٥٣ (طبعة صادر) .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ٩٨-٩٩ نشر محى الدين عبد الحميد .
(٤) نفس المصدر السابق ص ٩٧ .

كذلك يروى عبد الواحد المراكشى أن المرابطين قبيل عبورهم إلى الأندلس ، أرسلوا مجموعة من عملائهم في شكل زهاد وعباد ومجاهدين ، وهم في الحقيقة عيون ودعاة وجواسيس يعملون لحسابهم لتهيئة الجو لهم وتمهيد الطريق أمامهم أى ما يسمى بالطابور الخامس في عصرنا الحديث . يقول المراكشى :

« فاتفق رأى يوسف بن تاشفين ورأى أصحابه أن يراسلوا المعتمد بن عباد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والكون (أى الإقامة) ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا . ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافقه على ذلك المتوكل بن الأفطس صاحب الثغور (بطليوس) ، وانما اراد يوسف واصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً » (١).

ثم يضيف المراكشى بعد ذلك أحداثاً لاحقة لتأييد هذا الكلام بقوله:

« وجهز يوسف بن تاشفين من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وأمّر عليهم رجلاً من قرابته يسمى بلجّين (٢) ، وأسّر إليه ما أراده . فجاز بلجين وقصد المعتمد وقال له أين تأمرنى بالكوْن ؟ (أى لإقامة) ، فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم .... وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون في الحصون إلى قرطبة ، فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون(٣) وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتلوه . وأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكور ، وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها (٤). بل وتذهب الرواية إلى أن هؤلاء الجواسيس حاول بعضهم اقتحام

---

(١) عبد المراحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٨ - ١٣٩ نشر سعيد العريان .

(٢) بلجين هو الصيغة العامية لاسم بلقين أو بلكين .

(٣) من المعروف أن زوجة المأمون المعروفة باسم زايدة المسلمة فرت إلى قشتالة بعد مقتل زوجها حيث تزوجها الملك الفونسو السادس وأنجب منها ولده الوحيد سانشو الذى سيقتل فى موقعة اقليش على يد المرابطين .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٩ وما بعدها .

قصر المعتمد بن عباد فى اشبيلية ، وكان فى الحمام حين بلغه النبأ ، فخرج للغارة فى قميصه لا درقة له ولا درع عليه وسيفه بيده ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير القناة طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منها ، وصبَّ هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخرّ صريعاً وانهزمت تلك الجموع (١).

وما يُقال عن المسلمين يُقال عن المسيحيين ، فالحرب خُدعة كما قال الرسول (ﷺ) إذا يروى ابن القطان أنه لما اقتحم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين مدينة طلبيرة ، لجأ بعض النصارى إلى قصبتها وتحصنوا فيها إلى أن جنّ عليهم الليل فتلثموا على هيئة المرابطين وخرجوا على خيولهم فارين على وجوههم (٢).

ونفس هذا الشيئ أيضاً فعله الأمير المرابطى سير بن أبى بكر حينما جنّد أجناداً على هيئة الفرنج وزيهم لكى يتمكن من الاستيلاء على إحدى القلاع المنيعة التى استعصت عليه(٣).

ثامنًا : تقوية روح الجنود المعنوية :

تعددت الوسائل التى تهدف إلى تقوية روح الجنود المعنوية ، وأولها الوعظ والإرشاد ، يقول المقرى أنه قبيل وقعة الزلاقة ، قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، وتبايعوا على الموت ، بينما قام كل من يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد يوعظ أصحابه ، كما قام الوعاظ والصالحون مقام الوعظ ، وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار (٤). وفى أثناء المعركة كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس أنثى يمر بين صفوف المسلمين يحرضهم ويقوى نفوسهم على الجهاد

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٤٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٨٢ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٤ .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١٠٤ – ١٠٥ .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ٩٨ .

والصبر ويقول : يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، فمن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة (١).

ومن أمثلة ذلك أيضاً قصة الحُلم الذى رآه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميله القرطبى وكان فى محلة المعتمد بن عباد قبيل موقعة الزلاقة ، إذ رأى فى النوم فى تلك الليلة النبى (ﷺ) يبشره بالفتح والموت على الشهادة ، فانتبه فرحاً مسروراً ، ودعا وتأهب ودهن رأسه وتطيب . ولما علم المعتمد بن عباد بهذا الخبر ، بعث به إلى يوسف بن تاشفين وأذاعه بين الجنود لتقوية روحهم المعنوية (٢).

وهناك المبارزات الفردية التى كانت تحدث بين أبطال الجيشين قبل الموقعة لإثارة حماس الجنود وشحذ هممهم ، وهى عادة معروفة عند العرب من قديم . وهنا تشير المصادر إلى تلك المبارزة العنيفة التى دارت قبل موقعة اقليش Uclés بين أحد أبطال المرابطين ، وأحد أبطال الأسبان ، انتصر فيها المسلم على النصرانى فكان ذلك إيذاناً بانتصار المرابطين فى تلك الموقعة سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م (٣).

وأخيراً نختم هذا الفصل بقصيدة شعرية معاصرة فى سياسة الحرب ، أهديت إلى الأمير تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، وهى من نظم كاتبه المؤرخ الشاعر أبى زكريا يحيى بن الصيرفى الغرناطى (٤) (ت سنة

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٤٨ (طبعة دار المنصور ، الرباط سنة ١٩٧١).

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ٩٨ .

(٣) أويثنى ميراندا : وقعة اقليش ومصرع الأمير شانجه ، مجلة تطوان ، العدد الثانى سنة ١٩٥٧ ص ١١٥ وما بعدها .

(٤) هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى الغرناطى ، يكنى بأبى بكر ويعرف بابن الصيرفى . كان كاتباً للأمير أبى محمد تاشفين بغرناطة وألف تاريخاً للمرابطين بعنوان : الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية . وهذا الكتاب فى حكم المفقود الآن للأسف ، وإن كان المستشرق الأسبانى بونس بويجس قد أشار إلى وجوده فى تونس وإلى استفادة كل من دوزى وكوديرا منه . وتوفى ابن الصيرفى فى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤ م . راجع مقالنا (دراسة حول كتاب الحلل الموشية وأهميته فى تاريخ-

٥٧٠هـ / ١١٧٤م) الذى يلقبه ابن خلدون بشاعر لمتونة وأهل الأندلس (المقدمة ص ٢٧٥) وهذه القصيدة أنشدت عقب محنة أصابت الأمير تاشفين خلال معركة خاضها مع الأسبان ليلاً فى مكان يعرف بالبكار أو فحص البكار(١) فى شمال قرطبة فى جمادى الأولى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م) فى هذه المعركة انهزمت جيوش تاشفين وانفض أتباعه من حوله لدرجة أن سائسه قدّم له فرسه لينجو عليه ، فانتهره وقال : لا أسْلم وأُسلِم الأمة ! وظل قائمًا بسيفه ودرقته بين يده ، فأحدق به عبيده وأفذاذ من المرابطين ورجال من أهل الأندلس ، وتمكنوا من قتل أحد قادة الأسبان المهاجمين ، فكانت المحاجزة وتوقف القتال.

ولولا ثبات هذا الأمير وشجاعته لكانت الهزيمة محققة (٢).

والقصيدة ، كما قلنا ، تتضمن ألواناً من سياسة الحرب وفنونها وحيلها . وتبدأ بمدح الأمير تاشفين على ثباته ،وتهنئته بسلامته ، ثم توجه له نصائح حربية أو « وصايا وتحذيرات » كما يسميها ابن خلدون ، لمراعاتها فى القتال ، ثم تنتهى بعتاب صنهاجة على تركها لقائدها فى ميدان القتال وحده (٣).

= المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس سنة ١٩٦١ ص ١٤٠) .
وكذلك :

Pons Boigues : Historiadores y Géografos Arabigo - Espanôles P. 240 núm . 193 , Madrid 1898)

(١) فحص البكار ، لعله عقبة البقر الذى يسمى إلى الآن Castillo del Vacar فى شمال قرطبة فى منطقة فحص البلوط حاليًا Pedroches وكان هذا الحصن يحتل موقعًا استراتيجيا هاماً لأنه يتحكم فى طريق وادى آنه المؤدى إلى بطليوس .

راجع: (Lévi Provençal : L'Espagne au X eme siècle P. 149 , Paris 1932).

وكذلك (ابن الخطيب : أعمال الأعلام – القسم الثالث الخاص بالمغرب – ص ٢٥٩ حاشية ١) .

(٢) حول أخبار هذه الموقعة راجع (ابن القطان : نظم الجمان ص ٢١٥-٢١٦ ، حاشية ٣؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام – القسم الثالث – ص ٢٥٨ – ٢٥٩ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٠ – ٩١ ؛ الحلل الموشية ص ١٠٢ وما بعدها .

(٣) أورد هذه القصيدة كل من : ابن الخطيب أعمال الأعلام – القسم الثالث –ص ٢٦٠=

والقصيدة طويلة ولايتسع المجال ذكرها كاملة ، ولهذا اكتفى بذكر بعض أبياتها المتصلة بفنون الحرب والقتال وهى :

يا أيُّها الملأُ الذى يَتَقنَّع(١) … من منكُم البطلُ الهُمامُ الأَرْوَعُ
ومَنْ الذى غَدَرَ العدوُّ به دُجًى … فانْفَضَ كلٌّ وهو لا يَتَزَعْزَعُ
تمضى الفوارسُ والطّعانُ تَصدُّها … عنْهُ ويَدْعُوهَا الوفاءُ فترجعُ
والليلُ(٢) من وضحِ التَّرائك(٣) بينهمْ … صُبحٌ على هام الكُماة يَلمَعُ
يا أشجعَ الأبطال ليلَة أمسه … واليوم أنت مع التجارب أشجَعُ
أُهديكَ من أدبِ الوغَى حِكَمًا بها … كانت ملوكُ الحربِ مِثْلَك تُولَعُ
لا أننى أدرى بهَا لكنها … ذكْرَى تَخُصُّ المؤمنينَ وتَنْفَع
خَنْدقْ عليك إذا ضَرَبْتَ محلّة … سيَّان تَتْبَعُ ظافرًا أو تُتْبَعُ
والوادِ لا تَعْبُرْهُ وانزلْ عنده … بين العدوِ وبينَ جَيْشك يَقْطَعُ
قبل التَّهارش عبِّ جَيْسكَ مُفْسحًا … حيث التمكُّن والمجالُ الأوسَعُ
إيَّاكَ تعبئةَ الجيوش مُضَيَّقًا … والخيل تَفْحَص(٤) بالرجال وتَمْرَغُ
حَصِّنْ حَوَاشِيهَا وكُنْ فى قلْبِها … واجعلْ أمامكَ منهمْ مَنْ يَشْجعُ
والْبَسْ لَبوسًا لا يكونُ مُشَهَّرًا … فيكون نحوكَ للعِدِّ تطلُّعُ

– ٢٦٣-؛ ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٥-٢٧٧ ؛ صاحب الحلل الموشية ص ١٠٣ – ١٠٦ ، وقد أورد الأستاذ علوش ناشر هذا الكتاب اسم الشاعر محرفًا « أبو زكريا بن العربى» ص ١٠٢ ، وبالرجوع إلى النسخة الخطية لكتاب الحلل المشوية (رقم ٥٢٣ خزانة الرباط) وجدنا أن الاسم كما فى المتن أبو زكرياء بن الصيرفى .

(١) يقصد المرابطين لأنهم يتقنعون باللثام .

(٢) اشارة إلى أن المعركة دارت فى الليل .

(٣) الترائك هى بيضات الحديد أو الخوذات الناصعة البياض التى يضعها المحارب على رأسه ومفردها التريكة والتركة .

(٤) الفحص هو الضرب بالأرجل .

والبَسْ من الحلَقِ المُضَاعَفةِ التي ... وصَّى بهـا صَنَعُ الصنائِعِ تُبَّعُ
واركب من الخَيلِ السوابِقِ عِدَّةً ... حِصْناً حصيناً ليس فيه مَدْفَعُ
واحذرْ كمينَ الرومِ عند لقائها ... وامضى كمينَكَ خلفها إذ تَدْفَعُ
لا تُبقِيَنَّ النهرَ خَلْفَكَ عندما ... تلقَى العدوُّ فشرُّهُ مُتوقَّعُ
واجعلْ مُناجزةَ العدو عَشيَّةً ... ووراءَك الهدفُ الذي هو أمنعُ
واصدمْهُ أوَّلَ وهلةٍ لا تكترثْ (١) ... بعد التقدُّمِ فالنكوصُ يُضعضِعُ
وإذا تضايقتِ الجيوشُ بمعركٍ ... ضنْكٍ فأطرافُ الرِّماحِ توسِّعُ
واجعلْ من الطُّلَّاعِ أهلَ شهامةٍ ... للصدْقِ فيهمْ شيمةٌ لا تخدعُ
لا تَسمعِ الكذابَ جاءك مُرْجِفًا ... لا رأيَ للكذاب فيما يصنعُ
أنَّى نَزَعتُمْ يا بني صِنْهاجةٍ ... وإليكُمُ في الرَّوعِ كانَ المَفْزَعُ
ما بالُ سيدِكم تورَّط لم يكنْ ... لكم التفاتُ نحوَه وتجمُّعُ
انسانُ عينٍ لم يُصِبْها منكم ... جفنٌ وقلبٌ أسلمَتْهُ الأضلُعُ!
أوَمَا ليوسفَ جَدِّه منٌّ على ... كلٍّ وفضلٌ سابقٌ لا يُدْفَعُ ؟
أوَمَا لوالده عليكم نعمةٌ ... وبكلِّ جيدٍ ربقةٌ لا تُخلَعُ ؟
أبطأتُمُ عن تاشفينَ ولم يزلْ ... إحسانُهُ لجميعِكُمْ يتسرَّعُ!
ولقد عفا والعفوُ منه سجيَّةٌ ... ولسَطْوِه، لوشاء، فيكمْ موضعُ
النعمةُ العظمى سلامتُكَ التي ... فيها من الظَّفَرِ الرِّضى والمقنعُ
لا ضيَّعَ الرحمنُ سعيَكَ إنه ... سعيٌ به الاسلامُ ليس يُضيَّعُ
نستحفظُ الرحمنَ منك وديعةً ... فهو الحفيظُ لكلِّ ما يُستودعُ

---

(١) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذى جاء بعد ابن الصيرفى بأكثر من قرنين من الزمان ، اعترض فى مقدمته (ص ٢٧٥ - ٢٧٧) على قول الشاعر هنا : واصدمه أول وهلة لا تكترث ... الخ قائلا : ان البيت مخالف لما عليه الناس فى أمر الحرب ثم استشهد فى ذلك بعمر بن الخطاب حينما ولى عبيد بن مسعود الثقفى حرب فارس والعراق ، إذ نصحه بالتثاقل وعدم التسرع فى الحرب حتى يتبين الوضع لأن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث . ثم يقول : وكلام عمر عكس ما قاله الصيرفى ، إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه ، والله تعالى أعلم .

وبعد وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧هـ/١١٤٣ م خلفه ولده تاشفين بن على الذى يمثل عهده الفصل الختامى لدولة المرابطين ، وسقوطها على يد الموحدين بقيادة خليفتهم عبد المؤمن بن على . قامت حرب ضارية بين هذين القائدين الكبيرين تجلت خلالها ضروب من الشجاعة والمهارة والحنكة العسكرية التى تميز بها كل منهما .

حارب كل فريق فى البيئة الجغرافية ، التى تعود عليها ، إذ اتخذ المرابطون الصحراويون طريق السهول فى محاربة خصومهم ، بينما اتخذ الموحدون المصامدة الجبليون طريق الجبال الوعرة حتى يجد المرابطون مشقة فى الوصول إليهم (١) .

واستمرت الحرب سجالاً بينهما إلى أن حدث تصدع فى جبهة المرابطين نتيجة لوقوع شقاق بين قبيلتى لمتونة ومسوفة ، وانضمام عدد من زعماء مسوفة إلى الموحدين مما أثار الاضطراب فى الجبهة المرابطية . ثم نجح الموحدون أخيراً فى استدراج الأمير تاشفين إلى حصن جبلى قرب وهران بالجزائر ، وحاصروه هناك ، فخرج تاشفين من الحصن راكباً فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل ومات فى ٢٧ رمضان سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤ م . وبموت تاشفين ثم ولده ابراهيم من بعده سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م ، دخل الموحدون العاصمة مراكش ، وتنتهى بذلك دولة المرابطين .

---

(١) راجع (السلاوى : الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى جـ ٢ ص ٦٢ ؛ منى حسن أحمد محمود : تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، الأمير المرابطى (٥٢٠ - ٥٣٩هـ/ ١١٢٦ - ١١٤٤م) ص ٦٦ (دار الفكر العربى ، القاهرة سنة ١٩٩٠) .

الفصل الثالث

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس

فى عصر الموحدين

(٥٤١ - ٦٦٨ هـ / ١١٤٧ - ١٢٦٨ م)

الفصل الثالث

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس
فى عصر دولة الموحدين (٥٤١-٦٦٨هـ/١١٤٧-١٢٦٨م)

أولاً : قيام دولة الموحدين وأهدافها التوسعية :

خلفت دولة المرابطين فى حكم المغرب والأندلس ، دولة مغربية مجاهدة أخرى وهى دولة الموحدين . قامت هذه الدولة الجديدة على أساس دعوة دينية اصلاحية طابعها التجديد والجهاد والاتساع ، وهدفها تحقيق وحدة اسلامية شاملة ترأسها خلافة دينية شرعية خاصة بالموحدين .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت (١) ، الهرغى المصمودى السوسى ، وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة الساكنة فى بلاد السوس وجبال أطلس فى أقصى المغرب .

رحل ابن تومرت فى شبابه إلى الأندلس ، ودرس فى قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق فى أواخر القرن الخامس الهجرى (١١م) وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر طلباً للعلم .

وهناك لمس حالة الضعف التى يعانيها المجتمع الاسلامى فى ظل الخلافتين الهرمتين : العباسية والفاطمية ، ونجاح الصليبيين فى الاستيلاء على بيت المقدس وتأسيس إمارات لهم فى الرها وأنطاكية وطرابلس . عندئذ لم يطق صبراً على ذلك وانبرى يهاجم الأوضاع السائدة بكل شدة وعنف .

---

(١) يرى المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال أن لفظ تومرت لفظ مؤنث لعله اسم أمه أو إحدى جداته ، بينما يقول البيذق أن كلمة تومرت معناها بلسان البربر الفرح وذلك لأنه أمه فرحت بمولده وكانت تقول « ديك تومرت » أى صار فرحاً فغلب عليه ذلك الاسم (ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ص ٢٦٥) ومن الطريف أن اسم يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين السالف الذكر ، ورد اسمه فى كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب - القسم الثالث الخاص بالمغرب ص ٢٣٣ - وهكذا :
« يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن تومرت !! » .

ومن وصف رحلة عـودته إلى وطنه المغـرب بحـراً وبراً عن طريق الإسكندرية وتونس والجزائر والمغرب نجد أبن تومرت ثائراً غاضباً يعمل على محـاربة البدع ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأنه كثيراً ما استـخدم عصاه واصطدم بالأهالى وخرج هارباً ساخطا من بلد إلى آخر(١) .

ولا شك أن ابن تومـرت قـد أيقن بعـد هذه الرحلة الطويلة فى المشـرق والمغرب ، أن علاج هذه الحالة يقتضى انشاء خلافة اسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الاسلامى وتتولى علاجه واصلاحه.

ومن ثمّ ، شرع ابن تومرت فى نشر دعوته بين ذويه وعشيرته المصامدة فى أقصى المغرب ولقب نفسه بالمهدى والشيخ وأمغار ومعناها الشيخ بالبربرية ،كما اتخذ قاعدته فى بادئ الأمر فى جبل إيجليز عند مدخل مدينة مراكش ، ولما اشتدت حركته انتقل إلى قلعة حصينة منيعة فى قلب جبال أطلس الكبير وهى قلعة تينمال أو تينملل(٢) التى أشاد المؤرخون والجغرافيون بحصانتها .

فى هذه القلعة النائية ، عاش ابن تومرت مع أصحابه ومـريديه ، وفى مقدمتهم الشاب عبد المؤمن بن على الكومى الزناتى الذى كان قد التقى به إما فى بلدة تاجره بالقرب من تلمسان فى غـرب الجزائر ، وإما فى بلدة مـلاّلة (بالفتح ثم التشديد) قرب بجايه على ساحل البحر فى شرق الجزائر(٣) . ثم لم يلبث أن تبناه وصار أقرب المقربين إليه من طلبته ، وخليفته من بعده ، ولقبه

---

(١) وصف هذه الرحلة كل من أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيـذق فى كتـابه أخـبار المهدى بن تومرت ، وابن القطان فى كتابه نظم الجمان .

(٢) تينملل كلمة بربرية مؤلفة من شقين : الشق الأول : تين بمعنى ذات ، والشق الثانى : ملل بمعنى المدارج أو الحواجز التى توضع فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى . وهذه القاعدة الجبلية الحصينة ، كانت مهد دولة الموحدين ، وبها بنى ابن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد مماته . راجع الإدريسى : نزهة المشتاق ص ٦٤ ؛ الاستبصار ص ٢٠٨) وكذلك :

(Basset et Terrasse : Tinmel , Hésperis 1924) .

(٣) لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن اختلف فى مكانه فيذكر صاحب القرطاس وابن الخطيب فى أعمال الأعلام أنه كان فى تاجره غرب الجزائر بينما يذكر عدد كبير من المؤرخين أمثال ابن شداد والنويرى وابن الأثير ، وسبط بن الجوزى جـ ٨ ص ١٥١ ، والبيذق ، والمراكشى وابن خلكان وابن خلدون ، أن اللقاء كان فى ملاله شرق الجزائر .

بسراج الموحدين .

وكان حكام المغرب والأندلس فى ذلك الوقت هم المرابطون ، وهم جماعة سلفية على مذهب أهل السنة والجماعة ، يتمسكون بمذهب مالك بن أنس ، ويكرهون المتكلمين وعلم الكلام ، وينفرون من الرأى والتأويل والخوض فى العقائد ومسائل التوحيد ، ويرون الاقتداء بالسلف الصالح فى قبول النصوص على علاتها وإقرار المتشابهات كما جاءت والإيمان بها كما هى .

فالمهدى بن تومرت هاجم المرابطين وفقهاء المالكية من هذه الناحية وقال بضرورة تأويل النصوص ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق ، واتهم المرابطين بالتجسيم والشرك لأنهم يقرون الصفات إلى الله تعالى وهى شبهة إشراك غيره معه ، بينما سمى أصحابه بالموحدين تعريضاً بالمرابطين فى أخذهم بالعدول عن التأويل ، وهو يعنى بذلك أن أصحابه هم الذين يفهمون معنى التوحيد ومعنى تنزيه الذات الإلهية من الصفات المشبهة(١) .

ولقد دون ابن تومرت تعاليم هذه الدعوة باللسانين العربى والغربى (أى بلسان البربر) فى كتب عديدة أهمها كتاب التوحيد المعروب باسم « أعز ما يطلب » (٢). والجدير بالذكر أن دعوة التوحيد التى نادى بها محمد بن تومرت ، عبارة عن مزيج بما قالت به المعتزلة الذين عرفوا بأهل العدل والتوحيد ، وبما قالت به الظاهرية فى محاربة التقليد والاحتكار المذهبى ، وبفكرة المهدوية والعصمة إذ لقب نفسه بالمهدى المنتظر والإمام المعصوم .

وواضح أن ابن تومرت أراد أن يضمن لدعوته النجاح عن طريق إرضاء أصحاب المذاهب والآراء المختلفة ، فجعلها مزيجاً من كل هذه التيارات والاتجاهات الفكرية والفقهية التى كانت كلها معروفة فى المغرب من قبل ، ولكنها كانت فى معظمها ممنوعة من الظهور فى عهد المرابطين حكام

---

(١) راجع مقالنا (الموحدون والوحدة الاسلامية ، مجلة التربية الوطنية بالمملكة المغربية ، مارس ، ابريل سنة ١٩٦٢) .

(٢) كتاب أعز ما يطلب نشره المستشرق المجرى جولدزيهر (الجزائر سنة ١٩٠٣) .

المغرب فى ذلك الوقت (١). فابن تومرت من هذه الناحية لم يأتِ بجديد فى الواقع ، ولكن أحيازه لها مجتمعة فى دعوة إصلاحية جديدة يعتبر نوعًا من التجديد فى الاسلام .

وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة ، وأن من حقهم أن ينالوا هذا اللقب اتباعاً لما فعله الصحابة كما تقول الرسالة الرسمية . فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقيدة الموحدية الجديدة، ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين(٢) .

ولكى تستند خلافتهم إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوى أو الأصل العربى ، قالوا بانتماء كل من المهدى بن تومرت ، وعبد المؤمن بن على ، إلى الرسول (ﷺ) عن طريق الأشراف الأدارسة العلويين . وإذا تصفحنا كتاب أخبار المهدى للبيذق ، نجد شجرة طويلة لنسب كل من ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن ، وكلها ترتفع إلى البيت النبوى الكريم(٣) .

أما من جهة الأصل العربى ، فيروى أن عبد المؤمن بن على ، كان يقول لمن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية الزناتية : « أنا لست منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان، ولكومية علينا حق الولادة بينهم ، والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال »(٤) . وقد حرص مؤرخو وشعراء هذا العصر على إثبات هذا الأصل العربى فى كتاباتهم وأشعارهم ، فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسى بدلاً من الكومى كما أطلقوا على أبنائه وذريته اسم السادة والأسياد (مفردها السيد) بمعنى الأمراء الأشراف . أما كلمة الشيخ فتعنى القائد عندهم (٥) ،(٦).

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٠١ .

(٢) عبد الواحد المراكش : نفس المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٣) أبو بكر الصنهاجى : المكنى بالبيذق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ٢١ نشر بروفنسال ؛ الحلل الموشية ص ١٥٤ .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٩٧ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلان س ٩٦٦ ، الحلل الموشية ص ١٥٤ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠٧ .

(٦) استخدم فى المشرق قبل هذا التاريخ لقب السادة والسادات بمعنى الأشراف الذين يرتفع نسبهم إلى الرسول (ﷺ) .

وأول عمل حرصت عليه دولة الموحدين فى سياستها التوسعية(١) ، هو توحيد المغرب الكبير من أقصاه إلى أدناه ، ففى عهد الخليفة الأول عبد المؤمن بن على ، تمكنت جيوش الموحدين من الاستيلاء على ملك بنى حماد وأقربائهم الزيريين فى الجزائر . ويقال إن عبد المؤمن بن على حيثما مرّ موكبه هنالك بمسقط رأسه فى الجزائر لزيارة قبر أمه بقرية تاجرا بالقرب من مرسى هنين (عنابه) ، من أعمال تلمسان حيث تقيم قبيلة كومية ، تشبثت امرأة عجوز بعنان فرسه وأخذت تصيح : « هكذا يعود الغريب إلى بلده! » (٢) وهى عبارة جميلة تحمل أسمى معانى السمو والطموح لأن الشاب الغريب ينبغى أن يعود إلى وطنه ظافراً (٣).

واستطاع عبد المؤمن بعد ذلك أن يحتل افريقية ويطرد النورمانديين من تونس والمهدية ثم يسيطر على طرابلس وما وراءها ، فامتد ملكه بذلك من الحدود المصرية شرقًا إلى المحيط الأطلسى غرباً وإلى الصحراء الكبرى

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذه السياسة التوسعية الموحدية كانت ترمى إلى تحقيق وحدة اسلامية شاملة ويظهر ذلك فى قول شاعرهم إبى العباس الجراوى :

ستملك أرض مصر والعراقا ... وتجرى تحوك الأمم استباقا

وقوله :

سينظم السعدُ مصراً فى ممالكه ... حتى يدوخ منها خيلهُ حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا !

هو الذى كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له مازال مرتقبا

راجع كتابنا (دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٥) .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٣٢ وكان والد عبد المؤمن بن على صانعًا فى عمل الطين يعمل منه الأوانى والجرار فيبيعها (المعجب ص ٢٠١ حاشية ص ٢) .

(٣) أورد صاحب المعجب (ص ١٨٢ – ١٨٣) بعض القصص التى تعبر عن طموح عبد المؤمن عندما كان صبياً مثل الحلم الذى رآه فى نومه وكأنه يأكل مع السلطان على بن يوسف بن تاشفين فى طبق واحد وإذا به يزيد على أكل السلطان ثم تزداد شراهته إلى الطعام لدرجة أنه اختطف الطبق من بين يديه وانفرد بها لنفسه . ومثل قصة صاحبه الفقير المعدم الذى يصبح فجأة صاحب ضيعة واسعة ، فيقول عبد المؤمن، إن كانت حالة فلان انتهت إلى هذا ، فلا بد أن أكون أنا غداً أمير المؤمنين ! فكان الأمر كما قال .

والسودان جنوباً ، وفى ذلك يقول صاحب كتاب الاستبصار :

« وكلمة التوحيد والهداية ، متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة» (١).

وكان من الطبيعى لهذه الدولة الموحدية الفتية ، بعد أن تم لها توحيد المغرب ، أن ترنو بأبصارها شمالاً عبر المضيق نحو الأندلس كى يتم لها توحيد الغرب الاسلامى ضد القوى المسيحية فى أسبانيا .

ولم يلق الموحدون صعوبة فى ضم الأجزاء الغربية والوسطى من الأندلس، إذ سارع أمراء هذه المناطق بإعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين . وكانت ولاية شريش Jerez فى جنوب غرب الأندلس فى طليعة هذه الولايات ، ولذا سمى أهلها بالسابقين الأولين(٢) وصاروا منذ ذلك الوقت مقدمين على غيرهم من الأندلسيين فى أصناف (أى طبقات) الموحدين ، وفى مراسم التشريفات أو البروتوكول عند مقابلة خلفاء الموحدين (٣). كذلك أرسلت ولاية اشبيلية وفداً من أعيانها برئاسة القاضى الفقيه أبى بكر بن العربى المعافرى لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن على بالعاصمة مراكش(٤) . وفى أثناء عودة هذا الوفد ، توفى أبو بكر بن العربى بالقرب من مدينة فاس سنة ٥٤٣هـ (١١٤٩م) . ولا يزال قبره هناك خارج الباب المحروق وبجواره قبر الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب الذى توفى بعده بمدة سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) .

---

(١) كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول ص ١١١ نشر سعد زغلول .

(٢) السابقون الأولون فى أصناف الموحدين ترجع إلى الآية الكريمة« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين تبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » (سورة التوبة رقم ٩ الآية ١٠٠) .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٨٨ ؛ السلاوى : الاتقصا جـ ٢ ص ١٠٤ .

(٤) يروى أن الخليفة عبد المؤمن بن على سأل الفقيه أبا بكر بن العربى عن المهدى بن تومرت ، وهل رآه أو لقيه فى مجلس أبى حامد الغزالى ببغداد ، فقال له : لم ألقه وإنما سمعت به وأن الشيخ الغزالى كان يقول لا بد من ظهوره . (الحلل الموشية ص ١٢٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٥) .

كذلك انضم للموحدين أمير البحر على بن ميمون قائد أسطول المرابطين فى قادس Cadiz .

أما القسم الشرقى من الأندلس Levante ، فقد عارض امراؤه أمثال ابن مردنيش ، وابن همشك ، وابن غانية ، فكرة الوحدة مع المغرب ، وانضموا صراحة إلى ملوك الأسبان المسيحيين ، فاضطر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى محاربتهم وإخضاعهم (١). ومن الغريب إننا إذا تصفحنا تاريخ هذا الجزء الشرقى الأندلسى فى مختلف عصوره الاسلامية ، نجد أنه كثيراً ما نزع إلى الاستقلال وإثارة القلاقل فى وجه الأمويين والمرابطين والموحدين بل وفى أيام بنى الأحمر ملوك غرناطة ، وهذه ظاهرة تدعو إلى الالتفات والدراسة .

ثانيًا : التربية العسكرية والثقافية لشباب الموحدين :

بعد نجاح الموحدين فى توحيد الغرب الاسلامى سياسيًا ، أخذوا يعملون على توحيده فى مختلف النواحى الثقافية والعسكرية كى تقوم الوحدة على أساس متكامل فى أهدافها ومشاريها . الذى يهمنا فى هذا الصدد هى الناحية التربوية الخاصة بإعداد الجيل الناشئ الذى يتوقف عليه مستقبل الأمة . وفى هذا الإطار يقول ابن القطان فى كتابه نظم الجمان :

«ومن مكارمه (أى عبد المؤمن) العظيمة ، رضى الله تعالى عنه ، حضّه الناس على العلم ، وإرادته لهم ولبنيهم ما يريده لنفسه ولبنيه ، واستدعاؤه الصبيان الصغار الأسنان من أبناء اشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إلى حضرته العلية ليعلّمهم ويحفظّهم القرآن وحديث النبى (ﷺ) فانتخب الأولاد النجباء الحفاظ من كل بلد ، ووجهوا محسناً إليهم مزودين ، فكان عدد الذين توجهوا من اشبيلية خمسين صبيًا ، فسافروا نحو الحضرة العلية مع

---

(١) عرف عن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان أعسرا - أى يعمل بشماله - ولهذا عرف بيوسف العسرى (روض القرطاس ص ٢٠٥) وقد تزوج صفية المشهورة باسم الزرقاء المردنيشية ، إحدى بنات الأمير الأندلسى أبى عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش بعد إخضاعه ، وتزوج أختها ولده يعقوب الذى لقب بالمنصور (المعجب ص ٢٥٠) .

الأستاذ أبى الحسن ، والأستاذ أبو بكر الحصار ، نهضوا فى كفالتهما حتى وصلوا حضرة مراكش حرسها الله تعالى . فأنزلوا أكرم إنزال ، وتلقاهم أبو جعفر ابن عطيه مأموراً بذلك ، وقد قُبلوا بما أحسنهم من الإحسان والإنعام وإجراء الطُرف والتحف ثلاثة أيام . ثم أمروا بالدخول والسلام ، وعلموا كيف يسلمون ويأخذون باليد الكريمة ، ففعلوا ذلك (١) . ثم أُمروا بكتاب التوحيد وحفظه (٢) ، وكتاب موطأ الإمام المهدى (٣) وحفظه ، وصحيح مسلم وحفظه . وأقاموا كذلك تحت جراية واسعة ، وجباية بالغة ، وأستاذاهم المذكوران معهم ، ستة أشهر ، حتى بدا عليهم نور الإمامة ، وتميزوا بالحفظ وامتازوا بالكرامة . ثم ولّى سيدنا ومولانا الخليفة (عبد المؤمن) ولده أبا يعقوب يوسف اشبيلية وقرطبة ، ووجه معه الوزير أبا جعفر بن عطية ، وبعث الصبيان الحفاظ معه إلى آبائهم وقد نالوا من الخير ما نالوا ، وانصرف الأستاذ أبو بكر الحصار معهم » (٤).

ويضيف صاحب الحلل الموشية وصفاً هاماً آخر يبين فيه مدى حرص الموحدين على تربية هؤلاء الحفاظ ، أى صغار الطلبة ، تربية عسكرية اسلامية وإعدادهم لتولى مناصب الإدارة والقيادة فى الجيوش وفى الدولة ، يقول :

« وكان الخليفة عبد المؤمن يجمعهم كل يوم جمعة بعد الصلاة فى قصره ، وهم نحو ثلاثة آلاف طالب كأنهم أبناء ليلة واحدة . فيمتحنهم فيما

---

(١) هذه العبارة الخاصة بالسلام على الخليفة ، ساقطة فى كتاب ابن القطان المنشور ، راجع النسخة الخطية (ورقة ٥٣أ) .

(٢) كتاب التوحيد هو كتاب أعز ما يطلب للإمام المهدى ويقصد بأعز ما يطلب هو العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير . والكتاب يتضمن فصولاً فى التوحيد وفى التشبيه بين الخالق والمخلوق . وفى الأصل والفرع وفى الصلاة وتحريم الخمر ... الخ . وقد نشره جولدزيهر مع مقدمة علمية (الجزائر ١٩٠٣) .

(٣) موطأ الإمام المهدى بن تومرت منشور فى مطبعة فونتانا الشرقية بالجزائر سنة ١٩٠٧ وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التى وردت فى موطأ مالك بن أنس براوية الفقيه أبى زكريا يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومى وذلك بعد حذف معظم الإسناد منها للاختصار .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٢–١٤٠ نشر محمود مكى .

درسوه ، ويزودهم بنصائحه تشجيعًا لهم على الاجتهاد . ثم يعمد فى أيام أخرى إلى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة ، كالطعن بالحراب ، والرمى بالقوس والنُشّاب ، والمبارزة وركوب الخيل والركض ، ثم فى تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية ، وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض بالقرب من قصره فى الحى المعروف بأكدال (ومعناها البستان بالبربرية) ، وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن فيها الشباب على القتال فى البحر والتجديف وقيادة السفن والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية . وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم وخيلهم وعددهم من عنده . هذا إلى جانب تشجيعه للشباب على قراءة الكتب التى تتحدث عن الفروسية وسير أبطالها (١) .

ولما كمل هذا المراد فيهم عزل الخليفة بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال البحرية والرياسة وقال : العلماء أولى منكم فسلموا لهم الأمر ، وأبقاهم معه فى المشورة (٢) .

ومما يدل على استمرار هذه العادة فى أبناء عبد المؤمن ، ما رواه عبد الواحد المراكشى من أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، أمر العلماء بإلقاء محاضرات على الشباب فى موضوع الجهاد ليدرسوها ، وأن الخليفة شارك فى إلقائها ، فكان يمليها عليهم بنفسه ، وكان كل واحد من هؤلاء الطلبة يحمل لوحاً يكتب فيه ما يملى عليه . ثم يحكى المراكشى فى هذا الصدد قصة مؤثرة يقول فيها : لما تجهز أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى غزو الروم (سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠م) أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث فى الجهاد تملى على الموحدين ليدرسوها – وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم سنة ٦١١هـ -فجمع العلماء ذلك وجاءوا به إليه ، فكان يمليه على الناس بنفسه . فكان كل

---

(١) مثال ذلك قصة جازية والشريف التى هى فى الواقع أصل لقصة أبى زيد الهلالى عند دخول العرب الهلالية لإفريقية . راجع (السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٩ عن ابن خلدون فى تاريخه) .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٥ ، نظم الجمان لابن القطان ص ١٣٩ ، محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ٩٨ .

واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الإملاء . فجاء هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش (صهر الخليفة وشقيق زوجته الزرقاء) يوماً ولا لوح معه ، فأخرج القوم ألواحهم ، فقال له الوزير : أين لوحك ا أبا القمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناوله إياه وقال : هذا لوحه ! . فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذى دفعه له أمير المؤمنين . فلما نظر إليه قال : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيت إذا متُّ أن يجعل بين جلدى وكفنى ! وأتبع ذلك بكاء حتى أبكى بعض من كان فى المجلس ! فقال أمير المؤمنين : هذا المحب الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخلع ، ولبنيه بمثل ذلك » (١).

على أن هذه التدريبات العسكرية لم تقتصر على صغار الطلبة من الحفاظ فقط ، بل شملت أيضاً كل فرسان الجيش الموحدى بما فى ذلك قائده الأعلى أمير المؤمنين ، فكثيراً ما كانت تقام مناورات تدريبية أو ما يسمى « بحملات الخيل » فى ميدان متسع خارج باب الشريعة ، أحد أبواب العاصمة مراكش ، حيث كانت تقام هناك أيضاً صلاة العيدين ، وصلاة الاستسقاء . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة ، وصفاً لإحدى هذه المناورات التى جرت هناك بمناسبة التقاء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بشقيقه السيد أبى حفص عمر القادم من الأندلس بجنوده ، يقول :

« ووقف العسكر مع السيد القادم أبى حفص بإزاء الشريعة ، ووقف عسكر الإمام فى أول البراح المذكور ، وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجرى واللعب والدفاع بالحملات والكرّات ، والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى آذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه فى تلك الدفعات سروراً فأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجباً . ثم نزل الأمير عن فرسه ، ونزل السيد الواصل أيضاً والتقيا وتصافحا وسلما ثم سلم الناس الواصلون بعضهم على الأمير وعلى من حضر . وركبوا وعادوا إلى العساكر، ودخلوا إلى القصر العتيق

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٤ – ٢٥٥ نشر سعيد العريان ومحمد العربى العلمى (القاهرة ١٩٤٩) .

فى دار الحجر فى أعظم بروز واحفل تمييز بعد صلاة العصر ، (١).

ثالثاً : عناصر الجيش الموحدى :

حرص المهدى ابن تومرت منذ تأسيس دعوته على وضع برنامج حربى دينى صارم (٢) يهدف إلى تكوين أمة فتية قوية تعيد للإسلام سيرته الأولى ومجده الحربى القديم . وكان كثيراً ما يتشبه بالرسول (ﷺ) : فهو له أيضاً هجرته ومغازيه ، ومبايعة تحت شجرة الخروب ، ومؤاخاة بين الموحدين الأصليين والمهاجرين أو المضافين . كما كانت قاعدته تينملل عند الموحدين بمثابة مكة عند المسلمين جميعاً ، وأهل تينملل بمثابة الصحابة وهكذا (٣) .

وكان هذا البرنامج الجديد الذى وضعه المهدى يقوم على أساس ترتيب أتباعه الموحدين فى طبقات أو أصناف هرمية الشكل على نظام المراتب الهراركية أو الكهنوتية Hierarchy على حسب أقدميتهم فى التوحيد ، وهى كما يلى :

الإمام المهدى فى القمة ،ويليه أهل داره ، ثم مستشاروه أو أعضاء حكومته ويعرفون بالعشرة أو أهل الجماعة ، وهم أصحابه العشرة الذين بايعوه تحت شجرة خروب ، ثم يليهم أشياخ الموحدين ويعرفون بآيت خمسين أو أهل خمسين(٤) ، وآيت سبعين(٥) ، ثم يليهم كافة أصناف الموحدين حسب درجاتهم فى التمييز .

وكان لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا فى سفر ولا فى حضر ، ولا ينزل كل صنف إلا فى موضعه لا يتعداه .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، نشر عبد الهادى التازى (بيروت ١٩٦٤) .

(٢) كان المهدى بن تومرت متشدداً فى تطبيق تعاليمه ولا يتردد فى تعزير المخالف بضربه بالسياط أو بقتله إن تمادى فى ذلك (ابن القطان ص ٢٩) .

(٣) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٨٨ .

(٤) آيت فى البربرية تعنى أهل أو بنى أو أولاد (filo de) .

(٥) ورد اسم هذه الطبقة آيت سبعين فى الحلل الموشية ص ٨٨ نقلاً عن أبى يحيى =

على أنه يلاحظ أن هذا الترتيب الطبقى أو الهرمى لأصناف الموحدين ، نجده غير موحد فى المصادر المعاصرة ، فهناك خلافات ونقصان وزيادات فى ترتيبها وأعدادها وأسمائها ، بحيث يمكن تتبع ذلك بسهولة فيها . ومن أهم تلك المصادر نذكر :

كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب لمؤلف مجهول (١) ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان ، وكتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، وكتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى .

وكان للموحدين سقائف مكسوة أو أسطوان ، أى قاعات تتسع لكل أصنافهم . وكان لهذه السقائف باب عام يعرف بباب الأسطوان يدخل منه الخليفة ويجلس فى داخله ، وقد عرفت هذه السقائف باسم منتيقمى بالبربرية (أى باب الدار) فهى بمثابة البرلمان فى العصر الحديث(٢) . وفيما يلى

= اليسع، وقد أنكره ابن القطان (ص ٢٩ - ٣٠٠) بقوله : وأما ما ذكره اليسع من أمر السبعين فلا أعرفه ولا أراه صحيحاً وإنما أعرف العشرة وأهل الخمسين . ويؤيد هذا خلو كلام البيذق ، وابن صاحب الصلاة ، وابن خلدون من ذكر السبعين . ومن المعروف أن اليسع صاحب هذه الرواية هو أبو يحيى اليسع بن عيسى الغافقى الجيانى أو البلنسى ، كتب لبعض الأمراء فى شرق الأندلس ثم رحل إلى مصر حيث صار مقرباً لصلاح الدين الأيوبى ، وكتب له كتاباً بعنوان « المغرب فى أخبار محاسن أهل المغرب » ، بل انه تطوع بأن يدعو للخليفة العباسى فى بغداد المستضىء بنور الله على منبر الفاطميين كتجربة أولية ، فصعد المنبر وجنود الأغزار حوله وسيوفهم مصلطة خوفاً عليه من الشيعة (ابن الآبار : المعجم ص ٣٢٢ ترجمة رقم ٣١٥ ، ابن القطان ص ٣٠ ، ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ١١٩) وتوفى اليسع بمصر سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م.

(١) كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب (أى أصحاب المهدى) نشره ليفى بروفنسال مع تاريخ أخبار المهدى للبيذق تحت عنوان :

(Lévi Provençal : Documents Inedits D'Histoire Almohade P. 29-48, Paris 1928) .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٧٥ ، ٤٢٠ ؛ هوبكنز : النظم الاسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ص ١٨٨ ، نقله عن الانجليزية د. أمين توفيق الطيبى (ليبيا - تونس سنة ١٩٨٠) ؛

J. Hopkins : Medieval Muslim Government in Barbary (London 1958) .

عرض موجز لأهم أصناف أو طبقات الموحدين على اعتبار أنها أساس الجيش الموحدى .

(١) العشرة أو أهل الجماعة : وهم مستشارو المهدى ومعاونوه فى إدارة حكومته . وقد أورد صاحب كتاب الأنساب(١) المهمات المنوطة بكل واحد منهم فقال :

«فمن ذلك أهل الجماعة ، رضى الله عنهم ، أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن على ، كان الإمام المهدى ، رضى الله عنه ، يسميه صاحب الوقت ، واختصه بفرس أخضر . وسليمان آحضرى ، وكان يكتب الرسائل عن إذن الإمام المهدى ، واستشهد يوم البحيرة رحمه الله (٢) . وأبو ابراهيم اسماعيل بن بسلالى الهزرجى ، وكان يقضى بين الناس عن إذن الإمام . وأبو عمران موسى بن تمارى الجدميوى ، وكان أمين الجماعة ، واستشهد يوم البحيرة . وأبو عبد الله محمد بن سليمان وكان يؤم فى الفريضة عن إذن الإمام المهدى، واستشهد يوم البحيرة . وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتانى(٣) ، اختصه الإمام المهدى بالدرقة ودعا له بالبركة . وأيوب الجدميوى وهو الذى تولى قسمة الإقطاع بين الموحدين أول الأمر . وأبو عبد الله محمد بن محسن البشير وهو الذى تولى عملية تمييز قبائل الموحدين .

(٢) أهل الخمسين : وهم يلون العشرة ، وهم من أشياخ الموحدين وبمثابة مجلس الشعب فى عصرنا الحديث . وقد أورد أسماءهم كل من ابن القطان وصاحب كتاب الأنساب مع وجود خلافات بينهما . وتجدر الملاحظة

---

(١) كتاب الأنساب ص ٣٢-٣٣ .

(٢) حدثت موقعة البحيرة بأحواز مدينة مراكش سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م بين المرابطين بقيادة الشيخ أبى محمد بن وانودين وبين الموحدين بقيادة الشيخ أبى محمد بن محسن البشير الذى قتل فى هذه المعركة وقتل معه عدد كبير من المصامدة وانتهت بهزيمة الموحدين.

(٣) اسمه فصكه بن ومزال وسماه ابن تومرت باسم عمر وكناه أبا حفص ، وهو المشهور بعمر اينتى ، وهو جد الحفصيين بتونس بعد ذلك . واسم الهنتاتى نسبة إلى جبل وقبيلة هنتانة المصامدة بجبال أطلس .

هنا بصدد مجلس العشرة والخمسين ، أن الأسماء التى أوردها كتاب الأنساب عن أهل الجماعة أو العشرة كانت تزيد على العشرة ، كما أن الأسماء التى أوردها ابن القطان عن أهل الخمسين كانت تقل عن الخمسين وتخرج من هذه الملاحظة أن الغرض من هذه المجالس هو أسماؤها كأنظمة حربية بربرية بغض النظر عن عدد أعضائها ، أى أنه ليس من الضرورى أن يرتبط اسم المجلس بعدد أعضائه فى كل وقت . وقد يوضح هذه الفكرة ما نراه اليوم متبعاً فى النظام القبلى بالمغرب حيث نجد أن مجلس القبيلة يسمى آيت أربعين مع أن عدد أعضائه قد لا يصل إلى نصف هذا العدد .

ولقد استمر العمل بنظام هذه المجالس العشرة والخمسين منبعًا بعد عهد الموحدين فى زمن الدولة الحفصية بتونس(١) .

(٣) الطلبة : وكانوا يحتلون مكانة مرموقة فى الدولة الموحدية ، وقد قسمهم صاحب المعجب إلى طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر :

أ) طلبة الموحدين : كانوا ممن عنى بالعلم من المصامدة ثم سموا بالموحدين بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين . وكان الأشياخ من طلبة الموحدين يحضرون مجالس الخليفة ، ويصحبونه فى سفره حيث يقرأون خلفه حزبًا من القرآن فى نهاية الترتيب وهم سائرون سيراً رفيقًا ، ثم شيئًا من الحديث ، ثم يقرأون تآليف ابن تومرت فى العقائد بلسانهم وباللسان العربى(٢).

ويبدو أن طلبة الموحدين كانوا يعملون بمثابة عمال أو رسل الدولة فى سائر أنحاء بلاد المغرب والأندلس . فهناك إشارات فى كتاب البيذق لأبى بكر الصنهاجى إلى أسماء طلبة الموحدين الذين أرسلوا إلى القبائل . كذلك يلاحظ أن الرسائل الرسمية الموحدية كانت موجهة إلى الطلبة فى مختلف مدن المغرب والأندلس مما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ إدارى كبير . مثال

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس ص ٩ وما بعدها ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة البدر بتونس .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٤٢ .

ذلك ابن صاحب الصلاة – الذى يبدو أن يكون هو نفسه واحداً منهم[1] – فى قوله :

« ووجه الخليفة عبد المؤمن وزيره عبد السلام الكومى فى قطعة من قطع البحر إلى جزيرة الأندلس ليتطلع أحوالها فى أقرب مدة ، فوصل إلى اشبيلية ثم إلى قرطبة ثم إلى غرناطة ، وتطلع أحوال الأندلس كلها ، وأنهى إلى الطلبة الذين فيها الأوامر العزيزة التى حملها وانصرف إلى أمير المؤمنين بسلا فى خمسة عشر يوماً غاب عنه » [2]. ولعل أبلغ تعبير يدل على سمو مكانة طلبة الموحدين تلك العبارة التى نعتهم بها الخليفة يعقوب المنصور قبيل وفاته حين قال : وهؤلاء الطلبة يعنى السادات ... الخ[3] أى أنه جعلهم فى مرتبة الأمراء.

ب) *طلبة الحضر* :أما طلبة الحضر فهم العلماء الذين كان خلفاء الموحدين يجمعونهم من شتى أنحاء دولتهم فى عاصمة ملكهم مراكش . فهم يكثرون فى بعض الأوقات ويقلون كما يقول صاحب المعجب [4] . ولقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء بعض أشياخ طلبة الحضر مثل أبى عبد الله محمد بن عيسى الأنصارى المالقى شيخ طلبة الحضر عند الخليفة عبد المؤمن كما كان وزيره وأمينه ، وكان فقيهاً وخطيباً مفوهاً وأديباً وتوفى بمراكش سنة ٥٧٤هـ[5] ومثل الخطيب على بن محمد بن خليل المعروف بابن الأشبيلى شيخ طلبة الحضر على عهد عبد المؤمن وكان الخطيب بين يديه عند حضور الوفود وتوفى بمراكش سنة ٥٦٧هـ[6] . ومثل العلماء أبى بكر بن الجد ، وأبى

---

(١) هويكنز : النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ص ١٨٦ ترجمة أمين توفيق الطيبى .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٧٣–١٧٤ نشر عبد الهادى التازى .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٠٨ .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٤٢ ، هويكنز : نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٥) ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ترجمة رقم ١٣٩٤ .

(٦) « « : « « « « ١٨٦٢ .

بكر بن طفيل[١] ، والفيلسوف ابن رشد وغيرهم ، كانوا كلهم من أشياخ طلبة الحضر على عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، ويصاحبونه فى أسفاره[٢] .

(٤) **الحفاظ** : يفهم من كتابات المؤرخين أن الحفاظ هم صغار الطلبة أو الشباب المغربى والأندلسى الذين حرص خلفاء الموحدين على إعداده وتربيته تربية عسكرية اسلامية ، وتأهيله لتولى مناصب الإدارة والقيادة فى الدولة . وقد سبقت الإشارة إلى النظم التربوية التى اتبعها الموحدون فى سبيل إعدادهم لهذا الهدف ، مثلهم فى ذلك مثل طلبة الموحدين كذلك . وهذا التقارب قد يرجح أن الطلبة والحفاظ كانوا من طائفة واحدة . مثال ذلك قول ابن صاحب الصلاة : « وضبط اشبيلية السيد الأعلى أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه بسعده وحزبه وبمن كان عنده من حفاظ الموحدين الكبراء ، وطلبتهم أعزهم الله »[٣] .

ويقول ابن عذارى فى وصف شجاعتهم : « وفى سنة ٦٠٦ هـ ثبت الشيخ أبو محمد بن أبى حفص ، صاحب افريقية بمركزه بقلب الساقة مع من كان معه من أهل الحفاظ الصابرين »[٤] .

(٥) **أهل الدار** : هؤلاء كانوا جماعة من أصحاب المهدى الذين اختصوا بخدمته ليلاً ونهاراً . ويبدو من المصادر أن بعض رجال هذه الطبقة كانوا يحملون أيضًا بعض ألقاب الطبقات الأخرى مثل العشرة والخمسين والحفاظ . ولعل ذلك كان من باب التشريف فقط .

ومن الشخصيات البارزة فى هذه الطبقة : أبو محمد واسنار الذى كان مختصاً بخدمة المهدى ، وقد وصفه عبد الواحد المراكشى بقوله : « وهو رجل

---

(١) يروى عبد الواحد المراكشى (المعجب ص ٣١٢) أن أبا بكر بن طفيل كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٩٦ – ٢٩٧ .

(٣) « « « « : « ص ١١٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٣١ – ٢٣٢ (القسم الثالث الخاص بالموحدين (تطوان سنة ١٩٦٠) .

دبّاغ أسود من أهل مدينة أغمات ، صحب ابن تومرت حين مرّ بها ، فاختصه لخدمته لما رأى من شدته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس ، وحجابته ، والخروج بين يديه . فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابن تومرت سنة ٥٢٤هـ فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك . وتوفى واسنار هذا فى صدر دولة أبى يعقوب يوسف بعد أن علت سنّه ، (١).

(٦) **قبائل الموحدين :** هم قبائل الموحدين الأصليين التى انضمت إلى المهدى بمقتضى عملية التمييز التى قام بها أحد أصحاب المهدى المقربين وهو أبو عبد الله محمد بن محسن البشير . ثم يلى هؤلاء أسماء القبائل الأخرى التى انضافت إليها بعد ذلك وعرفت باسم المضاف أو المهاجرين . ولقد آخى البشير فى هذا التمييز بين الموحدين الأصليين وبين المهاجرين أو المضافين ، تشبهاً بما فعله الرسول (ﷺ) فى إخاء المهاجرين بالأنصار . وتعطينا المصادر قائمة بأسماء هذه القبائل الموحدية عموماً . وتتفق جميعها على أسماء هرغة ، وأهل تينملل ، وهنتاتة ، وجدميوه ، وجنفيسة ، ولكنها تختلف حول بعض القبائل الأخرى مثل كومية الزناتية ، فالبعض يذكرها والبعض لا يذكرها . وهذا أمر طبيعى لأن قبيلة كومية فى بداية الدعوة الموحدية كانت تعيش بعيداً عن المغرب الأقصى فى نواحى تلمسان بالمغرب الأوسط على ساحل البحر المتوسط ، ولا يمثلها فى مدينة مراكش سوى أفراد قلائل أمثال عبد المؤمن بن على الكومى . ولكن عندما ولى عبد المؤمن خلافة الموحدين بعد المهدى ، عمل على تدعيم مركزه باستدعاء قبيلته كوميه . فهاجرت إلى المغرب الأقصى فى جموع كبيرة حتى صارت على رأس القبائل الموحدية ، وفى ذلك يقول صاحب المعجب :

، ثم قبيلةعبد المؤمن ، تسمى كومية ، وهى قبيلة كثيرة العدد ، جمّة الشعوب ، لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذكر فى رياسة ، ولاحظ من نباهة ، وإنما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم ، وأصحاب أسواق يبيعون

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٣٨ – ٣٣٩ وكذلك (هويكنز : نفس المرجع ص ١٦٢) .

فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع ! فتبارك المعزّ المذل المعطى المانع ! فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ، ولا تطاول أيديهم يد ، لكون عبد المؤمن منهم » (١).

(٧) **عبيد المخزن** : المخزن اسم يطلق فى المغرب الأقصى حتى الآن على دوائر الحكومة بصفة عامة والإدارة المالية بصفة خاصة . ويفهم من كلام البيذق ، أن طبقة عبيد المخزن فى أصل تكوينها ، كانت من العبيد السود ، وذلك فى قوله فى الباب المخصص لغزوات المهدى : «اعلم يا أخى أن الله تعالى لما أزعج سيدنا المعصوم لغزاة تازاكورت Tazagurt، فتحها الله وكانت يومئذ بلا سور ، فأخذنا بها عبيداً ، فقال المهدى لميمون الكبير : « خذ هؤلاء اخوتك » ، أى فى اللون ، وكانت ألفتهم مع عبيد آزليم Azallim (أى الذين أسروا فى أزليم) فسماهم المعصوم عبيد المخزن» (٢).

فإذا كان المراد بعبيد المخزن – على هذا الأساس – هم العبيد السود من أهل غانية والسودان ، فإنه من المعروف أن الموحدين قد اتخذوا منهم أعداداً كبيرة (٣). فيروى صاحب القرطاس أن الخليفة الناصر الموحدى كان لديه فى موقعة العقاب ثلاثون ألف عبد يمشون بين يديه ويدورون حوله بالحراب(٤) .

كذلك يشير صاحب المعجب إلى الخصيان والعبيد السود الذين اتخذهم خلفاء الموحدين حجاباً لهم مثل أبى المسك كافور الخصى الذى كان حاجباً للخليفة أبى يعقوب يوسف ، ومثل عنبر الخصى ، وريحان الخصى من حجاب ولده أبى يوسف يعقوب المنصور » (٥).

ويبدو أن اختلاط الموحدين بالسودانيات قد انعكس على لون بعض أفراد

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٣٩ .

(٢) أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٧٧ (نشر بروفنسال) وص ٧٠ (نشر حاجيات) .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب (القسم الثالث) ص ١٧٤ ، ١٨٠ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢٤٠ .

(٥) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣١٠-٣٣٨ .

ذريتهم مثال ذلك الخليفة الموحدى أبو الحسن على بن ادريس المأمون بن يعقوب المنصور الملقب بالسعيد ، وكان أسود اللون حتى قيل إن والى سجلماسة عبد الله بن زكريا الهزرجى رفض مبايعته ، وقال : كيف أبايع أسوداً حبشياً!؟(١).

وعلى الرغم من هذا الاعتقاد السائد بأن عبيد المخزن كانوا من السودان، فإن بعض المصادر خالفت هذا الرأى مثل كتاب الأنساب الذى أطلق اسم عبيد المخزن على قبائل لمطة وجزولة وغيرها من قوات المرابطين التى استسلمت للموحدين وانضمت لطبقة عبيد المخزن (٢). أما العمرى ، فإنه حين يتكلم عن الدولة الحفصية وموكب السلطان الحفصى فى تونس ، فإنه يطلق اسم عبيد المخزن على أهل الأسواق وعوام البلد الذين كانوا يتقدمون الموكب مع عبيد جناوة (٣).

(٨) **الغزاة** : من المعروف أن الغزاة (جمع غازى) هم المجاهدون فى سبيل الله ، غير أن ابن القطان عرّفهم بقوله : « وهم الأحداث الصغار الأميون » . وقد ترجم ليفى بروفنسال لفظ الغزاة بكلمة Champions وفسرها بأنها الحرس الخاص بالإمام ، وأيده المستشرق الأسبانى أويثى ميراندا فى ترجمته لكتاب الحلل الموشية ، وأضاف كلمة الرماة Arqueros ملتزمًا بنص الحلل الموشية « الغزاة الرماة » (٤).

وقد اعترض الدكتور محمود مكى ، محقق كتاب ابن القطان ، على كلمة الغزاة ، وقال إنها لا بد وأن تكون « الغرّات » ، جمع غرّ ، كى يتفق معناها مع

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٣٥٩-٣٦٠ .

(٢) كتاب الأنساب نشر ليفى بروفنسال :

(Levi Provençial : Documents inedits P. 46) .

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس ص١٠ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، وكذلك (هوبكنز : نفس المرجع ص ١٧٠) .

(٤) الحلل الموشية ص ٨٩ حيث وضع الغزاة والرماة فى الصنف الثالث عشر .

الأحداث الصغار (١).

كذلك وردت كلمة الغزاة فى كتاب الأنساب بتفسير آخر مختلف يقول فيه : « والمضاف هم المسمون بالغزاة عن إذن أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب المنصور » (٢). بمعنى أن الخليفة المنصور قد أمر بإطلاق لفظ الغزاة على القبائل والعناصر التى كانت تضاف وتضم إلى الموحدين والتى كانت تسمى قبل ذلك بالمضاف والمهاجرين . ويبدو أن هذا التفسير الأخير أقرب إلى المعقول من تفسير ابن القطان لأنه يتمشى مع طبيعة نمو دولة الموحدين واتساعها .

ولم يلبث لفظ الغزاة أن اتسع مدلولة حتى شمل المحاربين فى البحر أيضًا، إذ صار يطلق عليهم غزاة البحر وغزاة الأسطول فى أواخر عهد الموحدين (٣) . أما فى البر فقد ارتقت مكانة الغزاة فى عهد دولة بنى مرين أو بنى عبد الحق عندما صاروا هم أنفسهم شيوخًا للغزاة فى الأندلس لأنهم كما يقال « يعسوب زناتة » أى أمراؤها ورؤساؤها (٤).

(٩) الطبّالة : أفرد لها كتاب الأنساب طبقة خاصة بها لأهميتها فى ميادين الحرب والسلام فى عهد الموحدين . كان أفراد هذه الطبقة من العبيد السود . وعلاقة الطبل بالسودان له ما يبرره حتى الآن ، إذ أن الطبل مازال يعرف باسم طبل جناوة نسبة إلى غينيا بين السنغال والكونغو فى السودان الغربى . يقول العمرى فى هذا الصدد : « وكانت تحدُّ افريقية جنوباً الصحراء

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٨ حاشية ٣، وقد وضعهم فى الصنف الرابع عشر والأخير ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبارة « الغزاة والرماة » ، تذكرنا بعبارة الأغزاز والرماة » التى وردت فى بداية عهد يوسف بن تاشفين أى قبل وصول الأغزاز الأتراك إلى المغرب (القرطاس ص ١٣٩ ، أعمال الإعلام ص ٢٣٥) وهذا يحملنا على الاعتقاد بوجود خلط بين الغزاة والأغزاز فى بعض المصادر.

(٢) كتاب الأنساب ٤٧ .

(٣) هويكلز : نفس المرجع ص ١٨٧ .

(٤) راجع كتابنا (دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٤٥) .

الفاصلة بينها وبين بلاد جناوة المسكونة بأمم السودان(١) . وسوف ترد الإشارة فى الجزء الخاص بالأسلحة إلى وصف طبول الموحدين الضخمة التى تسمع على مسيرة نصف يوم .

(١٠) **الجند أو الأجناد** : وهم الجنود النظاميون المحترفون أو المرتزقة الذين يتقاضون أجراً ثابتاً على رأس كل شهر . فهم فى أوقات ينضمون إلى الجيوش المحاربة ، وفى أوقات السلم ينضمون إلى الحرس الخاص بالسلطان أو الخليفة فى العاصمة مراكش . ولعل السبب فى استخدامهم يرجع إلى أن الجندى الغريب عن وطنه يكون فى العادة أكثر طاعة وأشد ولاء للسلطان من أى فرد آخر من ذوى النفوذ القبلى أو العائلى . فلو أنه فكر يوماً فى العصيان أو الثورة ، لما وجد تأييداً أو سنداً محليًا من الأهالى بحكم كونه غريبًا عنهم ولا تربطه بهم روابط الدم أو العصبية . ولهذا كان من الطبيعى أن يكون ولاؤه لسيده وولى نعمته الخليفة أو السلطان .

وكانت المدن هى المكان الطبيعى المناسب لإقامة هؤلاء الجند الغرباء ، إذ ليس من المعقول أن يتركوا المدن ويقيموا فى البوادى بجوار قبائل البربر التى قد لا تنسجم معهم . ويمكن أن يقال مثل هذا الكلام على سكان البوادى الذين فضلوا ترك مواطنهم الأصلية وهاجروا إلى المدن حيث عاشوا فيها كغرباء بعد أن انقطعت الصلة بينهم وبين أهليهم وعشائرهم .

ولما كان الموحدون قد نشأوا فى الأصل على نظام قبلى فى جبال أطلس بعيداً عن المدن وأهلها ، فإنهم بعد أن احتلوا المدن المغربية ، وجدوا أن أهالى تلك المدن لا محل لهم فى طبقاتهم أو أصنافهم العسكرية ، ولهذا عملوا على تجنيدهم كقوة عسكرية منفصلة وأطلقوا عليها اسم الجند أو الأجناد . هذا ما يمكن استنتاجه من النصوص التى وردت فى هذا الصدد : فصاحب كتاب روض القرطاس يفرق دائمًا بين الجند وقبائل الموحدين(٢) . وكذلك ابن

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية ، ص ٢ ، مجلة البدر ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٤٠ .

صاحب الصلاة فى قوله : فتقدم السيد أبو سعيد بالموحدين والجند الأندلسيين حتى وصل فحص غرناطة (١).

ويقول عبد الواحد المراكشى فى هذا الصدد : « وللمصامدة (أى الموحدين) بعد هذا جند من سائر أصناف الناس كالعرب والغز والأندلس والروم وقبائل من المرابطين وغيرهم» (٢) .

أما صاحب كتاب الأنساب فيعرف الجند بأنهم من أهل أغمات وغيرهم من أهل الحضر (أى المدن)(٣) . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن جيش الموحدين كان ينقسم بصفة عامة إلى طبقتين ، أو صنفين وهما :

أ- الجند : وهم الجيش الثابت الذى يعسكر فى العاصمة والمدن الكبرى .

ب- القبائل : وهى التى كانت تقيم فى موطنها ولا تحمل السلاح إلا إذا دعيت إلى الحرب والجهاد .

وقد يوضح هذا التقسيم قول عبد الواحد المراكشى :

«وجيوش الموحدين صنفان :

الصنف الأول : يُدعون « الجموع » وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها . والصنف الآخر : يدعون « العموم » وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا فى النفير الأعظم (٤).

فالجموع هنا ترادف كلمة الجند ، **والعموم** ترادف قبائل الموحدين.

ويؤيد ذلك قول ابن عذارى : وأمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتفرق **العموم** ورجوع كل واحد منهم إلى قبيلته(٥) . وقوله فى مكان آخر : واستنفر

---

(١) ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة ص ١٩٢ .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٤١ .

(٣) كتاب الأنساب نشر ليفى بروفنسال ص ٤٧ .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٤١ وكذلك (هويكنز : النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسيط ص ١٨٢ - ١٨٣) .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب - القسم الثالث - ص ١٣٧ .

العموم من القبائل (١).

وإذا تناولنا أصناف الجموع أو الجنود المرتزقة ، نجد أنها متعددة الطوائف مثل : جموع الأندلسيين ، والأغزاز ، والعرب ، والأكراد ، والروم ، وغيرهم كما هو مبين فيما يلي :

أ- **الأندلسيون** : تطوع عدد كبير من الأندلسيين كجنود مرتزقة في الجيش الموحدي بالمغرب ، وكان مقرهم العاصمة مراكش ، ويؤيد ذلك قول ابن صاحب الصلاة :

« واختص السيد الأعلى أبو حفص بن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، من الصنف الأندلسي أشياخًا فرسانًا أبطالاً من الأجناد الساكنين بحضرة مراكش من أهل الأندلس ، انتخبهم ، واستصحبهم مع نفسه لمعرفتهم بالأندلس وحروبها ولغاتها » (٢).

وهناك قصة طريفة لها صلة بهذا الموضوع رواها عن نفسه ولي الله الشيخ الصوفي أبو مدين شعيب الأنصاري الأندلسي دفين تلمسان سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م ، وقد أوردها ابن الزيات التارلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف يقول فيها :

« حدثني محمد بن ابراهيم الأنصاري قال : سمعت أبا مدين يحدث ببدء أمره يقول :

« كنت بالأندلس يتيمًا ، بنواحي اشبيلية ، فجعلني اخوتي راعيًا لهم لمواشيهم ، فإذا رأيت من يصلي أو من يقرأ . أعجبني ودنوت منه ، وأجد في نفسي غمًا لأنني لا أحفظ شيئًا من القرآن ولا أعرف كيف أصلي . فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة . ففررت ، فلحقني أخي وبيده حربة ، فقال لي : والله لئن لم ترجع لأقتلنك ! فرجعت وأقمت قليلاً ، ثم قويت عزيمتي على الفرار ليلاً ، وأسريت ليلة وأخذت في طريق آخر ،

---

(١) ابن عذاري : نفس المصدر ص ١٩٨ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٠٠ نشر عبد الهادي التازي .

فأدركنى أخى بعد طلوع الفجر ، فسلّ سيفه علىّ وقال لى : والله لأقتلنّك وأستريح منك ! فعلانى بسيفه ليضربنى ، فتلقيته بعود بيدى ، فانكسر سيفه وتطاير قطعًا ! فلما رأى ذلك قال لى : يا أخى ! إذهب حيث شئت ! فذهبت إلى البحر وعبرت إلى طنجة ، ثم ذهبت إلى سبته، فكنت أجير الصيادين، ثم ذهبت إلى مراكش فدخلتها ، وأدخلنى الأندلسيون معهم فى جملة الأجناد ، فكانوا يأكلون عطائى ولا يعطوننى منه إلا اليسير . فقيل لى : إن رأيت أن تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس ، فتوجهت إليها ولزمت جامعها ... الخ (١) .

يتضح من النص السابق أن الأندلسيين انخرطوا فى جلة الأجناد أو الجنود المرتزقة المقيمين فى العاصمة مراكش . وكانوا فى العادة من المشاة الرماة ، ويرمون بقوس الرجل أو القسىّ الفرنجية التى اعتاد على استعمالها أهل الأندلس(٢) .

ب- **الغز أو الأغزاز :** المعروف أن الأغزاز أو الغز ، هو الاسم العربى لقبائل الأوغوز التركية التى هاجرت من أواسط آسيا إلى شرق العالم الإسلامى حيث اعتنقت الإسلام ومنهم كانت دولة السلاجقة وممالكيها الأتراك الذين

---

(١) ابن الزيات التادلى (توفى سنة ٦٢٧هـ) : التشوف إلى رجال التصوف ص ٣١٧ ، نشر أدولف فور (الرباط ١٩٥٨) ومن المعروف أن الشيخ أبا مدين شعيب الأنصارى الأندلسى ، لما انتقل إلى المغرب درس على مشايخ عصره مثل أبى يعزى يلنور ، والدقاق . ثم ذهب إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وهناك قابل عبد القادر الجيلانى مؤسس طائفة القادرية أو الجيلانية ، فدرس عليه ولبس خرقة التصوف على يديه . ولما عاد إلى المغرب استقر فى بجاية بالجزائر ، ودرس عليه عدد كبير من المتصوفة المعروفين أمثال سيدى حرازم ، ومحيى الدين بن عربى . وفى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧ م استدعاه الخليفة الموحدى يعقوب المنصور إلى العاصمة مراكش فرحل إليها ولكنه توفى قرب تلمسان ودفن فى قرية العباد خارجها .

راجع شعره الدينى فى (كتاب الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان ، نشر عبد الحميد حاجيات الجزائر سنة ١٩٨٢) وكذلك (أحمد بابا التمبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ١٢٢٧ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٣٤٢ ، نشر محيى الدين عبد الحميد) .

(٢) ابن هذيل : حلية الفرسان وشعار الشجعان ص ٢١١ نشر محمد عبد الغنى حسن (مجموعة ذخائر العرب رقم ٦) .

شاركوا فى تكوين جيوش الدولة الأيوبية فى الشام ومصر ، وانساح بعضهم غرباً إلى افريقية حيث عرفوا هناك باسم الغز أو الأغزاز فى القرن السادس الهجرى (١٢م) . والعجيب فى الأمر أن بعض المصادر المغربية أشارت إلى استخدام الأغزاز فى جيوش المغرب كجنود مرتزقة فى أواسط القرن الخامس الهجرى (١١م) أى قبل تاريخ وصولهم إلى هناك بنحو قرن من الزمان . فيروى كل من ابن الخطيب ، وابن أبى زرع أن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين استركب فى بداية عهده « الأغزاز والرماة » سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م (١) . ولعل صحتها « الغزاة والرماة » لأن هذا التاريخ متقدم عن موعد وصولهم إلى المغرب وهو القرن السادس الهجرى (١٢م) مع بداية عهد الموحدين(٢) .

ففى ذلك الوقت – أى فى القرن السادس الهجرى – بداية عهد الموحدين – كان يحكم مصر الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وكانت جيوشه تشتمل على طوائف مملوكية تركية تسمى بأسماء أساتذتها وقوادها مثل الأسدية (نسبة إلى أسد الدين شيركوه) ، والصلاحية (صلاح الدين) والعادلية (العادل أخوه) وهكذا . ويبدو أن المنافسات التى كانت تحدث عادة بين هذه الطوائف، قد دفعت ببعضها إلى ترك الديار المصرية ، ففى سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢ م خرجت طائفة من المماليك الأسدية بقيادة شرف الدين قراقوش التقوى(٣) مملوك الأمير تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب إلى المغرب الأدنى لعلها تجد منتجعاً هناك خارج مصر . فاستولت على طرابلس ودعت

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٥ – القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب – ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٣٩ .

(٢) من المعروف أن موقعة ملاذكرد التى انتصر فيها السلاجقة على البيزنطيين فى أعالى الفرات شمال بحيرة فان ، كانت فى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١ م . ومن ثمّ أخذت قواتهم فى الانتشار شرقاً وغرباً بعد ذلك .

(٣) يلاحظ أن قراقوش التقوى مملوك آخر غير بهاء الدين قراقوش الأسدى نائب صلاح الدين فى القاهرة ، وإنما هو قراقوس الغزى التقوى مملوك تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين الأيوبى صاحب حماة (٥٧٤–٥٨٦هـ) وجد المؤرخ أبى الفداء صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر .

لصلاح الدين وأنشأت جالية مملوكية تركية يبدو أنها كانت أصل العلاقات المضطرية بين مصر والمغرب أيام الأيوبيين والمماليك(١).

ولقد أشار صاحب المعجب إلى بداية ظهور الغز فى المغرب بقوله : « وفى أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف الموحدى ، ورد علينا أول من وردها من الغز وذلك فى آخر سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) ومازالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف يعقوب المنصور » (٢).

ولقد اقترنت أحداث ظهور الغز فى المغرب بأحداث ثورة بنى غانية المرابطين حكام جزر البليار الذين ثاروا ضد الموحدين وأعلنوا عودة حكم المرابطين والدعاء لبنى العباس في بغداد ، وخرجوا بأساطيلهم نحو سواحل تونس والجزائر وبلاد الجريد ، واستولوا على أهم مدنها ، وتحالفوا مع أعراب بنى هلال وسليم المقيمين هناك ، كما تحالفوا أيضًا مع جنود الغز المرتزقة بقيادة قراقوش التقوى الغزى ، وأخذوا يثيرون الفتن هناك ضد نفوذ الموحدين فى شمال افريقيا ، وتمكنوا من قتل قائدهم أبى الحسن بن الربرتير ، وعدد كبير من أشياخ الموحدين عند بلدة عمرة من أعمال قفصة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م .

وأمام هذا الموقف المتدهور ، اضطر الخليفة الموحدى يعقوب المنصور إلى الخروج إليهم بجيوشه وأساطيله ، وحرص على عدم استصحاب عرب المغرب الأقصى معه خوفاً من خيانتهم وانضمامهم إلى اخوانهم عرب افريقية بدافع العصبية . وعند بلدة الحمّة شمالى توزر فى بلاد الجريد ، وفى يوم كثير الضباب ، انتصر المنصور على الثوار ، وفر على بن غانية المعروف بالميورقى إلى الصحراء محتمياً بها فمات فيها وخلفه أخوه يحيى من بعده سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٨م .

أما قراقوش وجنوده الأغزاز وحلفاؤه الأعراب ، فقد عفا عنهم المنصور

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ١ ص ٤٢ ، نشر جمال الدين الشيال) راجع كذلك (دائرة المعارف الاسلامية مادة « الترك » كتبها بارتولد .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٩ .

واصطنعهم فى جيوشه ، وأرسل عدداً كبيراً منهم إلى الأندلس برسم الجهاد (١).
وتشير المصادر إلى أن الأغزاز والرماة كانوا فى مقدمة جيش المنصور فى موقعة الأرك Alarcos المشهورة بالأندلس التى انتصر فيها على الأسبان بقيادة الفونسو الثامن سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م (٢).

ويبدو أن المنصور كان معجباً بشجاعة هؤلاء الغز وإخلاصهم إذ بالغ فى إكرامهم واصطحب قادتهم معه فى رحلاته وتنقلاته . ويروى صاحب المعجب فى هذا الصدد قصة طريفة تقوم على نبوءة للمهدى ابن تومرت بأن أمراء أهل مصر سوف يستظلون بشجرة الخروب التى أمام المسجد فى تينملل . فحينما جاء يعقوب المنصور وجلس مع قواد الغز تحت الشجيرة ، احتفل الناس بذلك واتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساء يولولن ويضربن بالدفوف ويقلن صدق مولانا المهدى ! (٣)

ويضيف صاحب المعجب أن الخليفة المنصور جعل للغز مزية ظاهرة على أشياخ الموحدين إذ جعل للغز جامكية مستمرة كل شهر لا تختل ، بينما كانت جامكية الموحدين كل أربعة أشهر أى ثلاث مرات فى السنة ، وعلل ذلك بأن الغز غرباء ولا شىء لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، بينما كان للموحدين الإقطاعات والأموال المتأصلة (٤).

وقد أيد ابن عذارى هذا الكلام مشيراً إلى أن الخليفة المنصور أوصى بالأغزاز خيراً قبيل وفاته فى قوله : « وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها ، فاتركوها على ما رتبنا وربطنا لأن الموحدين لهم سهام (اقطاع)

---

(١) راجع التفاصيل فى (ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٦٢ - ١٦٩) وكذلك الرسائل السلطانية التى بعث بها المنصور إلى طلبة مراكش يصف فيها انتصاراته فى افريقية فى:

(Levi Provençal : Les trente -sept lettres officielles almohades P. 180-210).

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢٢٦ .

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٩١ .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٨٩ .

يرجعون إليها ، وليس للأغزاز سهام ، (١) .

ومنذ ذلك الحين استمر الجنود الغز يعملون فى جيوش الموحدين بل وفى جيوش دولة بنى مرين أو بنى عبد الحق بعد ذلك حيث وصفهم ابن الخطيب بقوله :

« وتقدمت كراديس الغز الرماة الناشبة » (٢) .

جـ- العرب : اعتمد الموحدون منذ بداية دولتهم على عرب افريقية الهلالية على نطاق واسع . وقد سبقت الإشارة إلى اعتماد المرابطين على طائفة منهم عقب تغريبهم من مصر إلى افريقية . ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن الموحدين كانوا أول من عمل على جلب العرب من افريقية على نطاق واسع للاشتراك معهم فى جهاد المسيحيين فى أسبانيا . وكان الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن بن على القيسى أول من فعل ذلك تقرّباً إليهم بحكم هذا الأصل العربى المشترك الذى أعطاه حقاً شرعيًا لخلافته الجديدة بالمغرب . وقد اقتفى أثره أبناؤه من بعده ، وأوعزوا إلى الشعراء اثبات ذلك فى كتاباتهم ، فنجد شعراء الموحدين يدعونهم بأبناء العم ويذكرونهم بصلة النسب ووشائج القربى التى تجمع الموحدين مع العرب فى قيس عيلان .

وقد نسب لعبد المؤمن نفسه قصيدة فى هذا الصدد يقول فيها مخاطباً العرب :

أقيموا على العلياء هُوجَ الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصواهلِ(٣)

وهناك قصيدة الفيلسوف الشاعر أبى بكر بن طفيل الذى خاطبهم بقوله :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادى واقتناء الرغائب(٤)

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٠٨ .

(٢) ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ٣١١ نشر أحمد مختار العبادى.

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤١٥ ، المعجب ص ٢٢٥ والمقصود بالهوج أى السريعة .

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٤١١ حاشية ٢ .

ويقال إنه لما وصلت هاتان القصيدتان إلى العرب فى افريقية والزاب والقيروان ، هبُّوا لتلبية النداء ومعهم أحمال الأموال ، والخيل العراب ، العتاق الأحساب ، المدربة عند الأعراب (١) .

كذلك عمد خلفاء الموحدين أثناء حملاتهم على المغربين الأدنى والأوسط، إلى جلب أعداد من كل قبيلة عربية بعيالاتهم وأبنائهم ، فعادوا ومعهم من عرب جشم ورياح وبنى عدى وغيرهم ، « ما يضيق بهم الفضاء ، على عدد الذباب وعدد الحصا » على حد قولهم(٢) .

ولقد عبر عدد كبير من هؤلاء الوافدين إلى الأندلس برسم الجهاد منذ عهد الخليفة عبد المؤمن الذى رتبهم فيها - كما يقول صاحب المعجب - فجعل بعضهم فى نواحى قرطبة ، وبعضهم فى نواحى اشبيلية مما يلى مدينة شريش وأعمالها ، فهم بها باقون إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١هـ (١٢٢٣م) وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير ، وزاد فيهم أبو يعقوب يوسف ، وأبو يوسف يعقوب (المنصور) حتى كثروا هنالك ، فبالجزيرة (أى الأندلس) من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرَّجالة » (٣).

أما فى المغرب فقد استقرت هذه القبائل العربية فى مواطن مختلفة ، نذكر على سبيل المثال : عرب زغبة الذين تحيزوا للموحدين ضد بنى غانية منذ بادئ الأمر ، فراعوا لهم ذلك فصيروهم السابقين الأولين من العرب عند التمييز لتقدمهم فى التوحيد (٤). كما جعلوهم يداً واحدة مع بربر بنى باديس فى حماية المغرب الأوسط . ثم انتقلت فروعهم من بنى عامر وبنى مالك والحصين إلى سكنى المغرب الأقصى بنواحى القنيطرة الحالية وسلا والعرائش وطنجة . وهناك عرب الخلط من جشم الذين أسكنهم يعقوب المنصور بسيط

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٤١٨-٤١٩ .

(٢) « « « : « ص ١٤٤ ؛ ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ١٩٩ .

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٢٦ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٣٥ ، ص ١٦٩ حاشية .

تامسنا (الشاوية) وكانت لهم بعد ذلك فتن وحروب مع خلفاء الموحدين وملوك بنى مرين . كذلك نذكر عرب سفيان وهم من جشم أيضاً الذين أسكنهم المنصور قرب مدينة آسفى ثم انتقلوا شمالاً إلى بسيط الغرب على ساحل المحيط . هذا إلى جانب عرب رياح من بنى هلال الذين نقل منهم المنصور قبائل قوية إلى المغرب الأقصى . وعرب المعقل ومنهم عرب الوداية بأحواز فاس وبلاد السوس قبل انتقالهم فى العصر العلوى إلى قصبة الرباط التى سميت باسمهم الوداية . ومن المعقل أيضاً ذوى حسان الذين سكنوا سهول شنجيط أو موريطانيا الحالية (١).

ولا شك أن هؤلاء العرب الوافدين قد ساعدوا على تعريب المغرب وصبغه بالطابع العربى هذا إلى جانب دورهم الإيجابى فى أعمال الحرب والجهاد فى أسبانيا .

غير أن المصادر المغربية تأخذ على هؤلاء الأعراب عدة سلبيات مختلفة نذكرمنها ما يلى :

١- الخوف من خيانتهم وانضمامهم إلى اخوانهم الثائرين مع بنى غانية فى افريقية لدرجة أن الخليفة يعقوب المنصور أضرب عن تجنيدهم عند تعبئة جيوشه التى قادها إلى هناك (٢).

٢- اتهامهم بعدم القدرة على القتال إلا على البسائط والأماكن الفسيحة ، أما الجبال الوعرة فلا قدرة لهم على القتال فيها (٣).

٣- اتهامهم بأعمال الفوضى والشغب واللامبالاة عند التمييز أو توزيع البركة ، أو عند العبور على الجسور أثناء سير الحملات .

---

(١) راجع التفاصيل فى (عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب جـ ١ ص ٤٢٠ - ٤٣٤ الرباط ١٩٦٨) وكذلك (مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر القبائل العربية فى الحياة المغربية خلال عصرى الموحدين وبنى مرين ص ٧١ وما بعدها ، الدار البيضاء سنة ١٩٨٢) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٥٨ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٥٠٧-٥٠٨ .

وكيفما كان الأمر ، وعلى الرغم مما يقال من أن الخليفة المنصور قد ندم على استجلابهم واستخدامهم ، إلا أنه فى الواقع قد أوصى بهم خيراً قبيل وفاته بقوله :

« وهؤلاء العرب تدارونهم وتلاطفونهم وتحسنوا إليهم ، ومن وفد عليكم منهم ، تعطوه وتحسنوا إليه غاية الإحسان ، وتشغلونهم بالحركات ، ولا تتركونهم للعطلة والراحات » (١).

ولقد استمر العرب الوافدون يساهمون بدور هام كجنود مرتزقة فى سياسة الدولة الموحدية والدول التى جاءت بعدها .

د- **الأكراد** : فى أواخر أيام دولة الموحدين ، فى القرن السابع الهجرى (١٣م) أى بعد مجىء الغز إلى المغرب بنحو قرن من الزمان ، نسمع عن فئة أخرى من الجنود المشارقة جاءت إلى المغرب ، وهم الجنود الأكراد . يقول ابن خلدون فى هذا الصدد :

« هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار ، لا أدرى عن أوليته أكثرمن أنه كردى من الأكراد الذين وقد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم بشهر زور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ، فمنهم من أقام بتونس ومنهم من تقدم إلى المغرب فنزلوا على أبى حفص عمر المرتضى الموحدى بمراكش (٦٤٦-٦٦٥هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م) . ثم تفرقوا بعد ذلك وصار قوم منهم إلى بنى مرين فى فاس ، وآخرون إلى بنى عبد الواد فى تلمسان (٢).

وعلى الرغم من اختلاف الأكراد عن الأغزاز ، فالأكراد شعب إيرانى الأصل لغة وتاريخًا بينما الأغزاز أتراك ، إلا أننا نجد خلطًا بينهما فى بعض المصادر المغربية ، فصاحب المعجب يشير إلى أن رجلاً من الأكراد يدعى عمر المقدم قتل أمير ميورقة عبد الله بن اسحاق بن غانية فى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م (٣)، بينما يرد فى كتاب الروض المعطار أنه

---

(١) ابن عذارى : نفس المصدر ص ٢٠٨ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣٣٧ (طبعة بولاق) .

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣١٥ .

غـزى (١).

ولعل اعـتـمـاد الأيوبيين الأكـراد على الغـز الأتراك أدى إلى هذا الخلط بينهما ، أو ربما جاء هذا الخلط نتيجة لأن الملك يغمراسن الزيانى من بنى عبد الواد اتخـذ فرقة من الغز ، وأخرى من الأكراد فى تلمسان خلال حكمه فى القرن السابع الهجرى (١٣م) ولا يبعد أن يكون الغز والكرد اختلطوا واندمجوا فى هذه الفترة المتأخرة بدليل اننا نجد شخصية كبيرة فى تاريخ بنى عبد الواد وهى شخصية موسى بن على كانت تعرف بالكردى والغزى فى آن واحد (٢).

هـ- الجنود الروم أو نصارى الأسبان : استخدم الموحدون جنوداً مرتزقة من الأسبان فى حدود ضيقة فى بادئ الأمر ، فنسمع عنهم ضمن الجيوش التى أرسلها الخليفة عبد المؤمن إلى بلاد السوس للقضاء على ثورة محمد بن عبد الله الماسى الذى تلقب بالهادى وادعى الهداية اقتداء بالمهدى ابن تومرت سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م (٣).

يقول صاحب الحلل الموشية فى هذا الصدد :

« ووجه إليه عبد المؤمن جيشاً آخر ، وقدم عليه الشيخ أبا حفص بن يحيى الهنتانى ، ومعه جملة من الموحدين وطائفة من النصارى وغيرهم من الأجناد ، واستعدوا للقائه بالسوس غاية الاستعداد ، فانهزم وقتل (أى الماسى) هو وكثير من أهل عسكره ، وتخلص الملك بعد ذلك بالمغرب لعبد المؤمن»(٤).

كذلك يروى البيذق أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قتل قائداً من

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٩ نشر بروفنسال .

(٢) هويكنز : النظم الاسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ص ٥٢ (نقله عن الانجليزية أمين الطيبى) .

(٣) اسم ماسه يطلق على نهر من أنهار المغرب يصب فى المحيط الأطلسى جنوب أجادير بنحو ٦٥ك.م وكانت تقع عليه مدينة ماسة التاريخية التى يقال إن عقبة بن نافع وصلها فى فتحه للمغرب وقد اندرست وحل محلها رباط ماسة الذى ينسب إليه هذا الثائر (الصديق بن العربى : كتاب المغرب ص ١٠٢) .

(٤) الحلل الموشية ص ١٢١ نشر علوش .

هؤلاء النصارى يدعى جرانده الجليقى[1] Giraldo el Gallego بعد أن ثبت له خيانته ، وفى ذلك يقول :

« وأجاز النصرانى المسمى جرانده إلى مراكش ، ثم صرفه وأعطاه السوس ، فأرسل الكتب من السوس إلى الأشبونة (أى لشبونة) إلى ابن الرّنك Alfonso Enriquez بعلمه بمكانه من السوس فى ساحل البحر وقال له : لعلك تعمّر القطائع – أى السفن الحربية – لتأخذنى ونجد معكم . فأُخذ رسوله بكتب الدّلس (أى الخيانة) ، فوجه أمير المؤمنين إليه ، وجاء من السوس إلى مراكش ، فوجه الخليفة الكتب إلى بلدة درْعة لموسى بن عبد الصمد ، يذكر له إذا وجهنا لكم جرانده وأصحابه ، فقسموهم على القبائل واقتلوه لأنا أخذنا عليه كتب الدّلس . ثم أمر أمير المؤمنين لجرانده بالمشى إلى درعه (غربى سجلماسة) ، وقال له هى أحسن لك من السوس . فسارع مع أصحابه وكان عددهم ثلاثة مائة وخمسين من إيفْرَخان . فلما وصلوا ، فعل بهم موسى ما أمره أمير المؤمنين وذلك فى عام خمسة وستين وخمسمائة » [2].

---

(١) اشتهر هذا القائد جرانده بغدره وغاراته على المدن الاسلامية بغرب الأندلس حينما كان قائداً لملك البرتغال الفونسو انريكث (ابن الرنك) ثم اضطر إلى الاستسلام وطلب الأمان من الخليفة يوسف بن عبد المومن عقب ابرامه صلحاً مع ملك البرتغال المذكور سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م . وقد عفا عنه الخليفة وألحقه هو وأصحابه بجيوشه فى بلاد المغرب . إلا أنه ظل يكاتب سراً ملك البرتغالى مضمراً السوء للمسلمين مما جعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يأمر بقتله كما هو مبين فى المتن . ويشير ليفى بروفنسال إلى أن اسم جرانده مازال يطلق على مكان فى أرض دكالة فى الطريق بين مازيغان (الجديدة) ومراكش ، كما توجد بعض القلاع البرتغالية . راجع (البيذق : أخبار المهدى بن تومرت وكذلك الترجمة الفرنسية وما بها من تعليقات المترجم ليفى بروفنسال) وكذلك :

(A. Maitrot : Les Ruines dites Portugaises des Doukkala . Archives Berberes Vol. I fasc.4, Paris 1916 P. 283) .

(٢) البيذق : المصدر السابق ص ١٢٧ ويلاحظ أن البيذق أخطأ فى تاريخ مقتل جرانده إذ جعله فى سنة ٥٦٥هـ ، أى قبل قيام الخليفة يوسف بحملته على البرتغال سنة ٥٦٦هـ بدلاً من أن يكون بعدها أى بعد عقد الصلح بين الطرفين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م واعتقد أن هذا التاريخ الأخير هو تاريخ مقتل جرانده كما أورده ابن عذارى .

أما ابن عذارى فقد أورد رواية مختلفة يذكر فيها أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لما تأكد من خيانة هذا القائد جرانده أمر باعتقاله هو وأصحابه فى مدينة سجلماسة (تافيلالت) ثم همت نفسه فيها بالفرار ليجوز من أحد المراسى على المحيط ، فظهر منه ذلك فقتل وحزّ رأسه سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م(١) .

واستمر استخدام الموحدين لهؤلاء الجنود المرتزقة الأسبان فى حدود ضيقة نذكر على سبيل المثال القائد القشتالى بيطره بن فراندس Don Pedro Fernandez Castro الذى لأسباب وخلافات سياسية وعائلية بين أسرة لارا Lara وملك أسبانيا ألفونسو الثامن ، غادر بلاده غاضباً ودخل فى خدمة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور الذى رحب به وجعله مستشاراً له فى عملياته العسكرية . وظل هذا القائد بمدينة مراكش إلى أن مات سنة ٦١١هـ/١٣١٤م(٢) .

وحينما حلت الهزيمة بالموحدين فى موقعة العقاب Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م فى عهد الخليفة الناصر بن المنصور ، وأخذت دولتهم فى الضعف والاضمحلال ، أخذوا يتوسعون فى استخدام الروم أو الأسبان على نطاق واسع لتدعيم سلطانهم المنهار فى المغرب . مثال ذلك ما يرويه صاحب القرطاس من أن الخليفة أبا العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور طلب من ملك قشتالة فرناندو الثالث سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م أن يمده بجيش من الروم كى يجوز به إلى المغرب ويقاتل ابن أخيه ومنافسه يحيى بن محمد الناصر ، فقال له ملك قشتالة :

« لا أعطيك إلا على شرط ، أن تعطينى عشرة حصون مما يلى بلادى اختارها بنفسى ، وإذا منّ الله عليك ودخلت مراكش ، تبنى للنصارى الذين يسيرون معك كنيسة فى وسطها ، يظهرون فيها دينهم ، ويضربون فيها نواقيسهم فى أوقات صلواتهم . وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل اسلامه ويرد إلى اخوانه ، فيحكمون فيه بحكمهم . ومن تنصر من المسلمين فليس لأحد

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ص ٢٢٠ وكذلك :

(Aguado Bleye : Manual de la Hist. de Espana P. 656) .

عليه من سبيل . ووافق المأمون على جميع هذه الشروط القاسية ، فبعث إليه الملك الأسبانى جيشاً كثيفاً من اثنى عشر ألف فارس من النصارى(١) .

ولقد أشار ابن خلدون إلى هذه الرواية باختصار كما ذكر بعض شروطها مثل قوله :

« وأذن المأمون للنصارى القادمين معه فى بناء كنيسة بمراكش على شرطهم ، فضربوا بها نواقيسهم » (٢).

أما ابن عذارى ، فإنه خالف صاحب القرطاس فى تقدير عدد أفراد هذه القوة الأسبانية ، فقصرها على خمسمائة فارس فقط فى قوله :

« وكان المأمون قد وصل من الأندلس بنحو خمسمائة فارس من الروم ، وبمن كان معه من العرب والموحدين والجنود والحشود ، فقصد الروم إلى القبة الحمراء فمزقوها ووقعت الهزيمة على عساكر يحيى بن الناصر ، وهرب فاراً بنفسه ، لا يعلم يومه من أمسه ، وهزمه عمه هزيمة عظيمة » (٣).

وعلى الرغم من أن صاحب القرطاس مبالغ فى أقواله كعادته ، إلا أن هذا لا يمنع القول باحتمال ورود مثل هذه الشروط القاسية التى ذكرها بدليل أن كتاب ذلك العصر قد أنحوا باللائمة على الموحدين لأنهم استخدموا النصارى فى محاربة المسلمين ، ولأنهم سمحوا لهم بإقامة شعائرهم علناً وتحت إشراف قساوستهم فى العاصمة مراكش (٤).

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢٥٠ - ٢٥١ وكذلك (هويكنز : نفس المرجع ص ١٤٧) .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٥٣ ويقال إن يحيى بن الناصر أضرم النار فى هذه الكنيسة أثناء حروبه مع عمه المأمون الذى أزعجه هذا الحادث (ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٨١) وكذلك :

(Pierre de Cenival : L'Eglise Chrétienne de Marrakech , Hespéris , VII, 1927) .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٤) راجع على سبيل المثال ما ورد فى كتاب ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم لمؤلف مجهول ، نشر عبد القادر زمامة ، مجلة البحث العلمى ، بالرباط العدد ٣ .

ولقد أطلق كل من البيذق وصاحب القرطاس على هؤلاء الجنود الأسبان المرتزقة اسم إيفرْخان وبنى فرخان وهى كلمة بربرية مفردها أفروخ أى الفرخ ومعناها فى عامية المغرب الشاب أو الفتى الذى فى مقتبل العمر (١). ولقد سبق أن أطلق أمراء الأندلس على مماليكهم الصقالبة اسم الفتيان مثل الفتيان العامرية نسبة إلى المنصور بن أبى عامر .

ويبدو أن كلمة ايفرخان هى أصل المصطلح الأسبانى فارفانس Farfanes الذى أطلق فى أسبانيا على سلالات هؤلاء الجنود النصارى القاطنين فى المغرب بعد عودتهم إلى بلادهم (٢) .

وفى أواخر أيام الموحدين لعب هؤلاء الجنود المرتزقة الأسبان دوراً هامًا فى إقامة الخلفاء وعزلهم ، وساعدهم فى ذلك أن بعض زوجات الخلفاء كنّ أمهات ولد أسبانيات ، مثال ذلك حبابة الرومية زوجة المأمون التى أخفت موت زوجها عن العموم – أى الموحدين – سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م بينما أخبرت به قواد الروم وأشياخ عرب الخلط ، لتضمن الخلافة لولدها عبد الواحد الرشيد فكان لها ما أرادت (٣).

رابعًا : موارد الدولة والرواتب والبركات التى كانت توزع على أفراد الجيش :

كان الإنفاق على الأصناف العسكرية السالفة الذكر ، وعلى الحملات الحربية التى تقوم بها فى المغرب والأندلس ، يتوقف على ميزانية الدولة ومواردها المالية . ويفهم من المصادر المعاصرة أن الخليفة الموحدى الأول

---

(١) روض القرطاس ص ٢٥٣ وقد ورد فى الحاشية أن من معانى كلمة افروخ فى عامية المغرب ابن الزنا .

(٢) راجع :

(Levi Provençal : Documents Inedits D'Hist. Almohade P. 242)

وكذلك شرح كلمة Farfán فى المعاجم اللغوية الأسبانية وهو الأسبانى النصرانى القاطن بالمغرب فى العصور الوسطى .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب – القسم الخاص بالموحدين – ص ٢٨٢–٢٨٣ .

عبد المؤمن بن على ، قام بعملية مَسْح شاملة لأراضى الدولة ومواردها كى يتسنى له تقدير خراجها ، وفى ذلك يقول صاحب القرطاس :

« وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، أمر عبد المؤمن بتكسير (١) بلاد افريقية والمغرب ، من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ (٢) والأميال طولاً وعرضاً . فأسقط من التكسير الثلث في الجبال ، والشعراء ، والأنهار ، والسباخ ، والطرقات ، والحزون ، وما بقى قسّط عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق . فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب (٣).

كذلك يشيد صاحب المعجب بأموال الخراج الضخمة التى كانت تُرفع للخليفة يوسف بن عبد المؤمن من بلاد المغرب والأندلس فى قوله :

« وكان الذى يسهل عليه بذل الأموال مع ما جُبل عليه من ذلك ، سعة الخراج وكثرة الوجوه التى يتحصّل منها الأموال : كان يرتفع إليه خراج افريقية وجملته كل سنة وقر مائة وخمسين بغلاً ، هذا من افريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها ، والمغرب ... وجزيرة الأندلس ، وقد بلغنى من جهة رجل من أصحابنا ، كان يتولى بيوت الأموال قال لى :

« وجدت خرائط (حقائب) كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بختمها ! ثم يضيف معلومة مفيدة تدل على أن كلمة المغرب التى تطلق الآن على المغرب الأقصى أو المملكة المغربية ، كان لها مدلول تاريخى قديم ورد فى قوله : وحدّ عمل المغرب عندهم الذى يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون، طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبع مراحل (٤) ، وهى

---

(١) التكسير عند المهندسين تعني المساحة ، وكسّر الكتاب إلى عدة أبواب أى قسمه إلى عدة أبواب ، والمعنى هنا قياس الأرض وتقسيمها لتقدير خراجها .

(٢) من المعروف أن الفرسخ ثلاثة أميال .

(٣) روض القرطاس ص ١٩٨ – ١٩٩ ويفهم من هذا أنه أسقط الثلث من مساحة الأراضى الخراجية مقابل الأراضى والنواحى التى لا يستفاد منها كالحزون أى ما غلظ وارتفع من الأرض والشعراء أى الأراضى التى تكتنفها الأعشاب والرمال ... الخ .

(٤) المرحلة هى مسيرة يوم وتقدربنحو أربعين كيلومتراً .

أخصب رقعة فى الأرض » (١) .

وإلى جانب جبايات الخراج السالفة الذكر ، كان هناك دخل الزكاة والجزية والأعشار ومتحصل المناجم والغنائم الحربية والمصادرات ، إلى جانب محصول الذهب السودانى الذى كانت الدولة تسيطر على مسالكه الصحراوية وطرق قوافله الغربية من السنغال جنوباً إلى سجلماسة (تافيللت) والمغرب شمالاً .

وكان خلفاء الموحدين رغم مشاغلهم السياسية والحربية ، يتفقدون ويراجعون باستمرار شئون بلادهم المالية وهى التى عبروا عنها باسم الأشغال العملية أو الأشغال المخزنية (٢) . وكان المشرف على هذه الأمور المالية فى المغرب والأندلس يسمى بصاحب الأشغال(٣) .

ومن الطريف أن وزير المالية فى أسبانيا لايزال يسمى إلى الآن باسم : Ministro de Hacienda وترجمتها الحرفية وزير الأشغال ولكنها تعنى وزير المالية كما كان متبعاً فى الماضى بالأندلس .

وبهذا الرخاء الاقتصادى قويت الدولة الموحدية واستتب الأمن فيها حتى صار المرء – على حد قولهم – يسير فى طرقها من جبلها وسهلها آمناً فى نفسه وماله ، لا يخاف إلا الله أو الذيب » (٤) . وإن كان هذا القول لم يمنع من وجود حملات تطهير ضد الفساد الإدارى من حين لآخر ، وما كان يعقب ذلك من اعتقال وسجن ومصادره (٥) .

أما عن وسائل الإنفاق على الأصناف العسكرية المختلفة ، فيبدو أنها لا تختلف كثيراً عن الأنظمة السابقة التى تتكون من قسمين :

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٥٥-٢٥٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٠٠ ، ص ٢٢٦ – ٢٢٨ .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢ حيث يرد وصف ابن سعيد الغرناطى لصاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس على أنه أعظم من الوزير وأكثر اتباعاً وأجدى منفعة ، فإليه تميل الأعناق ونحوه تمد الأكف .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٨٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٥٩ .

القسم الأول ويشمل العموم أو قبائل الموحدين ، وهؤلاء لم تكن لهم رواتب ثابتة ، بل أرزاق أو اقطاعات عسكرية لزراعتها والاستفادة من دخلها بعد دفع ما عليها من خراج . وفى مقابل ذلك تساهم بأبنائها فى الحرب وقت النداء .

والقسم الثانى ويشمل الجموع أو الأجناد وهم الجنود المرتزقة النظاميون ، وكانوا يتقاضون رواتب شهرية حسبما هو مسجل فى ديوان التمييز .

هذا إلى جانب البركة أى الانعامات التى كان الخليفة الموحدى ينعم بها على الجميع من العموم والجموع عقب تمييزهم (عرضهم) ، أو عند كل مناسبة أخرى وذلك من دار البركة (١) . وكانت العملة السائدة فى المغرب هى الدينار والدرهم والقيراط والحبة .

ويفهم من كلام المؤرخين أن الدينار يقدر بعشرة دراهم ، وبأربعة وعشرين قيراطاً ، وأن القيراط ثلاث حبات فيكون مجموع الدينار ٧٢ حبة(٢) .

كذلك نسمع عن المثقال الحشمى فى الأندلس ، والذى يبدو من إسمه أنه مرابطى ، وقد أشار ابن الخطيب إلى تداوله فى الأندلس بين الثوار أيام الموحدين (٣) .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن الخليفة عبد المؤمن بن على أدخل تعديلاً على شكل نظام العملة السائدة فى المغرب ، إذ جعل الدراهم الفضية مربعة الشكل ، كما جعل الدينار الذهبى ، دائرياً وفى وسطه إطار مربع الشكل نقشت الكتابات بداخله . وهذه الطريقة المربعة لم تكن مستعملة من قبل ، إذ كانت دائرية . وفى ذلك يقول ابن خلدون :

« ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنّ لهم المهدى اتخاذ سكة الدرهم المربع الشكل ، وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ، ويملأ من

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٤٦ .

(٢) المن بالإمامة ص ٢٩٢ حاشية . وقد أورد لويس ماسينيون ما يفيد أن وزن الدينار الذهبى الموحدى ٤,٧٢٩ جرام .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٦٠ .

أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً ، ومن الجانب الآخر كَتْباً فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ، ففعل ذلك الموحدون ، وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد . ولقد كان المهدى – فيما نقل – ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع ، نعته بذلك المتكلمون بالحدثان(١) من قبله ، المخبرون فى ملاحمهم عن دولته ، (٢).

وواضح من كلام ابن خلدون أنه يشير إلى الأسطورة التى أثارها مؤرخو الدولة الموحدية حول المهدى ابن تومرت عندما قابل سلطان المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ، وأفحم فقهاءه فى المناظرة التى دارت معهم . عندئذ قال القاضى الفقيه مالك بن وهيب لعلى بن يوسف : ثقفه يا مولاى ، لأن هذا هو صاحب الدرهم المركَّن (أو المربع) ، واجعل عليه كبلا كى لا تسمع له طبلاً ، (٣). وعلى الرغم من أن ابن خلدون فى موضع آخر من كتابه قد انتقد هذه الأسطورة وقال ، إنها كلام سفساف سجع سوقى يتناقل الناس نصه ، (٤)، إلا أن الأمر الذى لا شك فيه هو أن هذه الأسطورة تتفق مع هذا التجديد الذى أحدثه عبد المؤمن فى نظام العملة الموحدية ، وسار عليه أبناؤه بعد ذلك (٥). وقد يفهم أيضًا من هذه القصة أن المهدى بن تومرت ضرب لنفسه عملة خاصة باسمه ، ولكن هذا لم يحدث أو على الأقل لم يصلنا شيء منه . فالمعروف أن أقدم عملة للموحدين ضربت فى عهد عبد المؤمن ونسبت إليه مثل الدينار المؤمنى ، وجاء بعده الدينار اليعقوبى نسبة إلى يعقوب المنصور .

---

(١) كان من وسائل الدعاية فى العصر الوسيط ما يعرف باسم الحدثان أو الارهاصات أو الأرجاف أو النبوءات بالمستقبل . راجع :

(Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes . Vol. I.P. 258) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٢ وكذلك (الأب أنستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النُميات ص ١٠٦ ، القاهرة ١٩٣٩) .

(٣) البيذق : أخبار المهدى ابن تومرت ص ٥٧ ؛ المعجب ص ١٨٥ – ١٨٦ ؛ السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٨٣–٨٥.

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٤٦٩ .

(٥) هوبكنز : نفس المرجع ص ١٧٩ .

يقول ابن عذارى :

وفى سنة ٥٨١ (١١٨٥) رأى يعقوب المنصور ، أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية ، وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الجارية ، فعظّم جرمة ، ورفع قدره بالتضعيف وسومه ، فجاء من النتائج الملوكية والاختراعات السرية ، جامعًا بين الفخامة والنماء الطيب وشرف الانتماء ... الخ .

قال أبو العباس الجراوى :

راق النضار عيـون الناظـرين وقـد غـدا اسمك المعتلى أعـلاه مكتتبا

ما ارتاب مبصرها فى كف ذاك وذا أن النجوم استحالت للورى ذهبا(١)

وعلى أساس هذا الرخاء الاقتصادى ، لم تتردد الدولة فى الانفاق بسخاء على جنودها وموظفيها الذين كانوا بدورهم مجندين . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تحديد مقدار هذه الرواتب ، إلا أنه يمكن أن نستشف ذلك من البركة السخية التى كانت توزع منذ عهد والده يوسف به عبد المؤمن على كل العاملين والقاطنين فى الدولة احتفالاً بقدوم أخيه السيد أبى حفص إلى العاصمة مراكش بعد انتصاره على الثائر محمد بن سعد بن مردنيش بالأندلس سنة ٥٦١ هـ، إذ أعطى بموجبها لكل فارس عشرين ديناراً ، ولأعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ، ولأشياخ العرب لكل واحد مائة دينار ، ولسائر عسكر العرب عشرين ديناراً لكل فارس ، فاجتمع لجميع الناس السرور ، (٢) .

خامسًا : التعبئة العامة والخروج إلى ميادين القتال :

١ – الاستعداد للقتال : كان الاستعداد لإرسال الحملات العسكرية إلى دار الحرب ، يبدأ عادة من شهر مايو حيث تكون المحاصيل الزراعية قد نمت ونضجت للاستفادة منها فى تموين الجيوش . وتبدأ حالة التعبئة العامة بإصدار الأوامر السلطانية وإطلاق المخاطبات إلى سائر الأقطار المغربية والأندلسية فى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٥٤ – ١٥ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

التأكيد على عمالها بالنظر فى ضرب الآلات الحربية ، وشراء الدروع المحكمة، وإعداد الجياد والأقوات وكل ما تحتاج إليه الجيوش من العدد (١) .

ونضرب مثالاً على ذلك بما رواه ابن صاحب الصلاة عن الخليفة عبد المؤمن بن على ، حينما عزم على العبور إلى الأندلس برسم الجهاد ، فأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادى سبو بالمعمورة (٢) ، ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به فى جيل من الأجيال ، بقى فى ذلك الموضع معدا من عام سبعة وخمسين وخمسمائة إلى عام اثنين وستين وخمسمائة ، حتى فنى فى أكداسه وعاد تراباً ورماداً باحتراق بعضه فى بعض ، وإفساد الزمان له فساداً . ونظر رضى اللّه عنه فى استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وافريقية ، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة ، والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس ، وقسّم ذلك كله على الموحدين أشياخهم وعامتهم ، وعلى العرب أجمعين ، وعلى الأجناد المرسومين المعينين (٣) .

وعندما يتم الاستعداد تعلن حالة الاستنفار فى جميع أنحاء البلاد ، فتتقاطر الجنود نحو الحاضرة مراكش بالمغرب ، ونحو مدينة اشبيلية حاضرة

---

(١) ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٧٤ ، ٢١٨ .

(٢) يقصد بالمعمورة مدينة المهدية الحالية التى تقع عند مصب وادى سبو بالقرب من بلدة القنيطرة على ساحل المحيط الأطلسى بالمغرب الأقصى . وقد سميت بالمهدية منذ أيام العاهل المغربى المولى اسماعيل سنة ١٦٨١م عندما ضيق الحصار على الجيش الأسبانى المرابط فيها ، فخرج راهبها مستسلماً وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان ، فأمنه وقبل هديته ، ثم دخل المدينة وسماها المهدية . وهى غير مهدية الفاطميين فى المغرب الأدنى ، وغير مهدية الموحدين التى صارت رباط الفتح عاصمة المغرب الآن . راجع: (عبد الهادى التازى : مهدية المولى اسماعيل ، مجلة المغرب ، مايو سنة ١٩٦٣) وكذلك:

(Caillé : La Ville de Rabat P. 63) .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ٢١٤-٢١٥ .

الموحدين المفضلة بالأندلس . وفى هذا الصدد يصف ابن عذارى حالة من حالات الاستنفار فى المغرب بقوله :

« ثم أشيع فى الجبال القِبلية (الجنوبية) والبلاد الغربية النداء بالجهاد ، فترادفت الأمم من الجبال والبسائط طامعين متطوعين ، وأتت أناس كثيرة من حبش غانية ، وعمرة الصحارى ، مبادرين ، فاجتمع بالحضرة (مراكش) من الأحمر والأسود وشتى اللغات من الحشود المطوعة ، وعموم الأعراب من الجنود من معدود وغير معدود ، ما أضاف بهم رحيب الفضاء ، وتكاثر عن العد والإحصاء » (١).

ولقد جرت العادة أن يخصص الخليفة بعد ذلك أياماً يقوم فيها بعرض سائر القبائل المتقدمة للغزو بأسلحتها سواء من الموحدين أو العرب وذلك فى ساحة خاصة تسمى بالبحيرة خارج العاصمة مراكش . وكانوا يطلقون على هذه العملية اسم « التمييز » وهى بمثابة مناورات عسكرية بهدف العرض والتدريب والتنظيم والتنسيق والانسجام بين فرق الجيش إلى جانب مراجعة أعداد جنودها على ما هو مسجل فى ديوان التمييز لتقدير مقدار البركة التى توزع عليهم قبل رحيلهم . يقول ابن عذارى فى وصف عرض من هذه العروض العسكرية :

« وفى يوم السبت الخامس لجمادى الآخرة من سنة ٥٧٩هـ ، أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بتمييز الموحدين والعرب والقبائل للغزو ، وابتدأ بتمييز القبائل والأجناد قبيلاً بعد قبيل ، وأمر بعمل عشرة مجانيق ، فصنعت ورمى الرجال بالحجارة قدامه ... وذلك التبريز بالبحيرة بخارج مراكش ، والناس ينظرون فى ذلك كل يوم . ودام هذا الحال شهر جمادى كله . وفى شهر رجب ارتحل الخليفة عن البحيرة إلى حضرة مراكش ودخل الباب الجديد باب الشريعة ، وهو أول دخول عليه »(٢) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٧٤ ، ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٢٨ .

أحياناً كانت تحدث بعض المآخذ التى يرتكبها جنود العرب الوافدين خلال عملية التمييز بغية زيادة أعدادهم وبالتالى زيادة عطائهم أو بركتهم مما يؤدى إلى حالة من الفوضى واللامبالاة فى نظام تمييزهم أو عرضهم . وقد سجل ابن صاحب الصلاة بعض هذه المآخذ مثل قوله :

« فلقد رأيتهم فى أيام التمييز ينزل الخارج من الدار المعظمة من تمييزه عن فرسه ويركبه آخر من الرجالة لهم ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته . وكان العربى إذا دخل يأخذ عمامة صاحبه فيبدأ بتعميمها وهى فى رأس الخارج ، فلا يزال يعتمها فى رأسه وهى تنحل من رأس صاحبه حتى تتم بأعجل الاستعجال بمرأى يضحك الحاضرين ، وكذلك فى إعادة الثياب وآلات الركوب ، يجرد بعضهم بعضاً على مرأى من الناس لا يهابون أحداً . وكان سيدنا الخليفة يغضى لهم على هذا كله ، لمعرفته بحاجتهم ، وليدرأهم إلى طاعته ، ولما فى نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله فيتألف قلوبهم بذلك . ويضيف ابن صاحب الصلاة أن كاتب ديوان التمييز ، أبا عبد الله بن محسن. لاحظ زيادة كثيرة بين أعدادهم فى العرض ، وبين ما هو مسجل عنده فى زمام تمييز العساكر ، فما كان منه إلا أن أحاط الخليفة أبا يعقوب يوسف علماً بذلك فأجابه بقوله : نفذ لهم البركة على ذلك ، إنما غرضنا الاحسان لأجنادنا ، وأن تظهر عليهم الخيرات والبركات ، فامتثلت ذلك » (١).

ولقد جرت العادة أن الخليفة الموحدى بعد عملية العرض أو التمييز ، وقبل الخروج للجهاد ، يقوم بتوزيع البركة على جنوده ، وهى تتضمن منحاً مالية وعينية كالنقود والخيول يقوم بتوزيع البركة على جنوده ، وهى تتضمن منحاً مالية وعينية كالنقود والخيول والأسلحة والزاد والعلوفات ... الخ . وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة وصفًا لهذه البركة التى كانت تصرف للجنود قبل خروجهم فى أيامه . قال :

« وجلس أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف فى مجلسه العالى ، وأشياخ طلبة الحضر ، وأشياخ العرب . وأمر لوزيره أبى العلى ادريس أن يأمر الخزانين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم ، فأحضرت أمامه ، وعلت

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٤٣٥-٤٣٦ .

أكداساً ، وجنّسها من الذهب والفضة أجناساً . وقدّم الموحدين فى تنفيذ البركة لهم ، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، ولغير الكامل ثمانية دنانير ، والراجل الكامل خمسة دنانير ، ولغير الكامل ثلاثة دنانير . وأمر للعرب ببركتهم ، فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً ، والراجل سبعة دنانير . وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً ، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار ، وكسا جميعهم بالقباطى والقمص والغفائر والعمائم . وأعطاهم السيوف المحلاة ، والدروع السابغات ، والبيض والقنا من الرماح الطوال ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم . وظهر على العرب والموحدين وعلى جميع العساكر السرور ، وتمكن لهم النشاط وتضاعف لديهم الارتباط . وأمر للموحدين ، أعزهم الله ، بحظهم من الخيل المسومة فقسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم » (١).

وكانت هذه الجيوش تتجه عادة إلى المدينة المسماة بالمهدية وبرباط الفتح – عاصمة المملكة المغربية الحالية – ومنها إلى سبتة أو قصر مصمودة حيث يتم العبور إلى جبل الفتح (جبل طارق) ثم الجزيرة الخضراء Algeciras إلى أن تصل مدينة اشبيلية Sevilla قاعدة الموحدين الكبرى فى الأندلس والتى تكون على أتم استعداد لاستقبال هذا الجمع الحفيل(٢) . ويذكر ابن صاحب الصلاة أن تعداد جيش الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى أول غزوة له إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م كان عشرة آلاف فارس من عسكر الموحدين ، وعشرة آلاف فارس من العرب إلى جانب الرجّالة والمتطوعة من الناس والمجاهدين وعساكر الأندلس (٣).

٢ – العيون والأدلاء والرقاصون والشعراء والوعاظ والمحلات (الأسواق) :

كان الجيش الموحدى ، مثل أى جيش آخر – يصطحب معه العيون

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٤٣٧ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٣٢ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٤٥١ .

والجواسيس والأدلاء والرقاصين (عمال البريد) والتراجمة والوعاظ والمؤذنين والشعراء وكل من يفيد فى تحقيق النصر على العدو . وقد لعب كل فريق من هؤلاء دوراً عظيماً هاماً فى سير المعارك . فالعيون والجواسيس كانوا عنصراً أساسيًا للدعوة الموحدية منذ بدايتها ، ففى كتاب أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، نجد باباً عن أصحاب المهدى ببلاد مصر بلغ عددهم واحداً وخمسين رجلاً ذكر أسماءهم واحداً واحداً ، ثم يقول إنهم كانوا للمهدى بمثابة أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره ، مؤمنين بدعوته . وهذا يدل على أن المهدى كانت له جمعية من دعاته وعيونه تعمل على نشر دعوته فى مصر وغيرها من بلاد الشرق تمهيداً لتوحيدها تحت قيادته (١).

وهناك قصة الشيخ اسماعيل بن يسلالى الهزرجى تلميذ ابن تومرت وأحد أصحابه العشرة الذى علم بمؤامرة دبرها طائفة من الموحدين لقتل عبد المؤمن فى خبائه ليلاً بنواحي وهران ، فطلب منه أن ينام فى فراشه فى تلك الليلة . وكانت النتيجة أنهم قتلوه اعتقاداً منهم بأنه عبد المؤمن . وقد حزن عليه الخليفة عبد المؤمن واحتفل بدفنه وبنى له قبة وجامعاً (٢).

كذلك مهد الموحدون لحملاتهم العسكرية فى افريقية ضد بنى غانية وحلفائهم بإرسال العيون والجواسيس وهو ما يعرف حديثاً بالطابور الخامس . يقول ابن عذارى :

« وكان أبو يوسف يعقوب المنصور قد اتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتباً لأهل سائر البلاد المغلوب عليها ، بالأمن والأمان والصلح والإحسان . ولما دنت الحملة من البلاد دسُّوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلاً إلى البلاد ،

---

(١) البيذق : نفس المصدر ص ٣٠ – ٣٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٩٩ – ٢٠٠ ، عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٣٣ – ٢٣٤ . ولاسماعيل السملالى أو البسلالى قصة أخرى مع المهدى بن تومرت فى بداية أمره حينما تآمر أهل الضيعة التى نزل فيها على قتله ، فلما علم اسماعيل بذلك تقدم إلى ابن تومرت وسأله عن إعراب هذه الآية « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » ، ففهم ابن تومرت ما أراد وخرج عن تلك الضيعة » . (المعجب ص ٢٣٤ – ٢٣٥) .

واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن . فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب ، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب ، وثبوا على ما كان عندهم من الأعداء ، وأرصدوا لفرارهم بالمضايق ، وقبضوا على أكثرهم بتلك المخانق»(١).

كذلك يشير ابن عذارى إلى الحيَل التى استخدمها عيون الموحدين فى تتبع أخبار الثائر الأشل سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) فى بلاد الزاب بالجزائر على عهد يعقوب المنصور . وكان هذا الرجل قد فتن العامة والغوغاء من العرب والبربر بتنبؤاته وشعوذته ودعا لنفسه فالتف حوله جمع غفير ، وحاولوا اخفاءه عن أعين الموحدين ، ولكن جواسيس الموحدين تمكنوا من تحديد مكانه وإجبار الأهالى على تسليمه وقتله (٢).

أما فى الأندلس ، فكثيراً ما تشير المصادر إلى سرايا العدو التى تتجسس الأخبار حول معسكرات المسلمين ، ولكن عيون الموحدين تتمكن من مطاردتها وإبادتها (٣).

ومن أمثلة الحيل التى استخدمها الموحدون مع أعدائهم فى أسبانيا ما رواه القائد الأندلسى أبو محمد بن وزير حينما وجهه السيد (الأمير) أبو سعد عثمان بن عبد المؤمن والى بطليوس إلى الملك الأسبانى فرناندو الثانى الملقب بالببوج El Biboso (أى البزّاق أو الذى يريّل ويسيل لعابه) فى أمر يتعلق بتجديد الصلح بينهما . يقول :

« ودخلت على الببوج فى خبائه ومعه أقماطه (امرأته) وأشياخه النصارى ، فتكلم معى بلسانه الأعجمى ، فقلت لترجمانه « لست أفهم الأعجمية » ، وإنما قلت ذلك كتماناً منى وحيلة لأفهم من كلامه ما يريده من خير وشر . ولاطفته فى الصلح حتى كمل » . ثم يضيف نادرة طريفة فيقول :

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٥٠ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٨٩ -١٩٠ .

(٣) ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٩٣ .

« وفى أثناء الجلوس معه سرق أرذال النصارى المتصرفين فى الخباء عمامة رأسى عند غفلة منى ! فلما وصلت إلى السيد أبى سعيد ، رأى رأسى دون عمامة ، فسألونى عن ذلك ، فوصفت له الحال وأنا ضاحك من رجال النصارى وسرقاتهم ، فأخذ السيد بفضله وسيادته عمامة رأسه ودفعها إلىّ ، واستدعى خديمه حمادا وأمره بسوق عمامة أخرى لرأسه ، فقبّلت يده وزاد حبه فى قلبى(١) .

هذه الحادثة إلى جانب طرافتها ، فإنها تثير التساؤل عما إذا كان هذا القائد ابن وزير قد خلع عمامته عند مقابلته للملك الأسبانى من باب الاحترام جرياً على عادة الروم فى خلع قبعاتهم !؟ إذ لا يعقل أن تسرق عمامته من فوق رأسه علناً وأمام الملأ فى مجلس الملك دون أن يدرى أحد بذلك !! .

أما الوعاظ والفقهاء فكانت مهمتهم فى ساحة الوغى عسيرة فى وسط هذا الخضم من الحشود المختلفة الأجناس واللغات مثل حبش غانية وأعراب الصحراء وبربر المغرب وأغزاز الترك وغيرهم(٢) إذ كان عليهم أن يخاطبوهم ويعظوهم بلغاتهم ولهجاتهم لإحراز التأثير المطلوب والفائدة العاجلة فى مثل هذه المواقف الجادة الحاسمة . وقد يؤيد ذلك ما رواه ابن صاحب الصلاة فى حديثه عن غزوة وبذة Huete فى مقاطعة قونقة Cuenca بالأندلس سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أن الشيخ الموحدى ، أبا محمد عبد الواحد بن عمر ، كان يخطب فى الجنود باللسان العربى تارة ، وباللسان الغربى (أى البربرى) تارة أخرى يحرضهم على قتال النصارى(٣) .

كذلك كان الأدلاء Adalides موضع ثقة القادة واهتمامهم مثل قول ابن عذارى :

«فوصل السيد أبو زكريا اشبيلية ورتب أدلته ورجاله »(٤). وقوله: « وعزموا

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٠٢ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٧٤ .

(٣) » » » ص٩٧ ، وابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٥٠١ ، ٥٢٤ .

(٤) » » ص ١٨٠ .

أن يسيروا ليلهم وقدّموا الأدلاء أمامهم ، وتسلموا الجبل إلى أعلاه الذى على وادى شنيل Genil (١).

وما يقال عن الأدلاء يقال أيضًا عن الرقاصين (عمال البريد) الذين كان عليهم أعباء جسام فى أوقات الهزيمة أو النصر . وكانوا فى العادة رجالاً أقوياء مدربين على الركض والعدو وركوب الخيل والسفن براً وبحراً . ومثال ذلك قول ابن صاحب الصلاة فى وصف هزيمة الموحدين فى مرج الرقاد Majorrocal بفحص غرناطة سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١ م :

« وشاعت الأخبار وسرى الرقاصون بالاستغاثة فى الليل والنهار ، وفى البر والبحار» (٢) .

كذلك أورد البيذق اسم تيظاف على عهدالموحدين وهو يعنى باللسان البربرى اسم فرقة من الأدلاء العارفين بمسالك الطرق والجبال واستطلاع أحوال العدو . أقاموا أبراجاً للمراقبة باسم برج تيظاف (٣).

٣- صيحات القتال وتقوية الروح المعنوية :

كان لجنود الموحدين صيحات قتال لشحذ القوى وجمع الصفوف أثناء المعركة ، فإلى جانب صيحات التكبير والتهليل(٤) ، كانت لهم صيحات واحدة وبلسان واحد مثل صيحة « أبابا يا المهدى ! » التى يقول صاحب الروض الهتون بأنها كانت شعار الموحدين فى أول غارة لهم على المرابطين فى حصن من حصونهم ، اضطروا فيها أن يتنكروا فى زى المرابطين : اللثم والغفائر القرمزية والمهاميز التاشفينية ، والسيوف المحلاة ، والعمائم ذوات الذوابات . فلما رأى المرابطون هذا الزى قالوا تقوية السلطان جاءتنا . وسارعوا للقائهم فرحين وخرجوا من الحصن والسوق ، عندئذ حسر فرسان الموحدين

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص٥٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ١٩٠ وكذلك ص ١٢٩ حاشية ١ .

(٣) البيذق : نفس المصدر ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٣٤ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٩٣ ، ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٣٣ .

اللثام ونادوا : أبابا يا المهدى ، وكان ذلك شعارهم ، وأحالوا السيوف عليهم فلم ينج واحد منهم » (١).

صيحة جماعية أخرى اشتهر بها الموحدون وهى : « أصبح والحمد لله » ، وأصل هذه الصيحة يرجع إلى أيام المهدى بن تومرت حينما أمر المؤذنين إذا طلع الفجر أن ينادوا : « أصبح والحمد لله » إشعاراً بأن الفجر قد طلع لإلزام الطاعة ، وحضور الجماعة ، وتنفيذ ما يؤمرون به . ومنذ ذلك الوقت صار هذا النداء شعاراً حربياً للموحدين ، وقد استخدموه أثناء حصارهم المرالطين فى قصبة وهران ، إذا اجتمعوا على الجبل المطل على وهران وصاحوا بلسان واحد: « أصبح والحمد لله » ، ولم يكن اللمتونيون يصيحون بذلك ، فوقعت رجفة عظيمة فى عسكر السلطان تاشفين الذى أمرهم بعدم الخروج خوفًا من الكمين(٢) .

هذا ، ولم يتردد الموحدون فى استخدام كل ما يفيدهم فى تقوية روح جنودهم المعنوية ، مثال ذلك ما رواه صاحب روض القرطاس عن الحلم الى رآه الخليفة يعقوب المنصور فى الليلة السابقة لموقعة الأرك Alarcos (٣) التى انتصر فيها على ملك أسبانيا الفونسو الثامن سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م يقول على لسان الخليفة المنصور : بينما أنا راكع فى مصلاى ، إذ غلبتنى عيناى فرأيت فى نومى كأن باباً قد فتح فى السماء ونزل منه فارس على فرس أبيض حسن الوجه والرائحة وبيده راية خضراء منشورة ، قد سدّت الأفق من عظمها ، فسلّم علىّ ، فقلت له من أنت يرحمك الله ؟ فقال ملَك من ملائكة السماء السابعة ، جئتك لأبشرك بالفتح من رب العالمين لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك فى الشهادة راغبين ، ولثواب الله تعالى طالبين . فأيقنت بالفتح

---

(١) أبو عبد الله محمد بن غازى المكناسى العثمانى : الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ص ٦ (الرباط ١٩٥٢) .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ ، ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٧ ، ١٦٦ .

(٣) الأرك (بتسكين الراء) بلدة صغيرة من أعمال قلعة رباح Calatrava تقوم فوق ربوة عالية تمتد سفوحها حتى وادى يانة Guadiana وتقوم مكانها اليوم قرية صغيرة تسمى Santa Maria de Alarcos: (القرطاس ص ٢٢٣ حاشية) .

والظفر إن شاء الله تعالى . ويضيف المؤرخ المذكور أن الخليفة يعقوب المنصور قصّ هذا الحلم على أشياخ الموحدين والفقهاء كى يذيعونه بدورهم على الجنود(١).

وقصة هذا الحلم تذكرنا بالحلم الذى رآه الفقيه أبو العباس بن رميلة القرطبى قبيل موقعة الزلاقة التى انتصر فيها المرابطون كما ذكرنا من قبل . كذلك تذكرنا أيضًا بقصة سنتياجو أو القديس يعقوب الذى كان يظهر للمحاربين الأسبان على شكل ملاك بيده سيف ويمتطى فرساً أبيض ثم يأخذ فى معاونتهم على قتال المسلمين .

وواضح أن هناك تشابهًا بين تلك القصص والأحلام السالفة ، ونحن لا يعنينا مضمونها بقدر ما يعنينا الهدف المقصود من ورائها وهو تقوية روح الجنود المعنوية .

على أن انتصار يعقوب المنصور فى موقعة الأرك لم يقم فى الواقع على الحلم الذى رآه فى نومه ، بل على البطولة الفذة التى أبداها فى المعركة فألهبت حماس جنده . يروى ابن عذارى ان المنصور حينما رأى تزحزح مقدمة جيشه فى المعركة ، ترك ساقته (المؤخرة) وأسرع منفرداً إلى المقدمة ، ومرّ على الصفوف والقبائل موجهاً إليهم تعليماته ، فلما وقعت أعين الناس عليه ورأوا عظيم ما وصل إليه حميت نفوسهم ، وتحركت هممهم ، فحمل كل قبيل على من يليه ، ودفع كل موكب على من يقابله من العدو ويلتقيه ، فانضمت على الكفار الأطناب ، وسدت عليهم الأبواب ... فولوا الأدبار وركبهم السيف (٢).

من هذا نرى أن شخصية القائد الأعلى للجيش عليها معول كبير فى تحقيق النصر أو الهزيمة . وإذا عقدنا مقارنة فى هذا الصدد بين شخصية الابن يعقوب المنصور وشخصية والده يوسف ابن عبد المؤمن ، وجدنا بينهما تفاوتاً كبيراً فى هذا المضمار الحربى :

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٢٢٤ - ٢٢٥ (طبعة دار المنصور ، الرباط ١٩٧٣).

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٩٤ - ١٩٥ .

فالابن يعقوب يوصف بالشجاعة والإقدام وشدة الصرامة على أعدائه لا يغيب عنه شيء عن أحوال رعيته ولا يجترئ أحد على مخادعته (١). أما والده ، فرغم حبه وخروجه للجهاد ، إلا أنه كان حليماً متوقفاً عن سفك الدماء، يحب العلم والعلماء ويترجل لهم ويصافحهم ويجالسهم ويناقشهم حتى والمعارك دائرة على أشدها فلا يلتفت لطلبات قواده مما أثار في نفوسهم مرارة كبيرة وخيّب أملهم في النصر .

مثال ذلك قول قائده أبي العلاء بن عزون في وصف هجوم الموحدين على مدينة وبذة Huete سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م يقول :

« لما قاتلت النصارى في البرج الذي كان عمدة امتناعهم فيه بمدينة وبذة وأشرفت على الفتح والغلبة لهم ، ولم أر أحداً من أهل الأجناد الأنجاد ، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني ، مشيت بنفسي إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو جالس مع طلبة الحضر يتكلم معهم في المسائل والمذاكرة ، فقلت يا سيدنا أمير المؤمنين ، عسى العون فقد أشرفت على الفتح ! وإنما كنت طامعاً أن يركب فيراه الناس وجميع العساكر فيدخلون المدينة في حينهم ، فلم يجاوبني واشتغل عني بما كان فيه ! ... فعلمت أن النية في الجهاد قد فسدت ! وأن الغزوة قد تنكدت ! ورجعت يائساً من النصر » (٢).

ومن الغريب أن مأساة مدينة وبذة تتكرر ثانية في حصار مدينة شنترين Santaren بالبرتغال حيث تشير المصادر إلى تخبط الأوامر الخلافية وإلى ظهور الخلل في جميع الأحوال (٣)، إلى درجة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن نفسه صرّح في مجلس خاصته بتصريح سرى خطير سابق لأوانه ، كشف فيه عن خططه ، ولم يقدر مغبة عواقبه ، إذ قال : « نحن راحلون غداً

---

(١) ابن عذارى : ، ص ١٤٠ – ١٤١.

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٩٦ – ٤٩٧ ومن بين العلماء الذين كان يتألف منهم مجلس الخليفة : الفقيه أبو بكر بن الجد والفيلسوف أبو الواليد بن رشد علاوة على أخيه السيد الأعلى أبي حفص .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٣٤ .

إن شاء الله، ! فما كان من الفقيه أبى الحسن المالقى بدون علم الخليفة أن قوّض خباءه ليأخذ مكانه فى عبور النهر قبل الزحام ، وفعل الناس مثله ، والخليفة لا يعلم ذلك . فاستغل العدو البرتغالى هذا الخلل والاضطراب وهجم على خيمة الخليفة وطعنوه تحت سرته طعنة قاتلة سنة ٥٨٠هـ/ ١٨٨٤م .ولما سأل الخليفة قبل وفاته عن السبب فى حركة الناس على هذا النحو أخبروه بما فعل أبو الحسن المالقى ، فقال : سيجنى ثمرتها إن شاء الله . فلما بلغه ذلك هرب إلى مدينة شنترين فأكرمه ملك البرتغال ابن الريق Sancho Enriquez ولكنه لم يلبث أن أخذ عليه رسالة موجهة إلى أصحابه الموحدين يحرضهم فيها على فتح شنتيرن ، ويدلهم على نقاط الضعف فيها ، واعترف بذلك ، فأمر الملك بحرقه(١) .

وهكذا استشهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن نتيجة لتهاونه فى اتخاذ قراراته ، وخلفه ولده يعقوب المنصور الذى عالج الموقف بكل شدة وحزم وانتقم لوالده من البرتغاليين وانتصر على ملكهم سانشو انريك براً وبحراً واكتسح أراضيهم وخرّب حصونهم ثم انتصر بعد ذلك على ملك قشتاله ألفونسو الثامن الملقب بالصغير El Chico في موقعة الأرك - كما أسلفنا - ثم أعقب ذلك بسلسلة من الانتصارات فى شمال أسبانيا وصل فيها إلى أراضى لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبى عامر . ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يشبهون يعقوب المنصور بالمنصور بن أبى عامر .

غير أنه يلاحظ أن غارات يعقوب المنصور هنا لم يكن هدفها احتلال الأرض بل ضرب قواعد العدو وتخريب موارده الاقتصادية بغية إضعافه ، وهى السياسة التى يسميها ابن خلدون بسياسة التقرّى من قرّة Guerra أى الحرب بالأسبانية ، ومعناها الطواف بها والإغارة عليها.

سادساً : أسلحة الموحدين وطريقة قتالهم :

كانت دولة الموحدين دولة عسكرية مجاهدة مثلها فى ذلك مثل دولة

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

المرابطين التى سبقتها . وقد أشاد المؤرخون بسياسة الموحدين التربوية والقتالية التى كانت تهدف إلى توحيد العالم الإسلامى وإصلاحه من عيوبه كى يتمكن من مواجهة الصليبيين .

ولقد سبقت الإشارة إلى الحوار الذى دار بين سلطان المرابطين على بن يوسف بن تاشفين وضيفه القائد الأندلسى أبى محمد ابراهيم بن همشك أثناء حصار الموحدين لهما بمدينة مراكش والذى يبين مدى الإعجاب المتبادل بشجاعة الموحدين وشده مراسهم فى القتال ، إذ يقول السلطان المرابطى لضيفه متهكماً : أبو محمد يحسب أن قتال المصامدة (أى الموحدين) مثل قتال الروم (أى الأسبان) !! فيرد عليه ابن همشك : يا أمير المسلمين ، قد كان عندى ببلاد الأندلس جماعة منهم ونعلم مدى خفتهم وشجاعتهم وتسارعهم للقتال ... الخ .

هذه الرواية إن دلت على شيء فإنما تدل على صدق المثل القائل : «والفضل بما شهدت به الأعداء ! » .

ولقد اتبع الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن بن على طريقة فذة فى قتال المرابطين وصفها صاحب كتاب الحلل الموشية (١) ، وهى تقوم على احتواء هجمات فرسانهم الخاطفة بتعبئة جيشه على شكل قلعة مربعة محاطة بغابة من الرماح الطوال والحراب والطوارق (٢) المانعة التى يحملها المشاة فى أيديهم وأرجلهم ، ويساندهم من الخلف رماة السهام والحجارة ، ثم خيل الموحدين فى الوسط . فإذا كرت عليهم خيول المرابطين ، دخلت فى هذه

---

(١) الحلل الموشية صس ٩٤ – ٩٥ ، ص ١٠٨ وكذلك (دوزى تكملة المعاجم العربية جـ ٢ ص ٤١) .

(٢) الطوارق جمع طارقة وهى تُرس من الحديد أو الجلد طويل يغطى الجسم كله . والكلمة دخيلة وقد استخدمه الأسبان والأوروبيون (دوزى : تكملة المعاجم العربية جـ ٢ ص ٤١) وقد شبهه المستشرق الألمانى ماير بالتروس النورماندية التى على شكل الطائرة الورقية Kite . راجع :

(Mayer : Saracenic Arms) and Armor , Ars Islamica Vol. X, 1943).

الغابة من الرماح الطويلة (١) ، فإذا فاتوا من الدفع وأدبروا ، خرج خيل الموحدين من طرق تركوها ، وفرج أعدوها فتصيب ما أصابت ، فإذا كرت عليهم دخلوا فى غاب القنا .

كذلك اتخذ الموحدون فى محاربة المرابطين طرق الجبال الوعرة التى اعتادوا عليها ، كى يجد المرابطون مشقة فى الوصول إليهم ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

أما بالنسبة لقبائل الأعراب المعادية لهم فى افريقية ، فقد اتبعوا فى قتالهم طريقة أوصاهم بها الخليفة عبد المؤمن بن على إذ قال لهم : لا تشتغلوا بالغنائم إذا سمعتم العرب تقول : الرّواح . اتبعوهم ولا تشتغلوا بالغنائم خوفاً من عودتهم على طريقة الكر والفر التى أتقنوها . فلما التقى الموحدون والعرب فى معركة سطيف قالت العرب : الرواح ! ، فتبعهم الموحدون ولم يشغلهم المال ، فاتبعوهم يومًا وليلة ، وهزموهم بإذن الله ، ثم اشتغل الموحدون بعد انتصارهم بضم المال(٢) .

أما أزياء فرسان الموحدين ، فإنها كانت تتكوّن من العمامة والغفارة وهى عباءة أو كساء يلبس فوق آخر (مثل السلهام المغربى حاليًا) والقبطية وهى ثوب أبيض رقيق من الكتان وجمعه قباطى والبرانس وهى الزى المغربى المعروف حتى اليوم ، وهو عبارة عن كساء يكون غطاء الرأس جزءاً متصلاً به . وكانت مدينة نول فى القديم فى بلاد السوس مركزاً مقصوداً لاقتناء البرانس(٣) . أما العبيد والسودان فقد تميزوا بثيابهم الملونة وعلى رؤوسهم

---

(١) حول أهمية الرماح الطوال فى مقارمة الفرسان نشير من باب المقارنة إلى انتصارات المشاة الانجليز حاملى الرماح الطويلة Longbows على فرسان فرنسا فى موقعة كريسى Crécy سنة ١٣٤٦ وموقعة بواتييه Poitiers سنة ١٣٥٦ . انظر :

(Andrew McNeil : Knights at war P. 14).

(٢) البيذق : المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢١٥ حاشية ، وكذلك (دوزى : تكملة المعاجم العربية جـ ١ ص ٧٩) .

طراطير شديدة الحمرة (١) .

ولقد اختص خلفاء الموحدين بلباس الغفائر الزبيبية ، والبرانس المسكية .

ويروى ابن عذارى فى هذا الصدد أن بعض أمراء الموحدين لم يلتزموا بهذا الاختصاص الخلافى فى بادئ الأمر إلى أن ولى الخليفة يعقوب المنصور، فرأى أكثر القرابة من الإخوة والعمومة قد اصطفوا واختصوا لباس الغفائر الزبيبية والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم ذلك الزى لكونه زى الخليفة فى حالتى ركوبه وجلوسه فى كل موطن . فلم يعد أحد منهم بعد ذلك للباس تلك الألوان المختصة بالسلطان(٢) .

أما رايات الموحدين وأعلامهم فيروى ابن القطان أنه فى بداية الأمر لما رأى المهدى بن تومرت رايات المرابطين المختلفة الألوان تملأ عليهم الفحوص والوديان صاح فى أصحابه : « لا تهولنكم هذه الخرق ! » وارفعوا أنتم ما لديكم من الثياب ، فعن قريب تصير هذه العلامات كلها لكم »! (العلام والعلامات معناها بلغة المغاربة العلم والأعلام) فأخذ الموحدون يرفعون أزرهم وأكسبتهم وأرديتهم ونحو ذلك ، ثم أفاء الله تعالى علامات أعدائهم (٣).

ولما استقر الأمر للإمام المهدى جعل شعاره البياض واتخذ العلام الأبيض أو الراية البيضاء ، وقد كتب على أحد وجهيها : الواحد الله ، محمد رسول الله، المهدى خليفة الله » . وفى الوجه الثانى : ما من إله إلا الله ، وما توفيقى إلا بالله ، وأفوض أمرى إلى الله » (٤).

ومنذ ذلك الوقت ، صارت الراية البيضاء أو العلام الأبيض ، شعار الدولة الموحدية واتخذ الموحدون إلى جانبها أعلاماً أخرى ملونة بالنسيج الأحمر

---

(١) « « « : نفس المصدر ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٨٠ ولعل هذه الطراطير الحمراء تذكرنا بالطربوش الأحمر الذى أطلق عليه الانجليز اسم Fez وهو اسم مدينة فاس المغربية مما يرجح وجود صلة بين الطربوش والطرطور .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٥٩ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٨ .

(٤) ابن القطان : « « ص ١٢٧-١٢٨ .

والأصفر والأبيض ، وزينوا بها أركان خزانة مصحف عثمان بن عفان الذى كان يتقدم الموكب الخلافى عند مسيرته (١) . يقول المراكشى فى وصف موكب الخليفة عبد المؤمن : « وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين أعلام وبنود وألوية » (٢).

وهناك أيضًا القبة الحمراء التى كانت تنصب للخليفة الموحدى فى الأماكن التى يعسكر فيها مع جنوده . ولعله تقليد لما ورد فى السيرة النبوية أن الرسول (ﷺ) نصب قبة حمراء لاستقبال وفد ثقيف فى السنة التاسعة من الهجرة (٣).

ولقد أطنبت المصادر المعاصرة فى وصف مواكب الجيوش الموحدية عند خروجها بقيادة خلفائها أمراء المؤمنين متوجهة إلى دار الحرب ، نذكر منها على سبيل المثال وصف ابن عذارى لخروج موكب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م يقول فيه :

« وركب أمير المؤمنين ، على عادة ركوبه من السكينة والوقار ، ودعا الناس له بالتأييد والنصر على جميع الكفار . وقد تقدم أمامه علامه الأبيض مع الرجالة على العادة من الترتيب ومعه مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه على جمل أبيض مرتفع وعليه كله قبّة حمراء تصونه ، وهو مرصع بنفيس الجوهر والياقوت(٤) ، ويليه مصحف المهدى على بغل ، وبنوه من اخواته السادات خلفه ، وعليه رايات مختلفة الألوان . وكان خروجه على باب دكالة من أبواب مراكش »(٥) .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٤٥ حاشية ٣ ابن عدارى : البيان المغرب ص ١٣٦ .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٣٢ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٩٣ حاشية ٣ .

(٤) يشير عبد الواحد المراكشى (المعجب ص ٢٥٢) إلى أن بعض هذه الجواهر جاءته هدية من ملك صقلية النورماندى سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) منها حجر ياقوت يسمى الحافر جعلوه فيما كللوا به المصحف على قدر استدارة حافر الفرس ، مع أحجار نفيسة أخرى .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٢٩ - ١٣٠ .

أما أسلحة الموحدين ، فكانت لا تخرج عن الأسلحة المعروفة فى ذلك العصر . وكان للموحدين مصانع للسلاح فى المغرب إلى جانب مصانع الأندلس . وفيها كانت تصنع السيوف والدروع والبيضات والقسى والسواعد والسيقان والرماح والسهام والمجانيق وآلات الحصار وغيرها . غير أن الموحدين اختصوا بأسلحة معينة مثل الرماح الطويلة التى سبقت الإشارة إليها ، وكانت تسمى بالعوالى(١) والأمراس والأَسل ، وطولها اثنتا عشرة قدمًا ، وفى ذلك يقول الشاعر أبو عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى فى مدح الخليفة عبد المؤمن بن على :

ماهرٌ عِطْفَيهِ بين البيضِ والأَسَل   مثلُ الخليفةِ عبد المؤمن به علي

وقد اكتفى الخليفة بهذا البيت ومنح الشاعر ألف دينار(٢) .

كذلك عرف عن الموحدين التكثير من اتخاذ الطبول . وقد شغلت الطبالة طبقة أو صنفًا من أصناف الجيش الموحدى . وكانت هذه الطبقة من العبيد السود . وعلاقة الطبل بالسود له ما يبرره حتى الآن ، إذ أن الطبل الكبير مازال يعرف فى المغرب باسم طبل جناوة نسبة إلى غينيا . كذلك يقال أيضًا طبل أجومى نسبة إلى الكومى عبد المؤمن بن على الذى استخدم طبولاً ضخمة بشكل لم يعرف من قبل . وفى ذلك يقول صاحب الحلل الموشية :

« وكانت عادته فى أسفاره أن يرحل بعد صلاة الصبح بعد أن يُضرب طبل كبير مستدير الشكل يبلغ دوره خمسة عشر ذراعاً ، مصنوع من خشب أخضر اللون مذهب . فإذا ضربت فيه ثلاث ضربات ، عُلم أنه طبل الرحيل ، فيرحل الناس . وكان يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع فى يوم لا ريح فيه »(٣) . ويضيف المراكشى أن جيش عبد المؤمن كان يحتوى على أكثر من مائتى طبل فى نهاية الكبر وفى غاية الضخامة ، يخيل لسامعها إذا

---

(١) الحلل الموشية : ص ٩٥.

(٢) الأصفهانى : خريدة القصر جـ ١ ق ٢ ص ١٥٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٦٣ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٢٦ .

ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويحس أن قلبه يكاد يتصدع من شدّة دويّها»[1] .

هذا ، وينفرد ابن صاحب الصلاة برواية فريدة يصف فيها طبول المهدى بن تومرت بأنها كانت مربعة الشكل ، وذلك فى معرض كلامه عن طبول الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله :

« وقد أحضرت الطبول السعيدة التى من أيام الإمام المهدى المربعة الأشكال ، السعيدة الأحوال ، بالنصر والإقبال ،وأضيف إليها من غيرها ما انكمل فيها مائة طبل » [٢].

ومعروف عن المهدى عند المؤرخين أنه صاحب الدينار المربع ، ولكن لم يرد ما يفيد أنه صاحب الطبل المربع إلا فى هذه الرواية ! .

ويبدو أن علاقة السودان بالطبل والموسيقى كانت منتشرة أيضاً فى الحياة الاجتماعية المغربية ، إذ يروى صاحب الروض الهتون فى معرض كلامه عن أهالى مدينة تاورا القريبة من مكناس قائلاً : وكان يعيش معهم السودان المسمون هنالك عبيد الحرمة ، وكان رجال السودان يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون ، ونساؤهم يضربن بآلة اللعب ويغنين والزامر يزمر عليهم بأبى قرون . وكانت هذه المناكير من عوائدهم فى أفراحهم » [٣].

ومن أسلحة الحصار الهامة التى استخدمها الموحدون المجانيق والرعادات[٤]، كما استخدموا السلالم العالية لتسلق الأسوار لدرجة أنه كان لكل قبيلة سلّمها الخاص بها . يقول البيذق فى وصف احتلال الموحدين لمدينة مراكش : «فاستعمل الخليفة عبد المؤمن ، السلاليم للأسوار وقسمها على

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٣٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٣١ حاشية ١ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن غازى المكناسى : الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ص ١٣ ، وعن مدينة تاورا راجع (الإدريسى : نزهة المشتاق الجزء الخاص بشمال افريقيا ص ٥٢ نشر هنرى بيريس .

(٤) روض القرطاس ص ١٩٨ .

القبائل... فدخل هنتانة وأهل تينملل من باب دكالة بسلمهم ، ودخل صنهاجة وعبيد المخزن بسلمهم من باب الدباغين ، ودخل هكسورة مع القبائل من باب بينتان واستفتحت مراكش ودخلت بالسيف » (١).

أما الحصان فكان السلاح الرئيسى الذى قامت عليه طبقة الفرسان عماد النظام الاقطاعى العسكرى فى العصر الوسيط الاسلامى والمسيحى . ولهذا اهتم الموحدون بتربية الخيول وإعدادها وتدريبها والمحافظة على سلامتها . ولقد أشادت المصادر المعاصرة بالخيول الفازازية التى من نتاج جبال فازاز الممتدة من جنوب فاس ومكناس إلى وادى ملوية فى منطقة تادلا والجبال التى حولها بالأطلس المتوسط . وكان سكان هذه المنطقة من بربر زناتة وعرب رياح ، وقد اشتهروا بتربية هذه الخيول وكانت لهم قاعدة تسمى القلعة (٢) .

كذلك استخدم الموحدون الإبل فى حمل الأمتعة والأثقال كما استخدموها فى القتال أيضًا فى نطاق محدود كما فعل المرابطون من قبل ، فيروى ابن عذارى فى وصف جيش الخليفة يعقوب المنصور الذى عبر به إلى الأندلس سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م قائلاً :

« وكان الوصول إلى إشبيلية فى الحادى عشر لجمادى الآخرة من السنة فى غاية الحفل ، وركب السودان على النجب الأبيض بأيديهم الدرق وعلى رؤوسهم طراطير الطيلقان الشديدة الحمرة ، وصدور النجب منظومة بجلاجيل على شكل السفرجل ، والأغزاز بضروب الحلل ، فظهر مرأى تحار فيه الأبصار، وتذهل الخواطر والأفكار» (٣) .

---

(١) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ١٠٣ .

(٢) ابن سعيد المغربى : الجغرافيا ص ١٤١ ، البيذق : أخبار المهدى ص ٥١ ، ابن الخطيب: أعمال الأعلام – القسم الثالث – ص ١٦٨ حاشية ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ١٧٢ ؛ ملى حسن محمود : تاشفين بن على ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى : البين المغرب ص ١٨٠ وحول كلمة طرطور وانتشار استخدامه فى المشرق فى عصر المماليك . راجع دوزى : معجم أسماء الألبسة عند العرب ص ٢٠٢ وما بعدها) . أما كلمة الطيلقان فلعلها من الأطاليق وهو نوع من الأعشاب (دوزى : تكملة المعاجم العربية جـ ٢ ص ٥٧) وقد سبقت الإشارة إلى الطرطور الذى يذكرنا بالطربوش الأحمر الذى أطلق عليه الانجليزى اسم Fez وهو اسم فاس أيضاً بالمغرب .

ولا شك أن الموحدين قد طوروا من أسلحتهم وطرق قتالهم عندما عبروا إلى الأندلس وواجهوا الأسبان والثوار الأندلسيين . وفى هذا الصدد يروى ابن القطان قصة تبين مدى اهتمام الخليفة عبد المؤمن بن على بسير المعارك وطرق القتال فى أسبانيا فى عهد المرابطين ، يقول :

«وتذاكر عبد المؤمن يوماً حال الأندلس مع الروم المقاتلين ، فجرى ذكر وقعة اقليش Uclés (١) التى هزم فيها الطاغية ادفونس وقتل ولده شانجة ، فقال ، رضى الله عنه ، لوزيره أبى جعفر بن عطية : اخرج إلى أشياخ الجند وسلهم هل بقى أحد ممن حضر وقعة اقليش . ففعل ، فألفى شيخاً يقال له عبد الله بن زيدون قال إنه حضرها ، وعمر بن تورزجين من أشياخ لمتونة أيضاً حضرها ، فعرّف ابن عطية بذلك أمير المؤمنين ، فسرّ بأن بقى من يحدثه بصفة تلك الحروب ، وأمر بإدخالهما إلى مجلسه العالى ، وأمر لأن يحضر معهما أشياخ الجند فكان ذلك ، وسألهما عما شاهداه من تلك الحروب ، فحكياها من أولها إلى آخرها . وعند تمام حكايتها أعطى لابن زيدون خمسمائة دينار ، ولابن تورزجين مثل ذلك ، وأعطى لأشياخ الحاضرين فى المجلس لكل واحد مائة دينار . وكانت هذه الحكاية سبباً لنظره لجزيرة الأندلس وتجهيزه العساكر إليها» (٢) .

والواقع إن الخليفة عبد المؤمن بن على ، الذى يعتبره المؤرخون من أكبر قادة العصر الوسيط كان مصيباً فى تقديراته وبعد نظره ، على اعتبار أنه كان

---

(١) سبقت الإشارة إلى موقعة اقليش أو اقليج شرقى طليطلة سنة ٥٠١هـ / ١١٠٨م التى انتصر فيها المرابطون فى عهد السلطان على بن يوسف بن تاشفين وبقيادة أخيه الأكبر الأمير أبى الطاهر تميم والى غرناطة . بينما كانت جيوش قشتالة بقيادة ولى العهد الأمير دون سانشو (شانجه) الابن الوحيد للملك الفونسو السادس من زوجته زايدة المسلمة ، ومعه سبعة من كبار قواده . وقد انتهت الموقعة بمقتل الأمير سانشو وقواده السبعة ولذا سميت بموقعة الأقماط السبعة Batalla de los siete Condes ولم يعش الفونسو السادس بعد هذه الكارثة وخلفته ابنته دونيا أوراكا Urraca . ومعناها الغراب أو العقعق .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٨-١٣٩ .

مقدمًا على مواجهة أساليب حربية مختلفة سواء من جانب الأسبان أو من جانب ملوك الطوائف الثائرين بشرق الأندلس ضد الموحدين(١).

وكان على رأس هؤلاء الثائرين بالأندلس القائد أبو عبد الله محمد بن سعد بن مرادنيش الجذامي أمير شرق الأندلس ، الذى يبدو أنه كان عربيًا بالولاء نظراً لأن اسم جده الأعلى مردنيش محرف من مارتنيث Martinez الأسبانى . وتسميه المصادر الأسبانية بالملك اللب El Rey Lobo كما منحه الباب لقب El rey Lope de gloriosa memoria أى الملك لب صاحب الذكر الحميد (٢) . وهو وصف يرمز للشجاعة لأن كلمة لب فى الأندلس كانت تطلق على حيوان مفترس أكبر من الذئب أكبر من الذئب بقليل ، ويسميه أهل الأندلس بالسبع فالمعنى هنا يمكن أن يكون « الملك السبع » (٣) .

كذلك تصفه المصادر العربية بأنه كان من مشاهير الفرسان ، ومساعير الحروب ، مال إلى اتخاذ زى الروم من اللباس الضيق ، وركوب البرازين الهمالج ، واتخاذ السروج الضخمة القرابيس ، واستعان بالروم على تدبيره ، ورتب منهم أعواناً وجنداً ، وأفرد لهم بمرسية منازل فيها الحانات والبيع » (٤) .

وما يقال عن ابن مردانيش يقال أيضاً عن صهره وحليفه القائد ابراهيم بن أحمد بن همشك الذى سيطر على شقورة Segura وجيان وغرناطة . وكان هو الآخر من أصل أسبانى ، وقد أسلم جدّه همشك على يد بنى هود ملوك

---

(١) حول أخبار الثائرين على الموحدين فى الأندلس راجع (البيذق : أخبار المهدى ص ١٢٥ -١٢٧ نشر پروڤنسال) وكذلك (ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ٢٥٩-٢٦٢) .

(٢) انظر :

(Mechlor Antunia : Campanias de los Almohades en Espania, P. 13 Nota 5, Religión y Cultura , 1935, Escorial) .

(٣) راجع وصف ابن سعيد المغربى الغرناطى لبلاد الأندلس فى (المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٥) .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٥٩ وما بعدها .

سرقسطة. ومنذ ذلك الوقت صار أفراد هذه الأسرة من قواد ثغور الأندلس (١).

وهكذا نرى مما تقدم أن طريقة قتال الأندلسيين وأسلحتهم ، كانت مشابهة تماماً لطريقة جيرانهم الأسبان . ولعل الوصف الذى أورده كل من ابن سعيد المغربى (ت سنة ٦٨٥هـ /١٢٧٤م) ، ولسان الدين بن الخطيب (ت سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) فى وصف ملابس الأندلسيين وأسلحتهم فى هذه الفترة يعطينا فكرة واضحة عن مدى التأثير الأسبانى فى الحياة الأندلسية . يقول ابن سعيد :

« وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لا سيما فى شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك . ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية ، وقد خُطب له بالملك فى تلك الجهة ، وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره . وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة فى شرق منها أو فى غرب . وابن هود الذى ملك الأندلس فى عصرنا ، رأيته فى جميع أحوال ببلاد الأندلس وهو دون عمامة . وكذلك ابن الأحمر الذى معظم الأندلس الآن فى يده . وكثيراً ما يتزيّا سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم ، فسلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم(٢) من الإشْكَرلاَط (٣)وغيره كأقبيتهم ، وكذلك أعلامهم وسروجهم . ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ، ولا يعرفون الدبابيس (٤)، ولا قسى العرب ، بل يعدون

---

(١) سبقت الإشارة إلى لقاء هذا القائد ابن همشك للسلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين فى العاصمة مراكش . ويقال إن كلمة همشك أصل معناها بالأسبانية المقطوع الأذن . راجع (ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٥٨ حاشية ١ نشر حسين مؤنس ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٦٣ ؛ الحلل الموشية ص ٩٤) .

(٢) القباء والجمع أقبية ، ثوب يلبس فوق الثياب .

(٣) الأشْكَرلاط Ecarlate نسيج جوخ قرمزى أو وردى (دوزى : تكملة المعاجم العربية جـ ١ ص ٢٥) .

(٤) الدبابيس ، ومفردها دبّوس ، أعمدة ذات رؤوس حديدية مدورة ومضرسة .

قسى(١) الافرنج للمحاصرات فى البلاد ، أو تكون للرجالة عند المصافة للحرب ... وأكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان(٢) ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون . وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً ، والصفر مخصوصة باليهود . ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة . والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وهذه الأوضاع التى بالمشرق – أى شرق الأندلس – فى العمائم ، لا يعرفها أهل الأندلس(٣) .

وفى ذلك يقول الشاعر مالك بن المرحل (ت سنة ٦٩٩هـ) يهجو جند الأندلس :

يتشبّهون بكل أغلف كافر(٤) فى زيهم وكلامهم فى المشهد

أما لسان الدين بن الخطيب وزير بنى الأحمر فى غرناطة ، فإنه يصف زى الأندلس قبل عهده أى فى عهد الموحدين بقوله : « وزيهم فى القديم أشبه بزى أقتالهم (أى الذين يقاتلونهم) وأضدادهم من جيرانهم الفرنج ، أسباغ الدروع(٥) ، وتعليق الترسة ، وحفا البيضة ، واتخاذ عراض الأسنة ، وبشاعة القرابيس (مقدمة السروج) ، واستركاب حملة الرايات خلفه ، كل بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها »(٦) .

من كل ما تقدم نرى أن أهل الأندلس على عهد الموحدين ، كانوا يتبعون

---

(١) قوس اليد هى العربية وقوس الرجل هى الافرنجية وهى التى كانت سائدة فى الأندلس. راجع وصفها فى (ابن هذيل : حلية الفرسان وشعار الشجعان ص ٢١١ ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن) .

(٢) الطيلسان والجمع طيالس كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٤) الأغلف الذى لم يختتن .

(٥) درع سابغة أى واسعة والجمع سوابغ .

(٦) ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٢٨ (القاهرة ١٣٧٤هـ) .

نظامًا حربيًا مختلفًا عن نظام الموحدين فى المغرب . ولا شك أن دمج بلاد الأندلس مع المغرب فى دولة واحدة ، واحتواء ثوارها وقوادها فى صفوف جيشها ، قد ساعد الموحدين على الاستفادة من هذه الخبرة العسكرية الأندلسية عند لقاء الأسبان بعد ذلك لأنهم كانوا على دراية بأساليبهم وطرائقهم ولغاتهم. وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة :

واستصحب السيد الأعلى أبو حفص بن عبد المؤمن معه من الصنف الأندلسى ، القائد العاقل الداهية أبا محمد سيد رأى بن وزير ، وأخاه أبا الحسن على بن وزير ، وأشياخًا فرسانًا وأبطالاً من الأجناد والساكنين بحضرة مراكش من أهل الأندلس ، لمعرفتهم بالأندلس وحروبها ، ولمذاكرتهم فى مشاورتهم فى محاولة ما يحتاج إليه من الأمور ومعرفة الثغور ، (١) .

سابعًا : القواعد والروابط والحصون على عهد الموحدين :

١) تينملّل قاعدة الدعوة الموحدية : وتكتب أحيانًا تينمال ، وتينمليل ، وتانملت ، وتين ملل ، وهى تعنى بالبربرية الحواجز التى تقام فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى (٢) .

وعندما شرع ابن تومرت فى نشر دعوته بين ذويه وعشيرته المصامدة فى أقصى المغرب ، اتخذ فى بادئ الأمر قاعدة فى جبل إيجليز عند مدخل مدينة مراكش ، وكان يسمى أيضاً بالجبلين وجبل الجبلين . ولما اشتدت حركته انتقل إلى قلعة تينملل الحصينة فى قلب جبال أطلس الكبير وجعلها مركزاً لدعوته . وهى تقع على بعد ١٠١ ك.م فى الطريق من العاصمة مراكش إلى تارودنت قاعدة السوس عبر الأطلسى الكبير الذى يسمى درن ومعناه بالبربرية جبل الجبال . يقول صاحب الحلل الموشية :

، وتوجه المهدى إلى تينمال لما رأى من منعتها وحسن موضعها ، فقسم

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن والإمامة على المستضعفين ص ٤٠٠ نشر عبد الهادى التازى .

(٢) المن بالإمامة ص ٢١٥ حاشية ٢ ؛ وكذلك :

(Basset et Terrasse : Tinnmel , Hespéris 1924) .

أرضها وديارها على أصحابه فى خبر يطول شرحه ، وأدار على المدينة سوراً أحاط بوحداتها ، وبنى على رأس الجبل سوراً ، وأفرد فى قمته حصناً يكشف على ما وراء الجبل . ولا يعلم مدينة أحصن من تينمال ، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو من غربها . فأما غربها ، وهو الطريق إليها من مراكش ، فطريق أوسع ما فيه أن يمشى عليه الفارس وحده ، وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه . وكذلك شرقها ، لأن الطريق مصنوعة فى نفس الجبل ، تحت راكبها حافات ، وفوقه حافات ، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد . ومسافتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم ، وهذا الجبل ، جبل درن جبل مثلج أبداً ، (١) .

ويضيف الإدريسى فى وصف هذا الحصن بقوله : « وفى جبل درن الأعظم ، جمل من قلاع وحصون تشف على نيف وسبعين حصناً ، وفيها الحصن المنيع القليل مثله فى حصون الأرض بنية وتحصيناً ومنعة ، وهو فى أعلا الجبل . ومن حصانته أن أربعة رجال يسكنونه ويمنعون الصعود إليه ، لأن الصعود إليه على مكان ضيق وعر المرتقى ، لأنه يشبه الدرج الحرج ، ولا ترتقى إليه دابة البتة إلا بعد جهد ومشقة . واسم هذا الحصن تانملت ، وهو كان عمدة المصمودى محمد بن تومرت حين ظهر بالمغرب ، وهو الذى زاد فى تشييده ، ونظر فى تحصينه ، وجعله مدخراً لأمواله ، وبه الآن قبره ، (٢).

أما صاحب كتاب الاستبصار فيسميها مدينة البيضاء المعروفة بتنمل(٣).

وبهذه الوسيلة لم يتمكن المرابطون حكام المغرب من الوصول إلى ابن تومرت فى قاعدته الحصينة ، وكل ما استطاعوا عمله هو الاستعانة بمغامر وقاطع طريق أندلسى يعرف بالفلك أو الفلكى(٤) ، فى إقامة حصون لضبط

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٢ ، نشر علوش .

(٢) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٦٤ ، نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزى ، ودى خويه (ليدن ١٨٦٦) .

(٣) كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ص ٢٠٨ نشر سعد زغلول عبد الحميد .

(٤) الفلك من كل شىء المستدير والوقار والمتردد ، ويقال رجل فلك أى عظيم الاليتين ، والفلقى (بالقاف) بدل الكاف الداهلية والفكلى العالم بعلم الفلك أو المنسوب إلى الفلك .

ومراقبة أنقاب أو طرق جبال درن التى كان يتوقع أن ينزل الموحدون منها إلى البسائط . وبهذا تمكنوا من منعهم من الهبوط عليها ولكن لفترة مؤقتة (١).

هذا ، وقد أفرد المؤرخ المعاصر أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، باباً فى كتابه بأسماء تلك الحصون ومن كان فيها وكيف استولى ابن تومرت عليها(٢).

٢) مدينة مراكش عاصمة دولة الموحدين : سبقت الإشارة إلى أن رحبة مراكش اسم مكان معروف من قديم ، وأن مدينة مراكش بناها المرابطون فى عهد أبى بكر بن عمر اللمتونى سنة ٤٦٢/ ١٠٧٠م واتخذوها عاصمة لهم. وأن أمير غرناطة المعاصر لأحداث هذه الفترة عبد الله بن زيرى ، يذكرها فى مذكراته باسم مرّوكش وهو قريب الشبه من التسمية الأسبانية Marruecos(٣).

ولما قضى الموحدون على دولة المرابطين ، واستولوا على مدينة مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م ، اتخذوها عاصمة لدولتهم الجديدة ، غير أن الخليفة عبد المؤمن اكتفى فى بداية الأمر بترتيب الأمناء عليها لحصر ما فيها من أموال وفيء وديار وسكان ، لتقسيمه على الموحدين ، بينما ظل هو فى محلته خارج المدينة . وبقيت مراكش على هذا الحال ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج . وأبى الموحدون دخولها أو سكناها . وكانت حجتهم فى ذلك أن الإمام المهدى كان يقول لهم : لا تدخلونها حتى تطهروها ، وذلك بسبب تشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التى لا عوج فيها ، وميلها إلى الشرق ، أى انحرافها عن الاتجاه الصحيح نحو مكة . ولما سأل الموحدون فقهاءهم : وما

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٣ .

(٢) البيذق : كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ١٧٢ - ١٧٦ (نشر عبد الحميد حاجيات) .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك غرناطة (٤٩٦ - ٤٨٣هـ) المسماة بكتاب التبيان ص ١٢٥ ، ص١٧١ نشر ليفى بروفنسال (مجموعة ذخائر العرب رقم ١٨ ، دار المعارف) .

تطهيرها ؟ قال الفقهاء : تهدم جوامعها ، وتبنى جوامع أخرى . عندئذ شرعوا فى هدم الجوامع ، ولكنهم لم يهدموها كلها بل هدموا بعضها ، وبنوا لأنفسهم جامعًا يصلون فيه . وحينئذ دخل الخليفة عبد المؤمن مدينة مراكش ، وقسم أزقتها على الموحدين فسكنوها (١).

ثم شرع الخليفة عبد المؤمن فى بناء المسجد الجامع الذى يتبع القصر وهو المعروف بجامع الكتبية . ولما أتمه صنع فيه ساباطا (٢) يدخل من القصر إليه ومنه إلى الجامع دون أن يراه أحد . ونقل إليه منبراً عظيماً كان قد صنعه بالأندلس فى غاية الإتقان ، قطعانه عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة . كذلك صنع بجواره مقصورة من الخشب لها ستة إضلاع للجلوس فيها أثناء صلاة الجمعة ، وتتسع لأكثر من ألف رجل . وكانت تتحرك بطريقة هندسية ميكانيكية ترفعها عند دخول الخليفة ، وتخفضها بعد خروجه وتغطى بالبسط . وكذلك المنبر يكون بابه مسدوداً ، فإذا قام الخطيب ليطلع عليه ، انفتح الباب وخرج المنبر فى دفعة واحدة وبحركة واحدة لا يسمع له حس . وكان الذى أشرف على صنع هذه المقصورة عريف (أى مهندس) من أهل مالقة بالأندلس اسمه الحاج يعيش ، وهو الذى ابتنى مدينة الفتح بجبل طارق فى عهد عبد المؤمن أيضاً (٣).

كذلك غرس عبد المؤمن فى خارج مراكش بساتين البحيرة التى بشنطلولية : Santa Eululia أى القديسة أولوليا . ولعل الكلمة كانت اسماً لدير أو كنيسة قديمة(٤) . وكانت مساحة هذه البساتين تبلغ ثلاثة أميال مربعة وفيها

---

(١) البيذق : نفس المصدر ص ١١٩ – ١٢٠ ، الحلل الموشية ص ١١٨ – ١١٩ ؛ الاستبصار ص ٢٠٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب – القسم الثالث – ص ٢٣ . وكذلك :

G. Deverdum : Marrakech des origines a 1912, P. 163, Rabat 1959)

(٢) الساباط ممر علوى يربط القصر بالمسجد رأسًا بحيث لا يحتاج الخليفة إلى دخول المسجد من مدخله العام بالطريق .

(٣) المن بالإمامة ص ١٣٩ ، الحلل الموشية ص ١١٩–١٢٠ .

(٤) البيذق ص ١٤٤ .

أطيب أشجار الفواكه وأشجار الزيتون ، وتصلها المياه من مدينة أغمات المجاورة(١).

وهكذا اتخذ الموحدون فى عهد عبد المؤمن مدينة مراكش عاصمة لهم بعد أن طمسوا معالم المرابطين فيها . ثم أخذت المدينة فى عهد ولده أبى يعقوب يوسف تزداد اتساعاً وعمراناً لدرجة أنه أمر فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م بهدم سورها الأول وإقامة سور آخر(٢) . وهذا يدل على أن مدينة ثانية متصلة بالأولى أخذت تتكون حتى صارت تقاربها فى دورها فى عهد ولده يعقوب المنصور سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م الذى زودها بدوره بالقصور والفنادق والأسواق والقيساريات وصهاريج المياه والبساتين ، ومارستان للمرضى يسمى دار الفرج، إلى جانب الحصون والأبراج والقصبات والأسوار والأبواب (٣).

وتجدر الإشارة هنا إلى حدوث تطور ملحوظ فى فن العمارة العسكرية على عهد الموحدين . فالمرابطون قبلهم استخدموا الحجر فى مبانيهم الدفاعية فى مراكش أو الطين المدكوك مع الدبش (الحجارة المكسرة) كما يظهر فى بعض أبواب تلمسان . ولكنه مع قيام دولة الموحدين تحولت تقنية البناء العسكرى إلى استخدام نوع من الطين المخلوط بالحصى والرمل والجير الذى يدك بين ألواح الخشب - كما يشرح ابن خلدون - فيأتى صلباً كالحجر أو الكونكريت وهو الذى يعرف باسم « الطابية » . وهكذا حلت الطابية محل الحجرفى كل تحصينات الموحدين فى القرن السادس الهجرى (١٢م) (٤).

مما تقدم نرى أن مدينة مراكش ، قد حظيت كعاصمة للامبراطورية الموحدية ، بكل ما يناسبها من رعاية وعناية وتحصين عسكرى ، إلى جانب

---

(١) الحلل الموشية ص ١٢١ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٢٦ .

(٣) الاستبصار ص ٢٠٩ - ٢١٠ وكذلك :

Basset et Terrasse : Sanctuaires et Forteresses Almohades Hespéris 1932).

(٤) سعد زغلول : العمارة والفنون فى دولة الإسلام ص ٥٠٣ (منشأة المعارف ١٩٨٦) وكذلك (لاندو Landau : القصبات فى جنوب مراكش ص ٢١ ، لندن ١٩٦٩ ، بالانجليزية) .

موقع جغرافى فريد يجمع بين جمال منظر رمالها الحمراء ، ونخيلها الخضراء، وثلوج جبالها البيضاء ! مما جعلها أجمل حواضر الدنيا .

٣) **الثغور والروابط الساحلية :** اهتمت دولة الموحدين بوسائل الدفاع الساحلى ضد عارات المعتدين على أراضيها فى المغرب والأندلس ، فأنشأوا القواعد ، والقصور ، والروابط والمحارس ذات المناور أو الطلائع Atalayas التى تشعل النار ليلاً على قممها ، وتثير الدخان نهاراً لإنذار الأهالى عند وقوع غارة بحرية معادية . هذا ، إلى جانب استخدام الطبول للغرض نفسه ، وهى تقابل الأجراس والأبواق عند المسيحيين .

ومن أمثلة تلك القواعد والحصون والثغور الساحلية على عهد الموحدين نذكر :

أ- رباط تيط :

ويقع على ساحل المحيط الأطلسى جنوبى مازيغان (الجديدة الحالية) بنحو ١٥ ك.م ويؤرخ بناء هذا الحصن فى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢م)(١) .

ب- قصبة المهدية :

بناها الخليفة عبد المؤمن بن على سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠ م على الصخور البحرية عند مصب وادى أبى الرقراق الحالى ، مقابل مدينة سلا وفى مكان مدينة الرباط(٢) ، أو قصبة الوداية

---

(١) راجع : (Georges Marçais : L'architecture Musulmane d'Occident P. 222, Paris 1954).

(٢) يلاحظ أنه فى ذلك الوقت كان العمران سائداً فى مدينة سلا وضاحيتها شالة ، أما مكان مدينة الرباط المقابل لها ، فكان فى الأصل فناء متسعًا أو رباط يرابط فيه آلاف المجاهدين لجهاد قبائل برغواطة المارقة المجاورة فى غرب المغرب . وقد زاره الرحالة ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى (١٠م) ولما قضى المرابطون على برغوطة وسيطروا على هذه المنطقة ، بنوا هناك قصبة صغيرة سكنتها جماعة من صنهاجة اللثام وهم بنو ترغة فسميت بقصر بنى ترغة (التواركة) . كذلك يشير صاحب الحلل الموشية ص ١١٢ إلى قصبة الأمير المرابطى تاشفين بن على فى الرباط عند كلامه =

الحالية (١)، وعلى ساحل المحيط الأطلسى . وقد سماها بالمهدية تيمناً باسم المهدى بن تومرت ، فأدار أسوارها ، وفتح أبوابها ، وأسس مدرستها ، وشيّد منارها وبنى مسجدها ، وقصره ، ثم ساباطه فيها ، كما أجرى لها الماء فى سرب تحت الأرض من عين غبولة التى تقع فى جنوب غرب الرباط بنحو تسعة عشر كيلومتراً . ومازالت آثار السقاية المتفرعة منها باقية إلى الآن (٢).
وقد نقش الخليفة عبد المؤمن على الباب الشرقى لهذه القصبة تلك الآية الكريمة التى ترمز إلى جهاد العدو المهاجم من البحر :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله ... إلى قوله : وبشّر المؤمنين»(٣).

ولا يبعد أن يكون هدف الخليفة الموحدى فى إطلاق اسم المهدية على هذه القلعة هو محاكاة مهدية الفاطميين بتونس من حيث حصانتها وإحاطتها بالبحر ، وإن كانت الرواية الموحدية السائدة تقول بأن أهل الأثر وكذلك المهدى ابن تومرت كانوا قد بشروا ببناء مدينة فى هذا المكان والزمان (٤).

= عن احتلال عبد المؤمن لمدينة سلا وعلى هذا الأساس افترض چاك كاييه فى كتابه عن مدينة الرباط ص ٤٤ أن قصر ترغة وقصبة الأمير تاشفين كانتا فى مكان واحد ، أو لعل الثانية قامت على أنقاض الأخرى فى مكان قصبة الوداية الحالية .

(١) الوداية قبيلة عربية من قبائل المعقل ، سكنت حوز فاس ،وجنّدهم المولى اسماعيل فى جيوشه فى القرن ١٧م ، كما أسكنهم المولى عبد الرحمن قصبة الرباط فنسبت إليهم قصبة الوداية . وكان قائدهم أبو العلاء إدريس الجرارى ، وهو جد الجراريين الموجودين بالرباط حالياً . راجع (عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ١٣٨ ، ٤٣٤ ، أبو عبد الله بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ص ٦٨ (الرباط سنة ١٣٤٥هـ) .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢١٨ ، ٤٤٨ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٨ ، كذلك :

Jacques Caillé : La Ville de Rabat , Histoire et Archeologic P. 27, 44, Paris 1949) .

(٣) سورة الصف ٦١ (آيات ١٠-١٣) راجع (محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١٣ بوجندار المرجع السابق ص ٤١-٤٢) .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المصدر السابق ص ٤٤٧ ، بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ص ٤٤ .

كذلك ينبغى أن نضيف إلى ما تقدم حقيقة هامة وهى ضرورة عدم الخلط بين مهدية الموحدين التى صارت قصبة رباط الفتح عاصمة المغرب الآن ، وبين مدينة المهدية الحالية أو المعمورة التى تقع على الضفة اليسرى لمصب وادى سبو بالقرب من القنيطرة على ساحل المحيط الأطلسى ، فهذه الأخيرة - كما ذكرنا سابقًا - سميت بالمهدية أيام العاهل المغربى المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م عندما ضيق الحصار على الجيش الأسبانى المرابط فيها ، فخرج إليه راهبها أو قائد جيشها مستسلمًا وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان ، فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها المهدية(١) .

أما قصبة المهدية التى بناها عبد المؤمن ، فإنه لم ينس أن يربط بينها وبين مدينة سلا المقابلة لها بواسطة جسر من السفن المشدود بعضها ببعض بالسلاسل عبر وادى الرمان أو أسمير (٢) (أبو الرقواق الحالى) وعليها ألواح من الخشب كى تمر عليها الجيوش والمعدات المتجهة إلى أسبانيا (٣) .

جـ) ميلاد مدينة الرباط (رباط الفتح) :

بعد وفاة الخليفة عبد المؤمن بن على خلفه ولده أبو يعقوب يوسف (٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣ - ١١٨٤ م) الذى سار على سياسة والده العسكرية الجهادية من حيث تشييد الثغور ومد الجسور وإقامة الأسوار والحصون حول المدن ومناجم المعادن لحمايتها من المعتدين (٤).

---

(١) عبد الرحمن بن زيدان : أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس جـ ٢ ص ٧٢ ؛ عبد الهادى التازى : مهدية المولى اسماعيل ، مجلة المغرب ، مايو سنة ١٩٦٣ ، انظر كذلك :

(Caillé : La Ville de Rabat P. 63)

(٢) أطلق الإدريسى اسم أسمير ، ومعناه الكبش بالبربرية ، على وادى أبى الرقراق . بينما يسميه المراكشى وادى سلا ووادى الرمان ولعلها الرومان على اعتبار أن سلا مدينة رومانية الأصل . أما اسم أبو الرقراق فجاء بعد ذلك وقد ذكره الحسن الوزان (ليون الافريقى) فى القرن السادس عشر فى كتابه وصف افريقيا .

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٥٠ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٢٠ حيث يتكلم عن معدن (أى مناجم) بلاد السوس وحمايته .

ومن أبرز أعماله تأسيس مدينة رباط الفتح التى شيّد والده قصبتها المهدية من قبل . وهنا يقدم لنا ابن صاحب الصلاة وصفًا جميلاً لعملية ميلاد هذه المدينة الخالدة المطلة على المحيط ، وعاصمة المغرب حالياً ، يقول :

« لما خرج الخليفة أبو يعقوب يوسف من الحضرة مراكش سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م للجهاد فى الأندلس ، اتجه فى طريقه إلى قصبة المهدية التى بناها والده على فم البحر بجوار سلا . وحينما قرب منها ، أمر بتغيير نظام موكبه التقليدى على غير عادة ، فنقل الطبول التى تقصف وراءه فى الساقة (أى المؤخرة) ، إلى المقدمة مع الرايات الكبار أمامه تعظيماً لهذا اللقاء . فلما بلغ باب المهدية ، ردّ إلى الناس واستقبلهم وهو راكب على فرسه ، وحياهم وبارك جمعهم ، ثم أمرهم بالنزول فى تلك الأراضى العريضة ، وطلب منهم البقاء والبناء ثم دخل إلى داره بالمهدية[١].

ولا شك أن هذه الحركة الخلافية المباركة ، وهذا التبريز الفخم الضخم المصاحب لها ، يعد بمثابة تكريس لميلاد مدينة الرباط ، وذلك فى يوم الإثنين الموفى عشرين من رجب من سنة ست وستين وخمسمائة (٥٦٦هـ/ ١١٧١م) .

وفى اليوم التالى شرع الخليفة يوسف فى تنفيذ ذلك عمليًا حينما وجد أن الماء الجارى المسرب الذى جلبه أبوه عبد المؤمن إلى هذا المكان من عين غبولة منذ أكثر من عشرين سنة قد فسد جريه ، وأسن ماؤه ، وتعطل فى البطاح سقيه ، فأمر بإعادته إلى حالته الأولى ، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجمع فيه الماء ثم يجرى من ذلك الصهريج إلى السقاية المذكورة حيث شرب خيل العساكر ومواشيهم ومواشى الناس »[٢].

« كذلك وجد أن الجسر الذى كان أبوه قد نصبه بين المهدية وسلا عبر الوادى والنهر الفاصل بينهما (أبو الرقراق) لإجازة الناس والجند عليه ، قد خرقته البحور ، وهدمته الدهور ، فأمر بنصب جسر آخر إلى جانبه أعظم منه

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٤٤٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٤٩ – ٤٥٠ .

بناء وأساساً واعتلاء من الحجر والجيار ، الثابت لأمواج البحار ، ووصله بالقوارب والخشب حتى جاء فى أمن له من الأزمان والحقب ، (١).

ويضيف صاحب الاستبصار فى وصف هذا الجسر الضخم(٢) بأنه كان مقاماً على ٢٣ معدية مدت عليها أوصال الخشب ، وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذى لا يؤثر فيه الحافر تجوز عليه العساكر والمسافرون ، وحولها يتصيد أنواع السمك والشابل(٣) .

على أن مدينة رباط الفتح لم تأخذ شكلها الرسمى كمدينة بهذا الاسم إلا فى عهد المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠- ٥٩٥هـ/ ١١٨٤- ١١٩٩م) الذى سار على سياسة والده يوسف وجده عبد المؤمن فى تشييد الثغور والمساجد والحصون . ومن أهم أعماله فى هذا الصدد اتمام بناء مدينة الرباط التى اختطها والده بجوار قصبة المهدية التى بناها جده .

وقد أنفق المنصور عليها الأموال الطائلة وأخماس غنائم الروم وسماها رباط الفتح ولعل سبب اهتمام الموحدين بموقع هذه المدينة يرجع إلى أنه :

١- يقع على الساحل قرب مضيق جبل طارق وفى نقطة متوسطة بين فاس ومراكش وبين البلاد الشمالية والجنوبية التى يقتطعها وادى أبو الرقراق .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٢) يلاحظ هنا أن هناك فرقاً لغوياً بين الجسر والقنطرة ، فالجسر متحرك مقام على قوارب ويمكن قطعه وفتح بعض أجزائه لمرور السفن ثم يعاد شده من جديد مثل الكبارى فى الوقت الحاضر . أما القناطر فهى أبنية ثابتة بعرض النهر . وهذا يفسر عبارة اليعقوبى عندما قيل للخليفة العباسى أبى جعفر المنصور عن أهمية موقع بغداد : وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك . راجع كتابنا (فى التاريخ العباسى ص ٥٥) .

(٣) كتاب الاستبصار ص ١٤١ والسمك بجميع أنواعه وأحجامه يطلق عليه اسم الحوت فى المغرب . والشابل نوع نهرى موسمى مشهور منها ، ومعروف فى الأسبانية باسم Sábalo وقد اشتكى الوزير الغرناطى ابن الخطيب من شوكه بقوله : وشابلها مقصور على فصل وكم لشوكه من شبا نصل ! ، ولكنه عاد ومدحه بقوله : وكفى بالشابل رزقاً طرياً وسمكاً بالتفضيل حرياً ، . راجع كتابنا (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ص ٦٠ ، الاسكندرية سنة ١٩٥٩) .

٢ – خصوبة هذه المنطقة وغناها مما يجعلها قادرة على تجهيز الجيوش وتموينها قبل الذهاب إلى الأندلس برسم الجهاد .

وبعد أن أتم المنصور أسوار هذه المدينة وأبراجها ، بنى فيها مسجده المعروف باسم مسجد حسان على اسم مهندسه الذى يقال إنه أندلسى وأن ضريحه موجود بجوار المسجد(١) . ويعد هذا المسجد من أعظم مساجد الاسلام وأكبرها . ويقول صاحب الروض المعطار أنه كان يعمل فى بنائه ونقل أحجاره سبعمائة أسير من أسارى الفرنج . وقد شبهه ابن بطوطة بمسجد بلخ فى عظمته ، كما شبه صاحب المعجب منارته على هيئة منارة الاسكندرية القديمة فى علوها ، وقال إنه كان يصعد فيه (المسجد) إلى أعلاها فى طريق حلزونى داخلى بغير درج(٢) . ولقد تعرض مسجد حسان لحريق وزلزال أطاح بطرف صومعته ، كما استخدم بعض خلفاء الموحدين أخشابه فى صناعة سفنهم وأجفانهم ولكنه ظل مع ذلك مضرب الأمثال فى الشهرة والاعتبار مثل قول ابن الخطيب :

« وطلل حسان المثل فى الاشتهار » .

والواقع إن مدينة الرباط وإن كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن هو الذى اختطها ورسم حدودها ، إلا أن ابنه يعقوب هو الذى جعل منها مدينة حقيقية ، وفى ذلك يقول ابن عذارى :

« وأمر المنصور بتعميرها وتحصينها حتى صارت معقل الدنيا ارتفاعًا ووثاقة ومنعة »(٣) .

كذلك يصفها ابن الخطيب بقوله : « وفى مقابل سلا يقع الرباط ، الذى ظهر به من المنصور الاغتباط ، حيث القصبة والساباط »(٤) . أما عبد الواحد

---

(١) عبد الله السوسى : تاريخ رباط الفتح ص ١٢٥ (الرباط ١٩٧٩) .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٦٦ ، بوجندار : مقدمة الفتح ص ٤٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٣٣٩ .

(٤) راجع كتابنا (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص ١٠٥) .

المراكشى فيسميها اسكندرية المغرب لأنها كانت تشبهها فى اتساعها وحصانتها وحسن تقسيمها وفى منارتها أيضاً (١).

وعلى الرغم من أن مدينة الرباط لم يمتد العمران فيها أيام يعقوب المنصور حتى قيل إنه لما رآها فارغة ندم على بنائها ، إلا أنها عمرت بعده ولا سيما حينما استوطنها أهل شرق الأندلس فى عهد الخليفة الرشيد الموحدى فى القرن السابع الهجرى (١٣م)(٢) ثم قدر لها أخيراً أن تصبح عاصمة المملكة المغربية ، وكان ذلك منذ سنة ١٩١٢م حينما اختارها المارشال الفرنسى ليوتى Lyautey مركزاً إدارياً للمغرب (٣).

د) مدينة الفتح بجبل طارق :

لم تقتصر المنشآت العسكرية التى شيّدها الموحدون على بلاد المغرب فحسب ، بل شملت أيضاً بلاد الأندلس . ومن أهم تلك الأعمال مدينة الفتح التى بناها الخليفة عبد المؤمن على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠ م لتكون قاعدة حصينة لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب . ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضاً بجبل الفتح (٤). ولقد أحاطها بالأسوار والأبراج واتخذ فيها جامعاً وقصوراً له ولأولاده ، وغرس فيها الأشجار ، وجلب إليها الماء العذب من آبار الجبل ، كما صنع له الحاج يعيش المالقى المهندس فى أعلا الجبل رحى تطحن الأقوات بالريح (٥) !! وهو عمل فريد فى نوعه لأن الأرحاء أو الطواحين المعروفة فى تلك العصور القديمة كانت طواحين مائية تدور بجرية

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤١ .

(٢) راجع مقال ملتشور انطونيا فى مجلة الأندلس سنة ١٩٤٥ عن هجرة أهل شرق الأندلس لتعمير الرباط فى عهد الرشيد الموحدى فى القرن السابع الهجرى ، وهى من رسائل أحمد بن عميرة المخزومى .

(٣) من الكتب القيّمة التى ظهرت حديثاً عن مدينة الرباط كتاب (سحر السيد عبد العزيز سالم : مدينة الرباط فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية سنة ١٩٩٦) .

(٤) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢١٣ حيث يقول : ومن سبتة عبر عبد المؤمن البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسماه هو جبل الفتح فأقام به شهراً .

(٥) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ١٤٢ حاشية ٢ .

الماء فى الأنهار والقنوات وتستخدم فى طحن الغلال والأقوات . ولقد أشار آدم متز نقلاً عن ابن حوقل والمقدس إلى وجود أرحاء هوائية فى سجستان وكرمان تستخدم فى مواسم معينة تشتد فيها الرياح الشمالية من منتصف شهر يونية وتستمر شهرين ، فكان أهل تلك البلاد ينتفعون بهذه الرياح فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها (١).

وواضح أن هذه الأرحاء كانت تعمل بصفة مؤقتة بينما رحى الريح التى صنعها الحاج المهندس يعيش المالقى فى جبل طارق كانت تعمل بصفة دائمة لأول مرة .

ومن حسن الحظ أنه يوجد لدينا ضمن مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرها العالم الفرنسى ليڤى بروڤنسال ، الخطاب الرسمى الذى وجهه الخليفة عبد المؤمن إلى الطلبة (٢) فى غرناطة سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ، يعلنهم فيه عن عزمه على بناء مدينة الفتح بجبل طارق ، ويطلب منهم ومن اخوانهم طلبة اشبيلية ، وأشياخ الأندلس ، أن يعاونوه على ذلك العمل بالذهاب إلى جبل طارق ومشاركة المهندسين فى اختيار المكان الصالح إلى حين قدومه إليهم (٣) . والرسالة من إنشاء كاتبه الأديب أبى جعفر أحمد بن عطية (٤).

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٣٥٨ – ٣٥٩ (ترجمة عبد الهادى أبو ريدة) كذلك يحكى عن أبى لؤلؤ فيروز المجوسى قاتل عمر بن الخطاب وكان فارسيًا من نهاوند أنه قال : لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت، (المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٩) .

(٢) كان مدلول اسم الطلبة فى المغرب يختلف عن مدلوله فى المشرق ، فالمراد بالطلبة هنا شيوخ العلم والمعرفة على اعتبار أن العالم طالب علم مدى الحياة . وكان منصب رئيس الطلبة من المناصب الكبرى فى الدولة ويسند إلى شخصية علمية مرموقة وبظهير (أى مرسوم) سلطانى . ونلاحظ أن الرسائل التى وجهها خلفاء الموحدين إلى المدن المختلفة كانت كلها تقريباً موجهة إلى طلبة تلك المدن . أما صغار الطلبة فكان يطلق عليهم اسم الحفاظ (الحلل الموشية ص ١٢٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٨٥) .

(٣) انظر :
(Lévi Provençal : Trente Sept Lettres officielles Almohades P. 95-99, Rabat 1941).

(٤) راجع سيرة هذا الكاتب ابن عطية وأخبار نكبته وقتله فى (السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١١٩) .

كذلك توجد تفاصيل أخرى هامة حول هذا الموضوع فى كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، بالإضافة إلى القصائد الشعرية التى قيلت بمناسبة زيارة عبد المؤمن لهذه المدينة بعد انتهاء العمل فيها (١) . هذا ، ومازالت بعض حصون هذه المدينة المغربية باقية إلى اليوم بجبل طارق (٢) .

هـ) تحصين اشبيلية *Sevilla* :

اهتم الموحدون بتحصين اشبيلية باعتبارها حاضرتهم المفضلة فى الأندلس ، فضلاً عن كونها فى غرب الأندلس بالقرب من مملكة البرتغال الناشئة التى كثر اعتداءاتها على هذه الأجزاء الغربية الأندلسية بقيادة ملكها ألفونسو انريكث Alfonso Enriquez الذى تسميه المصادر العربية ابن الرّنك أو ابن الريق ، وقائده الداهية جرانده الجليقى Giraldo el Gallego الذى اخترع آلات من السلالم(٣) العالية ، التى يعلو طول عيدانها أسوار المدن الأندلسية ، فاستطاع بهذه الوسيلة أن يغير على العديد من مدن غرب الأندلس ليلاً وأن يقتل السُمار أو الحراس الليليين ويستولى عليها ويأخذ كل من فيها سبياً وفيئاً(٤) .

واضطر الموحدون بقيادة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى شن الحملات العسكرية على البرتغال حتى أذعن ملكها للصلح سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣ م ، واستردوا منه مدنهم مثل بطليوس وغيرها التى ابتنوا فيها القصبات الشاهقة المانعة التي لا يرقى إليها جرانده أو غيره بسلاليمه العالية . ثم لم يلبث جرانده

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ١٣٧ ، ١٥٩ - ١٦٤ ، وكذلك (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) الحميرى : الروض المعطار ص ١٢١ والترجمة الفرنسية ص ١٤٨ حاشية ٢ ليفى بروفنسال ؛ وكذلك :

(Lévi Provençal : Documents indedits d'histoire Almohade P. 204 Note 1, Paris 1928) .

(٣) تكتب أحياناً السلاليم أو السلاليل .

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ؛ ابن عذارى : نفس المصدر ص ٧٨ - ١٠٣ .

نفسه أن قتله الموحدون فى السنة التالية سنة ٥٦٩هـ بعد أن ثبتت خيانته رغم تأمينه وقبوله للعمل معهم فى دولتهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ولما كانت اشبيلية تحتل موقعاً خطيراً بالنسبة لهذه المنطقة الغربية ، فقد اهتم الموحدون بتحصينها وتأمين الطرق والجسور التى تربطها بمدن غرب الأندلس . فيروى المؤرخون أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قام فى هذا الصدد بالأعمال التالية :

١- أقام عندها (٥٦٦هـ) جسراً ضخماً من السفن الكبيرة المشدود بعضها ببعض بواسطة سلاسل حديدة ضخمة على الوادى الكبير الذى تطل اشبيلية عليه ، ويمتد إلى قصر اطريانه Triana إحدى حواضرها المقابلة لها . وهذا الجسر العظيم ساعد على إجازة العساكر المتجهة للغزو فى غرب الأندلس ، فضلاً عن مرور الناس عليه لقضاء مصالحهم . وكان أول عبور على هذا الجسر الجديد تلك النجدة السريعة من الميرة والأقوات التى أرسلت على عجل إلى مدينة بطليوس على أربعة آلاف بغل فى صحبة عسكر مبارك من الموحدين(١) .

٢- ابتنى قصبتها الداخلية والبرانية (٢)خارج باب الكحل ، كما ابتنى الزلاليق (جمع مزلاق أو مزلاج) لإغلاق أبواب اشبيلية من جهة الوادى احتياطياً من السيل .

---

(١) المن بالإمامة ص ٢٣٤ ، ٤٦٢ . كذلك ورد وصف جسر اشبيلية فى :

(Mogrado : Historia de Sevilla P. 29 & Grónica General de Alfonso el Sabio P. 760-761 Editado por Menendez Pidal) .

(٢) الأبراج البرانية ابتكار موحدى قصد بها تدعيم الستارة أو السور الأصلى بهدف غلق الطريق الأمامى أمام الأعداء . وقد انتقل الاسم إلى الأسبانية فى صيغة Albarranas . راجع :

(Leopoldo Torres Balbas : Las Torres Albarranas , Al Andalus , Vil. II, 1942) &

السيد عبد العزيز سالم : العمارة الاسلامية فى الأندلس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن العدد الأول سنة ١٩٧٧ .

٣- بنى دار صنعة للقطائع ، أى الأسطول البحرى ، تتصل من سور القصبة الذى على الوادى الكبير عند باب القطائع وتمتد إلى باب الكحل .

٤- أرسل منها البعوث العسكرية براً وبحراً ضد مملكة البرتغال ، استرد بها المدن التى احتلتها ، وأجبر ملكها على طلب الصلح سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م.

٥- فدى من وجد من أهلها أسرى عند الروم وأنقذهم من ربقة العبودية .

٦- ابتنى فيها الجامع الكبير لاتساع الناس فيه ، فساوى به جامع قرطبة فى الاتساع ، كما ابتنى الصومعة (المئذنة) إلى نصفها .

٧- عمّر الثغور القفرة التى حول اشبيلية بالسكان وابتنى جميع أسوارها وأعادها للإسلام بعد إقفارها (١) .

وبعد وفاة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن شهيداً فى أرض البرتغال ، خلفه ولده يعقوب المنصور سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤ م الذى سار على سياسة والده الجهادية فى الأندلس ، فقاد الحملات العسكرية ضد البرتغال وقشتالة ، وأنزل بملك البرتغال ابن الرنك عقاباً رادعاً جعله يختفى وراء حصونه ، ويتنازل عن العديد من مدنه . ثم توج المنصور جهاده بالنصر الكبير الذى أحرزه على ملك قشتالة الفونسو الثامن الملقب بالصغير El Chico فى موقعة الأرك Alarcos سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م .

ولم ينس المنصور أثناء ذلك الاهتمام بعمارة اشبيلية ، فبنى فى خارجها حصناً منيعًا برسم نزول المجاهدين ، ورهبة فى نفوس الكافرين ، وحماية لمنطقة الشرف Aljarafe الغنية بأعنابها وزياتينها . وأطلق عليه اسم حصن الفرج Aznalfarache تيمنًا بحصن قديم بهذا الاسم كان للمعتمد بن عباد هناك . وقد احتفل المنصور بإتمام بناء هذا الحصن فى سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م(٢).

---

(١) حول أعمال الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن فى اشبيلية راجع (المن بالإمامة ص ٢٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٨١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٨٩ ، ١٩٣ .

كذلك استكمل المنصور بناء صومعة المسجد الجامع الذى بناه والده فى اشبيلية والتى اشتهرت فى أسبانيا حتى اليوم باسم الخيرالد La Jiralda (أى الدوّارة) وهى توأم لمنارة حسان بالرباط والكتبية فى مراكش (١).

وظل المنصور مهتماً بحماية الأندلس وتقويتها طوال حياته ، ويؤثر عنه أنه قال لمن حوله قبيل وفاته :

« أوصيكم بتقوى الله وباليتيمة والأيتام ... اليتيمة جزيرة الأندلس ، والأيتام سكانها ، وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها ، وحماية ثغورها ، وتربية أجنادها ، توفير رعيتها . ولتعلموا ، أعزكم الله ، أنه ليس فى نفوسنا أعظم من همها (٢).

أمثلة لبعض الحصون والأبراج والقصور الموحدية :

١- حصن شنفيره Sanfiro : كان هذا الحصن يقع بجوار مرسية Murcia فى شرق الأندلس وقد اشتهر بالارتفاع والمنعة . يروى أن قائد جيوش الموحدين الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى حينما طاف على حصون الأندلس يتفقدها ، نظر إلى هذا المعقل الشاهق المنيع وهو بارز إلى السماء مع وثاقة بنائه ، فأعجبه وقال : كيف أخذ الروم هذا الحصن من المسلمين ؟ فقيل له : غدروا به فى زمن الصلح ! فقال : أما فى أجناد المسلمين من يجازيهم بفعلهم ؟ فسمعه القائد الأندلسى محمد بن هود ، وكان فى بداية أمره ، فتأثر بكلمته وأسرها فى نفسه إلى أن تمت له الحيلة فى ذلك ، إذ أتى بسلم من الحبال وطلع عليه وذبح السامر - أى الحارس الليلى - وأخذ رجاله يطلعون واحداً بعد الآخر ثم استولوا على الحصن واضطر الأسبان إلى طلب الصلح ، فقالوا له أخذناه فى الصلح كما أخذتموه فى الصلح ! وكان ذلك فى سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة ابن هود بين أهل شرق الأندلس ، وصاروا يقولون هو الذى استرجع شنفيره ! (٣).

---

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المصدر ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر ص ٢٠٨ .

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص ١١٦ والترجمة الفرنسية ص ١٤٢ (نشر وترجمة=

٢- برج الذهب Torre de Oro : بنى الموحدون العديد من الأبراج الحصينة للدفاع والمراقبة ، ونخص بالذكر منها البرج الضخم المعروف حتى اليوم ببرج الذهب المطل على الوادى الكبير فى اشبيلية لتدعيم سورها . أنشأه والى اشبيلية أبو العلاء ادريس بن أبى يوسف يعقوب المنصور وذلك سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م(١) . وذلك قبل أن يصبح خليفة باسم المأمون .

٣- قصور السادة : وهى القصور الحصينة التى شيّدها السادة (الأمراء) الموحدون ولا سيما فى الأندلس حيث اشتهرت باسم « قصر السيد » وقد أشار صاحب الحلل الموشية إلى بعضها مثل :

أ- قصر السيد الذى بناه السيد ابراهيم اسحق بن أبى يعقوب يوسف ووالد الخليفة عمر المرتضى ، بناه سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م على نهر شنيل خارج غرناطه وكذلك الرابطة التى أمامه (٢) .

ب- قصر السيد بمالقة الذى بناه سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م السيد أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور حينما كان واليًا على الأندلس ثم صار خليفة بعد ذلك باسم المأمون وتوفى سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م ويقال إن تخطيط بناء هذا القصر كان برأيه واختراعه(٣) .

جـ قصر نجد ، والدار البيضاء الملاصقة لها بحضرة غرناطة وهما من بناء السيد أبى مالك عبد الواحد ابن يوسف بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م(٤) .

= ليفى پروفنسال) . ويرى المستشرق الأسبانى أويثى ميراندا أن شنفيره San Prdro del Pintar تعريب للمكان الحالى . راجع :

(A. Huici Miranda ; Historia Musulmana de Valencia y su region Vo. III P. 239) .

(١) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الاسلام فى الأندلس ص ١١٥ (الاسكندرية ١٩٨٥) .

(٢) الحلل الموشية ص ١٤٠ - ١٤١ نشر علوش .

(٣) الحلل الموشية ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٣٦ .

ونختم هذه الفترة بقصة تدل على تقدم الأندلسيين فى فنون العمارة العسكرية على عهد الموحدين ، كما تدل أيضاً على وفائهم وإخلاصهم فى حب وطنهم الأندلسى خلال عمليات الاسترداد Reconquista التى قادها الملك فرناندو الثالث الملقب بالقديس (San Fernando) فى أواخر عصر الموحدين يروى صاحب الروض المعطار أنه فى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣ م استعصى على الفنش أى ملك أسبانيا فرناندو الاستيلاء على الكرس Alcaraz قاعدة اقليم البسيط Albacete المتاخم لشرق الأندلس وكان ذلك بسبب شجاعة قائد هذا الحصن أبى جعفر بن فرج ، وحسن دفاعه وصبره وضبطه . يقول وكان عند الفنش مهندس من المسلمين المعاهدين بطليطلة فصنع له برجًا عظيمًا من خشب ارتفع به على سور الحصن . فلما أكمل المهندس عمله ، بعث إلى ابن فرج فى الباطن : انى صنعت هذا البرج اضطراراً لحفظ دمى ، وصون من ورائى من الأهل ، فاحتل فى إحراقه لئلا تكون ذنوب المسلمين فى عنقى وعنقك إن تركته ، وأنت قادر عليه بأنواع الحيل ، وقد طليته بدهان خفىّ يقبل النار بسرعة ، فاعرف كيف تكون فى الكتم والإبقاء علىّ ». فاختار ابن فرج من انجاد الرجال جماعة ونهض بهم وبأيديهم القطران والكتان والنيران ، ودفع تحت الظلام بهم نحو البرج ، فأحرقه حتى صار رماداً ، ومات من كان فيه ومن حامى عنه ، ورجع سالماً . فاغتم الفنش وقال : كان رجاؤنا فى فتح الحصن وقد طالت عليه إقامتنا .... الخ وشغل الله الفنش مدة طويلة بهذا الحصن عن بلاد الاسلام ، وكان الناس يرون ذلك فى صفيحة ابن فرج »(١) .

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ١٦٦ – ١٦٧ والترجمة الفرنسية ص ٢٠٠ (نشر وترجمة ليفى بروفنسال) والمقصود بالصفيحة هنا الوجه أى كل هذه المآثر فى وجه ابن فرج قائد الحصن .

الفصل الرابع

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس
فى عصر بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة

الفصل الرابع

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس
فى مملكة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة
(٦٣٥-٨٩٧هـ/ ١٢٣٨- ١٤٩٢م)

إذا ذكر اسم غرناطة يسرح الخيال فى الحمراء La Alhambra بقصورها وأبهائها وجنائها مثل جنة العريف Generalife وغيرها ، وما روى عنها من قصص وحكايات تناقلتها الأجيال ، واختلط فيها الواقع بالخيال ، واشتهر من وحى إلهامها شعراء وأدباء وفنانون فى كل زمان ومكان . وحسبى أن أشير إلى كتابات الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب ، وإلى تلميذه وخليفته شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك ، وإلى الأديب الأسبانى بيريث دى هيتا Perez de Hita (ق ١٦) فى كتابه عن الحروب الأهلية فى غرناطة ، والأديب الفرنسى شاتوبريان Chateaubriand (ق ١٩) فى قصته عن مغامرات آخر بنى سراج ، والأديب الأمريكى واشنطون إيرفنج فى قصصه عن الحمراء ، والموسيقار الأسبانى Isaac Albéniz البينث فى مقطوعاته الرائعة عن غرناطة وحى البيازين Albaicin، وكثيرين غيرهم . وما أظن أن هناك دولة تمتعت بمثل هذه الشهرة الكبيرة فى الجهاد الحربى والإبداع الفنى مثل هذه الدولة الاسلامية الصغيرة ، دولة بنى الأحمر أو بنى نصر فى غرناطة فى الركن الجنوبى الشرقى لشبه جزيرة إيبيريا .

وإذا طرحنا الخيال مؤقتًا وانتقلنا إلى الواقع التاريخى ، نجد أن مملكة غرناطة تمثل الفصل الختامى لتاريخ الأندلس ، أو تاريخ الحكم الاسلامى فى أسبانيا الذى دام حوالى ثمانية قرون .

أولا : وصف مملكة غرناطة :

لقد جاءت نشأة هذه الدولة فى ظروف صعبة بعد الكارثة التى حلت بالأندلس على إثر هزيمة جيوش المسلمين بقيادة الخليفة أبى عبد الله محمد الناصر لدين الله أمام جيوش القوى الصليبية بقيادة ملك قشتالة الفونسو الثامن

فى صفر سنة ٦٠٩هـ يوليو سنة ١٢١٢م فى موقعة العِقاب (بكسر العين جمع عقبة) Las Navas de Tolosa والتى تسمى أيضاً بمعركة الموراداال Batalla del Moradal . وهو اسم المعبر أو الممر الجبلى فى جبال الشّارات Sierra Morena الذى يؤدى إلى سهل الأندلس حيث العواصم قرطبة واشبيلية وقادس وغيرها ولم تتحمل دولة الموحدين هذه الكارثة ، فانهارت وانهار معها خط الوادى الكبير وتساقطت مدنه تباعاً فى يد الملك فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون وحفيد الفونسو الثامن[1] . فاستولى على قرطبة سنة ١٢٣٦ ، وجيان سنة ١٢٤٦ ، وقرمونة سنة ١٢٤٧ ، واشبيلية سنة ١٢٤٨م إلى جانب قادس وشريش Jerez وغيرها ، وقد أهلته هذه الفتوحات الكبرى فى أن يلقب فيما بعد بالقديس San Fernando [2].

وتوفى هذا الملك فرناندو الثالث نتيجة اصابته فى وباء الطاعون سنة ١٢٥٢م وخلفه ولده الفونسو العاشر الملقب بالعالم El Sabio.

وفى نفس هذا الوقت أغار ملك أراجون بجيوشه وأساطيله على شرق الأندلس واستولى على أهم مدنه مثل بلنسية وجزر البليار .

ولقد شجعت هذه الحالة المؤلمة التى كانت عليها الأندلس بعد كارثة العقاب على قيام بعض الرؤساء والقادة المغامرين بمحاولة الاستقلال بحكم الأندلس بغية انقاذها من تلك النكسة التى حلت بها ، فتكوّنت بذلك فترة طائفية ثالثة أو رابعة نذكر من قادتها الرئيس محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية والذى ذاعت شهرته وشجاعته فى شرق الأندلس قبل ذلك الوقت بأكثر

---

(١) بعد وفاة ملك قشتالة الفونسو الثامن صاحب معركة العقاب سنة ١٢١٤ ، خلفه ابنه انريك الأول Enrique I الذى كان صبياً فى الحادية عشرة من عمره ، فتولت الوصاية عليه أمه ليونور Dona Leonor ثم أخته برنجويلا Dona Brenguela ثم حدث أن مات هذا الملك الصبى سنة ١٢١٧ إثر سقوطه من مرتفع وهو يلعب مع أترابه ، فخلفته أخته برنجويلا التى تنازلت عن العرش لولدها فرناندو بن الفونسو الحادى عشر ملك ليون . وصار يعرف باسم فرناندو الثالث . ثم لم يلبث بعد وفاة والده الفونسو الحادى عشر سنة ١٢٣٠ أن صار ملكاً على قشتالة وليون .

(٢) أسبغ عليه صفة القداسة البابا كليمنت العاشر Clement X سنة ١٦٧١م .

من عشر سنوات عندما احتل حصن شنفيره المنيع Sanfiro بشرقى مرسية Murcia سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م .

وقد انضم لابن هود قائد مغامر اشتهر بشجاعته وجرأته وهو المقدم الغشتى (Agostino فى الحوليات المسيحية) الذى بايع ابن هود فى مكان يعرف بالصخور أو الصخيرات Penascales بالقرب من مرسية سنة ٦٢٥هـ/ ١١٢٨م وصار قائداً لأساطيله فى اشبيلية وسبته (١).

ومن القادة الرؤساء الذين اشتهروا بالشجاعة والاقدام فى ذلك الوقت أيضاً الرئيس محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر حاكم بلدة أرجونة Arjona من أعمال جيان Jaen .

ولقد استطاع محمد بن يوسف بن هود فى بادئ الأمر أن يجمع شمل معظم ما تبقى من بلاد الأندلس ، واعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسى ليكسب حكمه الشرعية اللازمة فى الأندلس . غير أن جهود ابن هود لم تلبث أن اصطدمت بمطامع الأسبان من ناحية ، ومطامع الرؤساء الأندلسيين من ناحية أخرى ، وكانت النتيجة أن جرت عليه الهزائم وانتهى الأمر باغتياله على يد بعض أعوانه سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م وهو ابن الرميمى عامله على المرية . عندئذ تحول حكم الأندلس إلى القائد العربى الشيخ محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الذى أسس فى منطقة غرناطة الجبلية دولة بنى نصر أو بنى الأحمر لتكون آخر معقل للإسلام فى جنوب شرق أسبانيا ، وقد امتد حكمها إلى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان (٦٣٥- ٨٩٧هـ/ ١٢٣٨-١٤٩٢م).

ولقد وهبت الطبيعة مملكة غرناطة جبالاً شامخة مثل جبال البشرآت Alpujarras وجبال سيير نيفادا Sierra Nevada أى جبال الثلج وكان الأندلسيون يسمونها جبال شلير وهى تعريب للتسمية اللاتينية Mons Solorius أى جبل الشمس وذلك لشدة لمعان قممه المغطاة بالجليد تحت أشعة الشمس صيفًا وشتاء . ولا شك أن هذه الجبال قد جعلت من غرناطة قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها .

كذلك وهبت الطبيعة مملكة غرناطة ساحلاً طويلاً على البحر المتوسط

يمتد من المرية شرقًا إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوباً ، وهذا جعلها دولة بحرية من دول البحر المتوسط ، كما عرفت هذه المنطقة الساحلية باسمها القديم وهو البلاد البحرية التى ظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة والمحارس والرباطات التى ورثتها عن الأسلاف المجاهدين منذ أيام الأمويين . ومن أهم هذه الموانى الحربية والتجارية نذكر :

المرية Almeria ، وشلوبين Salobrena ، والمنكب Almunecar ، ومالقة Malaga – العاصمة الثانية بعد غرناطة ، ومربلّة Marbella ثم جبل طارق Gibraltar والجزيرة الخضراء Algeciras مفتاح الأندلس من المغرب ، وهى تقابل على الساحل المغربى مدينة سبتة Ceuta مفتاح المغرب من الأندلس . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٨ هـ) وصفًا قيّمًا لأسطول غرناطة ونشاطه وقواعده فى هذه المنطقة بقوله : « وبالبلاد البحرية حراريق للغزو فى البحر الشامى يركبها الانجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء والمهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون فى الغالب ، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل ، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين ، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان ، فيأخذ منهم ما شاء ويهدى ويبيع » (١) .

وكانت مملكة غرناطة تشتمل على عدة كور أو ولايات وهى :

غرناطة ، ومالقة ، والمرية ، وأجزاء من جيان ورندة . وكانت العاصمة مدينة غرناطة وهى مدينة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير ، يحدها من الشمال نهر شنيل Genil (١١ ك.م) المتفرع من الوادى الكبير ، ويشقها نهر حدرّه Darro وهو نهر صغير يصب فى نهر شنيل وتطل عليه هضبة الحمراء La Alhambra ، وجنة العريف Generalife .

وفى جنوب غرناطة تقع مروجها الخضراء الخصبة التى تسمى بالبقاع

---

(١) راجع (ابن فضل الله العمرى : كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس ص ٤٢ – ٥٠ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس) .

ومنها جاءت التسمية الأسبانية Vega بقعة ، Las Vegas البقاع التى انتقلت إلى أمريكا .

وكانت قلعة مدينة غرناطة هى مقر الحكم والسلطان وتقع على هضبة مرتفعة تعرف باسم الحمراء نسبة إلى لون تربتها وقد انتقل هذا الاسم بلغته الدارجة إلى الأسبانية على شكل La Alhambra . أما ملوك بنى نصر أو بنى الأحمر ملوك غرناطة فهم عرب من الأنصار ويرتفع نسبهم إلى سعد بن عباده سيد الخزرج الذى عاون الرسول (ﷺ) فى دار الهجرة . أما تسميتهم ببنى الأحمر فنسبة إلى جدهم عقيل بن نصر الذى لقب بالأحمر لشقرة فيه . وقد استمر هذا اللون الأشقر الضارب إلى الحمرة ، يظهر فى أمراء هذه الأسرة مثال ذلك السلطان محمد السادس الملقب بالبرميخو Bermejo ومعناه اللون البرتقالى الضارب إلى الحمرة ، لون شعره ولحيته .

ومن هذا نرى أنه ليس هنلك علاقة بين اسم الحمراء واسم بنى الأحمر ، فتشابه الاسمين محض مصادفة لأن اسم الحمراء يرجع إلى لون تربتها التى بنيت عليها القلعة ، بينما يرجع اسم بنى الأحمر إلى شقرة فيهم . ومن الطريف أن ملوك بنى الأحمر اتخذوا من هذا اللون الأحمر شعاراً لهم فى لون أعلامهم وقصورهم وقبابهم بل وفى لون الورق الذى يكتبون عليه رسائلهم السلطانية وفى ذلك يقول شاعر الحمراء عبد الله ابن زمرك فى مدح الملك محمد الخامس الغنى بالله (ق ٨ق / ١٤م) :

وترى القباب الحمر ترفع للندى ... وترى العمائم تحتها كالأنجمِ

وقوله أيضاً :

أعلامك الحمرُ فوق السفن خافقةٌ ... وريح سعدك يجريها على قدرِ

وكان المؤسس الأول لهذه المملكة هو القائد العربى الغالب بالله الشيخ محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الذى كان فى الأصل حاكماً على بلدة أرجونة فى اقليم جيان ثم استولى على بسطة Baza ووادى آش Guadix ومالقة وغرناطة التى اتخذها مقراً لحكمه سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م . وقد أشاد المؤرخون المعاصرون أمثال بن سعيد المغربى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)

بشجاعة هذا القائد وجهاده فى مغاورة العدو (١) ، رقال إن هذه الصفات عند الأندلسيين كانت هى الأساس عند اختيار ملوكهم فى هذه الفترة العصيبة (٢) .
كذلك وصفه الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب وصفاً معبراً بقوله :

كان آية من آيات الله فى السذاجة والسلام والجمهورية (أى حب جمهور الناس له) وكان ثغرياً شهماً عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثرا للتقشف والاكتفاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، مباشراً للحروب بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة ، تلقب بالغالب بالله وبالشيخ وأمير المسلمين(٣) .

وبعد وفاة السلطان محمد الشيخ ، خلفه ولده محمد الثانى الملقب بالفقيه (٦٧١- ٧٠١هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢م) لعلمه وفضله وإيثاره العلماء ، ولأنه كما يقول معاصروه هو الذى مهد الدولة النصرية وأقام رسوم الملك فيها ووضع ألقاب خدمتها . وكان فارساً طويل القامة ، أيْداً (أى قوياً صلباً) ، إذا ركب فى موكبه أطل على من يحف به من جميع جهاته فلا يخفى على البعد مكانه . وقد اعتنى بالجيش وخاصة الفرسان كما اهتم بتقوية روح الجنود المعنوية بمختلف الوسائل مثل تنظيم الأبيات المحركات للعزائم كقول كاتبه أبى القاسم بن العابد :

أنوماً وما جفْنُ العدو بنائمٍ   لقد آن إيقاظ الظّبا والعزائمِ (٣)

كذلك يذكر ابن الخطيب أن ولده السلطان أبا سعيد بن محمد بن نصر حينما كان ولياً للعهد خرج للصيد يوماً فقابله خنزير جبلى Jabali فطرح نفسه عليه فكبا به فرسه واستقبله ذلك الخنزير الوحشى فاستل الأمير سيفه وعاجله بضربة

---

(١) المغاور أى المحارب الذى يغير على الحدود المجاورة وقد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بلفظها ومعناها وصارت اسماً لفرق المشاة الجبلية التى كانت تتبع مملكة أرجوان باسم Almogavares أى المغاورون .
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٠١ .
(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٣٢ .
(٤) أبو الحسن النباهى : نزهة البصائر والأبصار ص ١١٨ نشر مولد فى :
Muller : Beitrage zur Gesehichte der Westlichen Araber IP. 118) .

تحت عينيه أبانت فكيه وأطارت أنيابه محل سلاحه . وتلاحق به فرسانه وقد يئسوا من خلاصه فرأوا ما بهتوا له وبشروا بذلك والده السلطان محمد الفقيه فسرّ سروراً عظيماً (١) .

وظلت صفة الشجاعة من الصفات المتوارثة فى أسرة بنى نصر إلى آخر عهدهم ، وحسبنا أن نشير إلى السلطان أبى الوليد اسماعيل (٧١٣- ٧٢٥هـ) الذى اشتهر بقوة بأسه وشدته على أهل البدع ، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة فى ظروف الحرب والجهاد .

يروى فى هذا الصدد أن العلماء تذاكروا يوماً بين يديه حول أصول الدين فقال : أصول الدين عندى ، قل هو الله أحد ، (السورة) ، وهذا ، وأشار إلى سيفه ! (٢)

كذلك نذكر ولده وخليفته من بعده أبا عبد الله محمد الرابع ابن اسماعيل (٧٢٥ – ٧٣٣هـ) الذى كان معدوداً فى أبناء الملوك صرامة وشجاعة إلى درجة التهور أحياناً كما يقول ابن الخطيب ومن أمثلة ذلك أنه أقسم أن يغير على باب مدينة بيانة Baena فى عدة يسيرة من الفرسان عينتها اليمين ، فوقع البهت ، وتوقعت الفاقرة(٣) لقرب الصريخ ، ومنعة الحوزة وكثرة الحامية ووفور الفرسان ... وهجم عليها وانتهى إلى بابها ، وحمل على أضعافه من الحامية وألجأهم إلى المدينة . ورمى يومئذ أحد النصارى بمزراق محلّى السنان رفيع القيمة فأثبته ، وتحامل الطعين يريد الباب ، فمنع من الإجهاز عليه وانتزاع الرمح الذى كان يجره خلفه وقال : اتركوه يعالج به جرحه إن أخطأته المنية ، فكان كما قال الشاعر فى مثله ، أنشدناه أبو عبد الله بن الكاتب :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم   من الذهب الابريز صيغت نصولها

---

(١) راجع مقالنا (الأعياد فى مملكة غرناطة ، مجلة العهد المصرى بمدريد ، المجلد الخامس عشر سنة ١٩٧٠ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٨٤ ، النباهى : نزهة البصائر والأبصار ص ١٣١ .

(٣) الفاقرة : الداهلية الشديدة وكأنها تكسر فقِر الظهر ، والجمع فواقر.

يداوى بها المجروحُ منها جراحَه   ويتخذ الأكفان منها قتيلها (١)

واستمرت صفات الجرأة والإقدام والشجاعة يتصف بها ملوك غرناطة من بنى نصر إلى آخر عهدهم .

ويلاحظ أن الوضع الجغرافى لهذه المملكة الغرناطية الصغيرة بين دول مسيحية واسلامية كبيرة تفوقها عدّة وعدداً مثل قشتالة وأراجون فى شمالها ، والبرتغال فى غربها ، ودولة بنى عبد الحق أو بنى مرين فى جنوبها بالمغرب، قد جعلها فى حالة توجس واستعداد وتأهب لأى خطر يتهددها من جيرانها المحيطين بها .

وكثيراً ما لجأت غرناطة إلى المغرب الشقيق للجهاد معها ضد الأسبان ، إلا أنها فى نفس الوقت كانت تتوجس خيفة من أطماع ملوك بنى مرين فى بلادها ، وتخشى أن يفعلوا معها مثلما فعل المرابطون والموحدون من قبل(٢) . يضاف إلى ذلك أن مملكة غرناطة كانت دولة أوروبية ولها مصالح مادية مشتركة تربطها بجيرانها المسيحيين فى قشتالة وأراجون . ولهذا نجد أن غرناطة لم تلتزم فى سياستها الخارجية جانباً واحداً من هذه القوى المحيطة بها، بل كانت سياستها تتبدل وتتغير فى حرص وحذر حسب الظروف التى تحيط بها . فتارة تتقرب من المغرب ضد قشتالة وأراجون ، وتارة أخرى تتقرب من قشتالة ضد المغرب ، وتارة ثالثة تتقرب من ملوك أراجون ضد ملوك قشتالة أو العكس . هذه السياسة الماكرة الماهرة التى سلكتها غرناطة مع جيرانها ، قد مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على القرنين ونصف من الزمان ، لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولهذا أشاد المؤرخون الأوروبيون بالدبلوماسية الغرناطية ووصفوها وصفاً يدل على المرونة والمهارة وهى ، سياسة اللعب بالثلاث ورقات Juego de tres Barajas (٣).

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٢ ، النباهى : نزهة البصائر ص ١٣٢ .

(٢) السلاوى الناصرى : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣) راجع كتابنا (دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٣ - ٢٤٤) .

ثانيًا : عناصر الجيش الغرناطى :

لما كانت مملكة غرناطة هى خلاصة ما تبقى من الأندلس من حيث كونها دولة عربية اسلامية أسبانية أوروبية ، فإنها بالتالى استمرت تؤدى دورها كهمزة وصل ، ومركز تأثير ، وتواصل ، وترابط ، بين الشرق والغرب فى المجالات المختلفة . ففى المجال الحربى كان الجيش الغرناطى يتألف من فرق مختلفة أهمها :

١-القوات الغرناطية من فرسان ومشاة بقيادة أمير من أمراء الدولة أو قائد من قوادها الأفذاذ .

٢- المماليك وهم جنود من أصل مسيحى ويسميهم ابن الخطيب « مماليك » بينما يسميهم ابن خلدون « معلوجين » وكانوا يعملون كحرس خاص لملوك غرناطة .

٣- جنود الغزاة المغاربة ، وهم فرسان من قبائل زناتة وغيرها شاركوا فى الدفاع عن غرناطة . وكان يرأسهم أمير من أسرة بنى مرين أو بنى عبد الحق ملوك المغرب .

وفى ذلك قالوا : « وتلك الرياسة يجب أن تكون لأعياص[1] الملك من بنى عبد الحق لأنهم يعسوب زناتة[2] . وكانت لهذه الفرق المغربية قواعد عسكرية فى العاصمة غرناطة وفى العاصمة الثانية مالقة ،وفى مناطق استراتيچية أخرى مثل وادى آش Guadix وذكوان Coin ، وقمارش Comarex وحصن قشتالة Castril ورنده Ronda وغيرها .

ولقد استمرت مشيخة الغزاة ، أى قيادة هذه الفرق المغربية ، فى يد أمراء بنى مرين ، يتوارثونها فى عائلات معينة منها عائلة بن أبى العلا وعائلة بنى

---

(١) العيص : منبت خيار الشجر ، والأصل ، يقال هو من عيص كريم أى من أصل كريم ، والجمع أعياص وعيصان .

(٢) اليعسوب هو الرئيس الكبير يقال هو يعسوب قومه ، وتطلق أيضًا على ذكر النحل وأميرها والجمع يعاسيب . راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٨) .

يفلوسن وغيرهم إلى أن اشتد نفوذهم وخشى ملوك غرناطة على استقلال بلادهم من كثرة تدخلاتهم وخطورة اتصالاتهم بملوك أسبانيا . واضطر ملك غرناطة محمد الخامس الغنى بالله آخر الأمر إلى إلغاء منصب شيخ الغزاة من جيوشه ، وأن يتولى هو نفسه القيادة العليا لجيوش الغزاة المغاربة فى بلاده سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م (١) .

٤- الأغزاز الأتراك : استمر ملوك غرناطة على عادة استخدام رماة الغز الأتراك فى جيوشهم كما فعل الموحدون من قبل وفى ذلك يقول ابن الخطيب فى مدحهم :

ودارت من الأغزاز تحت لوائها — رمـــــاةٌ علـى أوتـارها للعـدا وتـرُ

إذا اضطبنوا أقواسهم وتمنطقوا — فتبصر جيش الترك جاشت به مضرُ(٢)

وإلى جانب هذه القوات المقاتلة للجيش الرئيسى ، كانت هناك عناصر أخرى مكملة ومساعدة له مثل :

أ) الشعراء والخطباءوالفقهاء والوعاظ ، لإثارة حماس الجند ورفع روحهم المعنوية بمواعظهم وقصائدهم . هذا إلى جانب المنشدين والمنشدات الذين كانوا يصحبون الجنود الزناتيين وينشدون لهم أثناء القتال نوعًا من الأغانى الحماسية التى أطلقوا عليها اسم « تاصوكايت » ، ومعناها الفرح باللغة البربرية(٣) . ويبدو أن استخدام الآلات الموسيقية والغناء أثناء المعركة كان متبعاً أيضاً فى الجيش الغرناطى بدليل الرسوم الجدارية التى فى قصر الحمراء والتى تصور جنوداً يرتدون الخوذات وبأيديهم آلات موسيقية (٤) .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٧٩ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٤٩-٥٢، وكذلك راجع كتابنا :

(El Reino de Granada en la época de Muhammad V P. 126).

(٢) أحمد محمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر ص ٢٤١ واضطبنوا أى احتضنوا .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٨ .

(٤) جمال محرز: الرسوم الجدارية الاسلامية فى البرطل بالحمراء ص ٣١(مدريد ١٩٥١) .

هذا ، فى الوقت الذى كان فيه الجنود الأسبان يستخدمون أيضًا آلات موسيقية مثل القيثارة Gitarra والغيطات Gaitas ويترنمون بالأناشيد الحربية خلال المعركة (١) .

ب) **الجواسيس** ، وكانوا عادة من المسيحيين أو اليهود ، ويقومون بأعمال ومهن مشروعة يختفون وراءها مثل التجارة أو السياحة ولا يعرف أحدهم الآخر . وبهذه الطريقة كانت القيادة العليا تتلقى تقارير كل واحد منهم على حدة وتستخلص منها ما يهمها من معلومات . يروى ابن الخطيب أن الطبيب الغرناطى عبد الله بن الزبير لقى بفحص غرناطة سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٥م نصرانيًا يتجسس فأسره وحده ، وأدخله البلد ولم يلتفت إلى ثمنه استكتامًا لتلك الفعلة (٢) .

جـ) **الأدلاء** Adalides ، وكانوا مسلمين ومن أهل الثقة التامة عند القادة ، وعلى درجة عالية من الخبرة والدراية بالطرق والمسالك .

د) **المطوعة** ، وهم الذين كرسوا حياتهم طوعًا للجهاد والرباط فى سبيل الله ، وانتشروا فى الثغور الاسلامية بصفة دائمة . ولا شك أن احتكاكهم المستمر بالأسبان فى مناطق الحدود المشتركة أيام الحرب والسلم قد جعل لهم تأثيرًا فى الشعر الأسبانى المعروف بشعر الحدود Romances Fronterizos والذى نلمس فيه تأثيرًا عربيًا غرناطيًا واضحًا (٣) .

و) وإلى جانب العناصر السابقة ، ينبغى ألا ننسى أهمية وجود الأطباء والعرفاء (المهندسين) والبنائين والنجارين والحدادين وغيرهم من أهل الحرف والصناعات اللازم تواجدهم فى الجيش .

ثالثًا : أسلحة الجيش الغرناطى : اهتمت مملكة غرناطة بتنويع

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٠ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة لوحة ٢٨٦ (نسخة الاكوريال) .

(٣) انظر :

(Menéndez Pidal : Flor nueva de Romances Viejos P. 224) .

مصادر أسلحتها وتطوير أساليب قتالها ودفاعها على أحدث الطرق المعروفة فى ذلك العصر . فمن كلام المؤرخين المعاصرين أمثال ابن سعيد المغربى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ، وابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤ م) ، وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) وغيرهم نفهم أن الغرناطيين لم يترددوا فى استيراد الأسلحة الجيدة من أوروبا مثل سيوف البردليات (نسبة إلى مدينة برديل أو بوردو بفرنسا) ، كما استوردوا الخيول والإبل المدربة من المغرب ، إلى جانب ما تنتجه بلدهم غرناطة من سلاح وعتاد . كذلك اتبعوا فى أساليب قتالهم طريقة جيرانهم الأسبان والأوروبيين فى استعمال الدروع الحديدية المسبلة والمغافر الملثمة ، والرماح الطويلة عراض الأسنة ، والركاب المنخفض A la Brida ، والخيول المدرعة بالتجافيف الحديدية . ثم اتبعوا بعد ذلك طريقة جيرانهم الزناتيين المغاربة فى فنهم الحربى الزناتى المعروف الذى يقوم على استخدام الدروع والدرق الجلدية اللمطية ، وركوب الخيول ذات الركاب المرتفع (مثل الجوكى) مما يعينهم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر مع اللّى وهو أسلوب حربى يختلف عن الأسلوب الأوروبى السالف الذكر . وقد مدحه ابن الخطيب فى وصف أحد أمراء غرناطة بقوله : وكان زناتى الشكل والركض والآلة (١) . وقد اضطر الأسبان أيضًا إلى اقتباس هذا الفن الحربى الزناتى وتطبيقه على بعض فرقهم العسكرية باسم A la Jineta ، ويقوم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر Tourna Fuya وأطلقوا عليهم اسم Zenetes أى الزناتيون ثم لم يلبث هذا اللفظ أن تطور بعد ذلك فى اللغة الأسبانية إلى Jinete بمعنى فارس .

ولعل الرسوم الجدارية التى عثر عليها فى البرطل(٢) بقصر الحمراء ، وتؤرخ فى القرن الثامن الهجرى (١٤ م) توضح لنا ما ورد فى النصوص التاريخية من وصف للجنود وأسلحتهم وملابسهم ، إذ نجد فيها حملة قسى القدم (الافرنجية) وحملة السيوف والدرق الجلدية . وحملة الرماح

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة لوحة ٣٦٥ (نسخة الاسكوريال) .

(٢) البرطل Portico أى البوابة أو المدخل ويقع شرقى بهو السباع .

والأمداس(١) ، ويضعون على رؤوسهم العمائم ذات الذؤابات ، أو الخوذات ذات المغافر لوقاية الرقبة ، والزرد لحماية الجذع . كذلك كانوا يرتدون الجباب ذات الأكمام القصيرة ، ويتمنطقون عليها واضعين أطراف الجبة تحت المنطقة من أمام وقد يرتدون قمصاناً ، ولهم سراويل طويلة تصل إلى الكاحل . ويضع بعضهم الحرامل على كتفه كما يلبس الجميع فى أرجلهم الأحذية أو الخفاف . ويلاحظ أن الغرناطيين استخدموا السيوف المستقيمة النصال ذات الحدين والتى امتازت واقياتها بتنيتها إلى الأسفل (٢). وكانت راية الدولة وأعلامها حمراء اللون متنوعة الأشكال والزخارف ، ومنها المربع والمثلث والمستطيل ، مرسوم عليها دوائر أو مسدسات متقاطعة وتنتهى أطرافها بزوائد مستقيمة(٣) .

وإلى جانب هذه الأسلحة التقليدية ، توصل الغرناطيون عن طريق اخوانهم المغاربة فى أواخر القرن السابع الهجرى (١٣م) إلى اختراع نوع من الأسلحة النارية مثل المدافع تحدث دوياً وفرقعة كالرعد وتدك الحصون وتهدمها كالصواعق السماوية ، فهو سلاح جديد يختلف عن سلاح النار الاغريقية المعروف من قبل والذى اقتصر عمله على الحرق فقط بينما كان هذا السلاح مادة متفجرة عبارة عن خليط من النفط وملح البارود أو النشادر والكبريت وحصى الحديد فى درجة حرارة عالية فى شكل كرة محماة تلقى على الهدف فتدمره وتزيله من الوجود وسط هدير مروّع . وفى هذا الصدد يروى ابن خلدون أن سلطان المغرب يعقوب المرينى عندما هاجم مدينة سجلماسة (تافيلالت الحالية فى الجنوب) سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٢ م نصب عليها هندام (آلة) النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة

---

(١) الأمداس عصى طويلة مثناة بعصى صغار ذات عرى فى أوساطها تدفع بالأنامل عند قذفها . راجع دوزى : تكملة المعاجم العربية جـ ١ ص ٤٤٠ .

(٢) اشتهرت غرناطة بصناعة الأسلحة وينسب إليها السيف المشهور باسم سيف أبو عبد الله Boabdil آخر ملوك غرناطة وقد وقع غنيمة فى معركة اللسانة Lucena سنة ١٤٨٣ ويوجد بمتحف الجيش الأسبانى بمدريد .

(٣) جمال محرز : الرسوم الجدارية فى البرطل ص ١١-١٣ ، ٢٧ - ٣٦ ، عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ص ٨٣ شكل رقم ٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها » (١) . كذلك استخدم سلطان غرناطة اسماعيل بن الأحمر هذا السلاح الجديد فى حصار مدينة أشكر Huescar فى جنوب الأندلس . وفى ذلك يقول الوزير الغرناطى ابن الخطيب(٢) : « وفى سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤ م نازل السلطان بلدة أشكر ونشر عليها الحرب ، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط ، كرة محماة طاقة البرج المنيع ، فعاثت عياث الصواعق السماوية ، ونزل أهلها قسراً على حكمه ، وفى ذلك يقول شيخنا ابن هذيل :

وظنوا بأنَّ الرعدَ والصَّعق فى السما   فحاق بهم من دُونها (٣)الصعق والرعد

غرائب أشكالٍ سما هرمس(٤)بها   مهندمةٌ (٥) تأتى الجبال فتنهد(٦)

إلا إنها الدنيا تريك عجائباً (٧)   وما فى القوى منها فلا بد أن يبدو(٨)

ومن الطريف أن المصادر الأسبانية المعاصرة فى وصفها لأحداث هذه الحرب ، أشارت إلى هذا السلاح الجديد ، ففى حوليات ثوريتا Zurita الأسبانية نجد العبارة التى تقول ما معناه : « وانتشرت الاشاعات فى مدينة لقنت

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ١٨٨ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٧٢ .

(٣) من دونها أى من تحتها ويقصد صوت الانفجار على الأرض الى يشبه صوت الرعد والصواعق فى السماء .

(٤) هرمس Hermes إله الفصاحة والتجارة والسرقة عند اليونان ويسميه الرومان الإله مركور Mercure أى الزئبق وهو معدن سائل لا يعرف كيف يمسك ويرى ابن خلدون (المقدمة ص ٤١٢) أن هرميس أول من ابتكر صناعة الحياكة أو الخياطة وإنه هو نفسه النبى ادريس أقدم الأنبياء . وسواء كان هرميس مثل الزئبق أو مثل الخياط الماهر فالتشبيه هنا يرمز لغرابة الاختراع .

(٥) مهندمة أى متقنة .

(٦) إشارة إلى الهدم وليس الحرق كما هو الحال فى النار الاغريقية .

(٧) يتفق ابن الخطيب هنا مع ابن خلدون فى قوله « بطبيعة غريبة » على أنه سلاح جديد .

(٨) القوى هنا بمعنى الطاقة .

Alicante أن ملك غـرناطة يمتلك سلاحًـا جـديداً مـبـيـداً (١). وواضح مـن النصوص السابقة ومن تواريخ أحداثها ، أن مسلمى المغرب والأندلس توصلوا إلى استخدام الأسلحة النارية قبل ظهورها فى أوروبا لأول مرة فى موقعة كريسى Creasy سنة ١٣٤٢م فى حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا والتى انتصرت فيها انجلترا بسبب توصلها إلى هذا الاختراع ، بعد سبعين سنة من بدء ظهوره على أيدى المسلمين فى حصار سجلماسة سنة ١٢٧٢م .

وتجدر الملاحظة إلى أن المسلمين استعملوا كلمة « النفط » بمعنى النار الاغريقية الحارقة ، كما استعملوها أيضًا بمعنى المدفع المدمر الهادم الذى يحدث فرقعة مثل الصواعق السماوية ولايزال يوجد فى المغرب وفى مدينة العرائش ، مدافع أثرية يرجع تاريخها إلى بداية العصر الحديث فى عهد السعديين (القرن العاشر الهجرى ، ١٦م) قد نقش عليها ما يفيد ذلك « وأمر بصنع هذا النفط السعيد السلطان كذا ... » (٢).

رابعًا : فنون الحرب والقتال فى مملكة غرناطة :

كان من الطبيعى لهذه الدولة العربية الاسلامية الأوروبية الصغيرة ، المحاطة بالأعداء من كال جانب ، أن تقوم حياتها الاجتماعية أساساً على حياة الحرب والجهاد . وها هى ذى كتابات مؤرخيها المعاصرين تشهد على ذلك ، وتعكس لنا هذا الشعور الصادق والإحساس العميق بالغربة والانقطاع بين الأمم الظافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيدة ، على حد قول وزيرها ابن الخطيب(٣).

---

(١) انظر :

(G. Zurita : Anales de la Corona de Aragon, II P. 31 Nota I Y P. 99) .

(٢) راجع عرضنا لكتاب David Ayalon : Gun Powder and Fire Arms أى البارود والأسلحة النارية فى الدولة المملوكية لداڤيد إيالون فى مجلة Hésperis 1959, fasc. 3, 4 Trimestres P. 244) .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١٠ وكتابنا عن مملكة غرناطة فى عهد محمد الخامس (بالأسبانية) ص ٤ وما بعدها .

لهذا ، فرض عليها هذا الوضع أن تجنّد أبناءها منذ الصغر ليكونوا على أهبة الاستعداد فى كل لحظة . وفى ذلك يقول ابن الخطيب : « وكانت الصبيان تدرب على العمل بالسلاح وتعلم المثاقفة كما يعلم القرآن فى الألواح»(١) . وفى نفس هذا المعنى أشاد المؤرخون الأسبان بمهارة الأندلسيين فى استعمال القوس وترييش السهام وركوب الخيل والطعن والضرب وغير ذلك من فنون القتال التى تعلموها منذ صغرهم . وقد بلغ من اهتمامهم بأمور الحرب أن كانوا يقدمون من قدمته شجاعته وعظمت فى الحرب نكايته ، فشجع الجبان وأقدم الهيبان .

ولعل الاحتفالات الشعبية التى تقام فى أسبانيا حتى اليوم ، ويمثل فيها القتال بين المسلمين والمسيحيين أو ما يعرف باسم Moros y Cristianos تعطينا فكرة عن هذه الحياة الحربية التى سادت غرناطة بل أسبانيا فى العصر الوسيط (٢).

ولقد اتبع الغرناطيون مختلف الوسائل القتالية فى الدفاع عن وطنهم أو الهجوم على أعدائهم فى الجبال والسهول والبحار ومثال ذلك ما حدث فى عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م عندما حاصر ملك أراجون خايمى الثانى بجيوشه وأساطيله ثغر المرية Almeria براً وبحراً ، وأقبلوا جميعًا على القتال وقد أعدوا من الأبراج والسلاليم ما يضيق عن نطاق الاحتيال كما تنكر بعضهم فى زى جيوش المسلمين فوضعوا عليها البرانس ، ولكن أهل المرية تنبهوا لهذه الخدعة وطرحوا عليهم الزفت والقطران ورموا بالنيران ، غير أن هجوم العدو ظل مستمراً على الأسوار حتى ضاق الحال بالمسلمين وانسدت باب الحيل ، فصرخ بهم صارخ أن بادروهم بطرح العذرة (أى الغائط والبراز والبول) فهو أعظم نكاية لديهم . فبادر الناس فى الحين لتناول ذلك وحمله فوضعوا الشىء فى

---

(١) راجع كتابنا فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٠ وكذلك :

(Gaspar Remiro : Correspondencia P. 265) .

(٢) نفس المرجع والصفحة ، وكذلك (أحمد الطوخى : المرجع السابق ص ٢١٥) وكذلك:

(Pulgar : Reyes Católicos P. 250) .

محله ، وقارنوا الشكل بشكله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فكان الفارس منهم فى أجمل حال فى زيه ، وإذا هو مكسو ثوب العذره فيصير مسخرة بينهم، وكان ذلك أدهى عليهم من القتال وفرج الله من شدة الحال إلى أن ارتحلوا (١).

• ومن الوسائل القتالية التى اتبعها الغرناطيون فى حروبهم ضد قشتالة ، تلك الخطة الحربية العجيبة الماكرة التى أورد وصفها المؤرخ الاسكندارنى فى الأندلس المالقى الأصل(٢) محمد بن قاسم النويرى (ت سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م) فى كتابه « الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام المقتضية فى وقعة الإسكندرية(٣) (الجزء الخامس ص ٦٢-٦٣) حيث يقول :

« فأتت جواسيس الملك العابد صاحب غرناطة وأخبرته بأن الفنش صاحب مدينة اشبيلية ، وصل بجيشه إلى مكان كذا على أميال يسيرة ، وذلك بعد أن جهز الملك العابد جيوشه لملاقاته . فما كان أول الليل قال لقائد جيوشه :

---

(١) وصف هذه المعركة بالتفصيل ابن القاضى المكناسى فى كتابه درة الحجال فى غرة أسماء الرجال (جـ ١ ص ٧١ وما بعدها نشرعلوش الرباط ١٩٣٤) ولأهمية هذا النص ترجمة علوش Allouche إلى الفرنسى فى مجلة هسبريس العدد ١٦ سنة ١٩٣٩) كما ترجمه إلى الأسبانية سانشث البرنث فى كتابه La Espana Musulmana I.P. 380 . وقد رأينا من المفيد ايراد هذا النص كضميمة فى آخر كتابنا دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٩٠ وما بعدها .

ومن المصادر والمراجع الأوروبية التى تحدثت عن هذه المعرك نذكر منها :

(Geronimo Zurita : Los Anales de la Corona de Aragon I. P. 435 &
Gimenez Soler : El Sitio de Almeria (1309) P. 386 - 392) .

(٢) يلاحظ أن هذا الأصل الأندلسى للنويرى قد ورد ذكره فى كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى جـ ٤ ص ١٤٢ .

(٣) يقع كتاب الإلمام للنويرى فى سبعة أجزاء تحقيق عزيز سوريال عطية وإتيين كومب ، المطبعة العثمانية بحيدر أباد ، الدكن بالهند ١٩٦٨ – ١٩٧٦ . وتجدر الإشارة إلى أن هذا المؤرخ محمد النويرى هو غير شهاب الدين أحمد النويرى (ت سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) صاحب كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ١٨ جزء (القاهرة ١٩٢٣ – ١٩٣١) .

، تأمر كل من فى العسكر أن يُحمّلوا كل ما معهم من إبل حطباً . فنودى فى العسكر بذلك ، فلم يبق جمل إلا وحمل حطباً ، فكانت ألوف جمال موسوقة به، ثم أمر بالرحيل ، فرحل العسكر تتقدمه تلك الجمال . فلما صار بين عسكر المسلمين وبين العدو نحو ميل ، مثّل أمر السلطان بأن تطلق فى الأحطاب التى على الجمال النيران ، فقدح بالزند الشرار ، وأطلق فى الحطب ، ونغزت الجمال بأسنة الرماح ، فسارت كالسيل المنحدر من الجبال ، فلم تسر نحو ساعة وهى تتقد إلا وخيل النصارى النازلين بمعسكرهم قطعت مقاودها ، وهجت فى أصحابها النصارى تركلهم بأرجلها وتكدمهم بأسنانها طالبة نجاة أنفسها، فما هجت خيلهم إلا وجمال النار داستهم دوساً تعثر فيهم ، فوقعت الجمال وسط عسكرهم بأحمالها عليهم من شدة النار التى أكلت ظهورهم ، فأكلت تلك النار الجمال والكفار مع ما أكلت من أثاثهم وخيامهم ،واحترق سرادق الفنش بكل ما فيه ، وطلب كل من لم تصبه النار الفرار إلى القفار ، فمن قدر منهم على فرس غائر ركبه ونجا بنفسه ،ومن أدركه المسلمون قتلوه ، فعند ذلك جمع المسلمون الخيول الغائرة ، والخيول النافرة ، وصار حريق النصارى مكتوباً فى السير السائرة ، (١).

خامساً : التحصينات الدفاعية :

من أهم الإنجازات العسكرية التى شغلت بال الغرناطيين ملكاً وحكومة

---

(١) النويرى : كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية جـ ٥ ص ٦٢ – ٦٣ ، وكذلك (أحمد الطوخى : نفس المرجع ص ٢٤٢) .
هذا ويفهم من كلام النويرى أن ملك المغرب أبا يعقوب يوسف المرينى قد سبق أن اتبع هذه الطريقة أيضاً من قبل بدليل قوله ص ٦٢ : ان يفعل ملك غرناطة بعدوه كفعل الملك العابد أبى يوسف المرينى بعدوه ، . هذا ، وتذكرنا هذه الطريقة القتالية بما فعله السلطان الظاهر بيبرس فى محاربة التتار فى المشرق وذلك بحرق النباتات والحشائش فى الأراضى التى يسلكونها لأنها تصلح علوفة لخيولهم بدون تكلفة ،فإحراقها تمنعهم من سلوكها . وقد اتبع فى تحقيق ذلك طريقة تعليق النار موثقة فى أذناب الثعالب الوحشية ثم تطلق الكلاب فى إثرها وقد جوعت لتجد الثعالب فى العدو والكلاب فى الطلب فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات ،وتعلق الريح النار منه فيما جاوره .
راجع (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٤٠١) وكذلك كتابنا (فى التاريخ الأيوبى والمملوكى ص ١٩٤ – ١٩٥) .

وشعبًا ، وجعلتهم لا يدخرون جهداً أو مالاً فى سبيل تحقيقها ، هى مسألة تحصين المملكة وتقوية وسائلها الدفاعية البرية والبحرية . ولقد أشاد المؤرخون المعاصرون وعلى رأسهم الوزير الغرناطى لسان الدين الخطيب بالجهود والأموال التى بذلت فى سبيل تجديد القصبات أو القلاع مثل قصبة الحمراء ، وقصبة أرجونة وقصبة وادى آش Guadix ، وقصبة المرية ، وقصبة لوشه Loja (محل ميلاد ابن الخطيب) وغيرها (١) . هذا إلى جانب تقوية الأسوار وإقامة الأبراج ولا سيما أبراج المراقبة أو الطلائع Torres Atalayas حول المدن الهامة مثل العاصمة غرناطة أو العاصمة الثانية مالقة Malaga التى شبهت أبراجها ببروج السماء فى كثرتها وضيائها (٢)، ومثل جيان Jaen التى عن طريقها كانت تكثر غارات القشتاليين على أراضى غرناطة . وحتى جبل طارق الذى رغم كونه فى بعض الأوقات تابعًا لدولة بنى مرين فى المغرب ، إلا أن الغرناطيين لم يترددوا لحظة فى تحصينه وإمداده بالذخائر والأموال والمشاركة فى الدفاع عنه (٣) .

وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة هامة سادت ذلك العصر وهى مسألة المشاركة والتعاون بين الأمة والدولة أو بين الرعية والحكومة ، فى إقامة التحصينات الدفاعية فى الأماكن الهامة وقد أفتى فقهاء الدولة مثل أبى اسحاق الشاطبى (توفى بغرناطة سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) بضرورة تحمل الأهالى نفقات هذه الأعمال الدفاعية لأن المصلحة تقضى بذلك ، ومثال ذلك قولهم:

« وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت موظفًا على أهل الموضع ، وقد أجاز ذلك الفقيه أبو اسحاق الشاطبى معتمداً على قيام

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠٥ ، أحمد الطوخى : نفس المرجع ص ٢١٨ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٣٠ وكذلك كتابنا عن مملكة غرناطة فى عهد محمد الخامس الغنى بالله ص ١٣٢ (بالأسبانية) .

المصلحة التى إن لم يقم بها الناس فيعطون ضاعت عليهم ، (١).

ولقد حفظت لنا المصادر المعاصرة رسائل عديدة فى هذا الصدد موجهة من ملوك غرناطة إلى رعاياهم على اختلاف طبقاتهم يشرحون لهم فيها كيف أن أموال الدولة تنفق على الجنود والأسلحة والمطوعة المجاهدين ، ويطلبون منهم المساهمة فى بناء الأسوار والحصون والأبراج لحماية المواطنين والمسافرين ... إلخ (٢).

ولقد استجاب الغرناطيون لرغبة ملوكهم وفقهائهم ، وشاركوا فى تشييد الاستحكامات الدفاعية فى بلادهم . ويضرب ابن الخطيب مثلاً لهذه الاستجابة والمشاركة بأن عدد الأبراج فى مملكة غرناطة بلغ أربعة عشر ألفا(٣) . كذلك يروى العالم الشاعر أبو البركات بن الحاج البلْفيقى أن جدّه أبا اسحاق بنى معظم سور مدينته بلفيق Belfiq من ماله الخاص(٤).

هذا ، وتجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أن الرباطات والحصون الساحلية القديمة التى تحدثنا عن نشاطها من قبل فى هذه المناطق الجنوبية الشرقية للأندلس ، ظلت تؤدى دورها فى الدفاع عنها . ومثال ذلك سلسلة الرباطات التى كانت تحيط بمدينة المرية قاعدة الأسطول الغرناطى مثل بجانة Pechina (٥)ورابطة القبطة Cabo d Gata ورباط عمروس ورباط الخشنى

---

(١) ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال جـ ١ ص ٩٧ رقم ٢٣٦ ؛ أحمد بابا التمبكتى : نيل الابتهاج - بتطريز الديباج ص ٤٩ - ٥٠ (كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون . وكذلك :

(Lopez Ortiz : Fatwas granandinas de los siglos XIV, XV, Al Andalus Vol. VI fasc. I, 1941) .

(٢) المقرى: نفح الطيب جـ ٩ ص ١٠٩ - ١١٠ ، جـ ١٠ ص ٢٣٦ - ٢٣٩ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٣٠ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٩٨ .

(٥) بلدة رومانية قديمة ثم صارت نواة لميناء المرية أومرية بجانة أى ميناء بجانة . ولا شك أن أهل الأندلس كانوا ينطقونها بجيبيه بالإماله التى كانت لهجة الأندلسيين .

وبرج اليحانس Ohanes (١) . وما يقال عن المرية يقال عن مالقة التى كان يشرف على مرساها جبل فارُه - بتشديد الراء وضمها) Gibralfaro . وقد اهتم المسلمون بهذا الموقع الهام وبنوا عليه حصوناً حتى آخر عهدهم بالأندلس .

وهناك بعض الظهائر (القرارات) الرسمية التى كان يصدرها سلطان غرناطة محمد الخامس الغنى بالله إلى رعيته فى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤م) يحضهم فيها على بناء الحصن بجبل فاره إعانة للمسافرين وانجاداً لجهاد الكافرين (٢) . ولا يزال يعرف هذا المكان إلى اليوم باسم جبل فارو Gibralfaro . كذلك يحدثنا الرحالة الطنجى المعاصر ابن بطوطة عن الحصون والأبراج والروابط التى شاهدها أثناء رحلته فى مملكة غرناطة سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م فوصف خط سيره من جبل طارق إلى مدينة رنده Ronda إلى بلدة مربله Marbella ثم إلى بلدة سهيل Fuengirola حيث وقعت غارة بحرية معادية كاد أن يقتل فيها لولا أنه لجأ إلى برج المدينة ثم واصل سيره إلى مالقة ثم إلى العاصمة غرناطة التى وصفها ووصف الروابط والزوايا التى كانت منتشرة فى الجبال المحيطة بها مثل رابطة العقاب ، وزاوية بنى المحروق. وقد لاحظ وجود جالية إيرانية كبيرة (من العجم) فى غرناطة وهى ظاهرة اجتماعية مهمة (٣) .

---

(١) أشار الإدريسى (نزهة المشتاق ص ١٩٨) إلى برج اليحانسى بولاية المرية وقال إنه كان يستخدم لإيقاد النار عند ظهور العدو فى البحر ويقع حالياً فى Punta Elena ولعله اليحانس الحالية Ohanes التى ينسب إليها الشيخ أبو مروان عبد الملك اليحانسى صاحب الكرامات المشهورة التى وردت فى كتاب ، تحفة المغترب ببلاد المغرب فى كرامات اليحانسى (توفى سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م) نشره المستشرق الأسبانى فرناندو دى لاجرانخا فى منشورات المعهد المصرى بمدريد للدراسات الاسلامية سنة ١٩٧٤ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ٢٥ (الاسكوريال) وكذلك :

(Jaime Olivier Asin : Origen Arabe de Rebato P. 27).

(٣) راجع ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد الطنجى اللواتى) تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، الرحلة الثانية إلى الأندلس ، وكذلك : =

يقول الشاعر الصوفى الزاهد الغرناطى أبو عبد الله محمد بن أبى زمنين (ت ٣٩٨هـ) ، ورأيت أهل العلم يستحبون التكبير فى العساكر والثغور والمرابطات ، دبر صلاة العشاء وصلاة الصبح تكبيراً عالياً ثلاث تكبيرات ، ولم يزل ذلك من شأن الناس قديماً ، (١) .

مما تقدم نرى أن مملكة غرناطة ، رغم صغر حجمها ، استطاعت بفضل تعاون شعبها ، أن تبدو قلعة حصينة منيعة فى وجوه أعدائها المحيطين بها ويؤيد ذلك المدونات الأسبانية التى وصفت غرناطة عقب سقوطها فى يد الملكين الكاثوليكيين Los Reyes Catolicos فرناندو وايزابيل سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وأشارت إلى وجود عدد كبير من الحصون والروابط والقصور الساحلية والداخلية والتى يرجع معظمها إلى العصر الاسلامى (٢) .

والجدير بالذكر أن كلمة غرناطة Granada معناها بالأسبانية الرمانة . ومن الطريف فى هذا الصدد أنه ينسب إلى فرناندو ملك أراجون حينما هاجم غرناطة مع زوجته ايزابيل ملكة قشتالة صاح قائلاً ، غرناطة ! غرناطة ! سوف أنتزع حباتك واحدة واحدة ! وهو يعنى سوف أنتزع حصونك واحداً بعد الآخر :

"Granada! Granada , le arrancaré los granos uno a uno !!"

ولا شك أن هذه الصيحة تعبر عن كثرة القلاع والحصون التى امتلأت بها مملكة غرناطة(٣) ، ولا سيما الأسوار الأمامية للمدن التى تعرف

= (Lévi Provnçal : Le voyage d'Ibn Battuta dans le Royaume de Granada (1350) , Melange offert a William Marçais (Pais 1950) .

(١) ابن أبى زمنين : كتاب قدوة الغازى ورقة ٢٩ (مخطوط رقم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمدريد) .

(٢) Alonso Gamir Sandoval : Organizacion de la defensa de la costa del reino de Granada desde Su reconquista hasta finales del siglo XV IP. 265-275) .

(٣) Miguel Lafuente Alcantara : Historia de Granada III P. 357 (Granada 1845).

بالبريخانة Barbacana وهى كلمة فارسية تعنى السور الأمامى الذى يسبق الستارة الأساسية أو السور الأساسى للمدينة الذى تقام عليه الأبراج المستديرة أو المربعة لتعزيز الاستحكامات الدفاعية عنها (١).

سادسًا : عرض الجيش وتدريبه :

حرصت مملكة غرناطة على تدريب جنودها وتمصير خيولها وعرض أسلحتها كوسيلة من وسائل التعبئة والاستعداد فى كل لحظة . ويؤثر عن الرحالة والمؤرخ المصرى شهاب الدين ابن فضل الله العمرى الذى زار غرناطة فى أواسط القرن الثامن الهجرى (١٤م) أنه لاحظ أن حى البيازين وحده كان يضم خمسة عشر ألف مقاتل على أهبة الاستعداد للجهاد فى أى لحظة (٢).

وقد جرت العادة أن تقام التدريبات والعروض العسكرية وألعاب الفروسية، فى ساحات أو حلبات متعددة فى مدينة غرناطة مثل ساحة باب الرملة ، وساحة باب الطوابين ومكانه اليوم طريق العذراء Carretera de la Virgen ، وكذلك فى قلعة الحمراء نفسها أمام برج الغدر Algodor (جمع غدير) ويسمى اليوم Torre de los siete Suelos ، أى البرج ذو الطباق السبعة (٣). يروى ابن الخطيب أنه كانت تقام فى هذه الساحات دائرة خشبية فى الهواء تسمى الطبلة وتقوم الفرسان بقذفها برماحهم أثناء ركضهم . كذلك كانت تقام مباريات فردية وجماعية تمثل معركة حقيقية قد يصاب فيها البعض بجراحات(٤).

---

(١) أنظر : (L. T. Balbás : Barbacanas , Al Andalus , Vol. XXI, 1951) ؛ السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ص ١٤٢ .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب (مجلة البدر بتونس) ص ٤١ .

(٣) راجع :

(F. Somonet : Descripcion del Reino de Granada P. 188 & Seco de Lucena : La Alhambra P. 34) .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة لوحة ٤٤١ (نسخة الاسكوريال) .

هذا إلى جانب الاحتفال بعرض قوات الجيش الذى يحضره السلطان وعدد من كبار الضيوف الأجانب من البلاد المجاورة الاسلامية والمسيحية . وكان يوجد بجوار قصر الحمراء قصر خاص لإقامة هؤلاء الضيوف يعرف بدار الضيافة (١).

ويحدثنا ابن الخطيب عن مدى الدقة والصرامة التى كانت تتخذ فى تطبيق هذه العروض والتدريبات إلى درجة إيقاع المثلة (٢) أو العقوبة بقص شعر اللحية لمن يخلّ بها من الجنود ، مثال ذلك القائد الغرناطى أبو تمام غالب بن أبى بكر الحضرمى المعروف بابن الأشقر (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) الذى كان مشهور الفروسية ، صليب العود ، مرهوب السطوة ، تولى قيادة العسكر زمانًا طويلاً ، فوقع عليه الإجماع على أهليته فى تفقد المسالح ، واختبار المراصد ، واختيار الحرس ، وتنظيم المصاف ... لقى الجند منه ضغطاً لاضطلاعه باستخدامهم ، وجعل العقاب من وراء تقصيرهم ، فقد كان بعض نقبائه يحمل مقصًا لإيقاع المثلة بذقون مضيعى المسلحة أو متهيبى الملحمة،(٣).

ويضيف ابن الخطيب ظاهرة أخرى تدل على الولاء الذى كان يربط الجنود بقائدهم وذلك عند حديثه عن وفاة أحد قواد الدولة النصرية ، فحمل سريره جملة من فرسانه (٤).

كذلك أشاد المؤرخ الأسبانى المعاصر لويث دى أيالا بالموقف الإنسانى النبيل لملك غرناطة أبى الحجاج يوسف الأول عندما مات ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر بوباء الطاعون وهو يحاصر جبل طارق بجيوشه

---

(١) نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ، لمؤلف مجهول ص ٣ نشر الفريد بستانى . وكذلك راجع مقالنا (الأعياد فى مملكة غرناطة ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الحادى عشر سنة ١٩٧٠) .

(٢) المثلة بفتح الميم وضم الثاء ، العقوبة والتنكيل وتطلق أيضًا على ما أصاب القرون الماضية من العذاب على سبيل العبر ، والجمع مثلات .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ٣٥٣ (نسخة الاسكوريال) .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ورقة ٢٠٢ (نسخة الاسكوريال) .

وأساطيله سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م . فحينما علم ملك غرناطة بذلك أمر جنوده بعدم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجثمان مليكها إلى اشبيلية . وقدر ملك قشتالة الجديد بدرو الأول (الملقب بالقاسى El Cruel) لسلطان غرناطة وجيشه هذا الصنيع فعقد معه معاهدة ودّ وصداقة(١) .

وكما أن ملوك غرناطة اتخذوا حرسًا خاصًا من المماليك أو المعلوجين ذوى الأصل المسيحى ، كما سبق أن ذكرنا ، فإن ملوك أسبانيا اتخذوا أيضًا جنوداً من فرسان غرناطة المسلمين . مثال ذلك الفارس عتيق بن زكريا بن مول التجيبى الذى لحق بملك قشتالة الفونسو العاشر الملقب بالعالم وركب فى جملته . ويضيف ابن الخطيب أن هذا الفارس الغرناطى علقت به أميرة من بنات زعماء الروم لفضل جماله وفروسيته ، ففرت تحت حماية سيفه ولحق ببلاد المسلمين ، وكانت من أهل الأصالة والجمال ، واتصل بمحلة أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى ، وقد جاز إلى الأندلس غازياً ، فاستخلصت منه لمزية الحسن واستقرت بقصر السلطان حظيته لطيفة المحل ، وانتفع هو وبنوه بعائد جاهها .

وقد هلك السلطان وقامت لمن خلفه مقام الأمومة فنالوا بها دنيا عريضة وتوفى هذا الفارس عتيق التجيبى بمدينة فاس سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠ م(٢) .

وجملة القول ، لقد تميز عصر مملكة غرناطة ، مثل العصور السابقة له ، بطابع الجهاد والكفاح ضد القوى المعادية . ومن ثمّ كان من الطبيعى أن تنعكس تلك الصورة فى نفوس سكانها ولا سيما العلماء والشعراء والكتاب الذين انطلقت ألسنتهم وأقلامهم تحض على الجهاد ، وتشيد بالانتصارات وتمدح الأبطال المدافعين عن حوزتها ، وتعبر عن أمانيها وآمالها بمستقبل أفضل، نجد

---

(١) انظر :
Lopez de Ayala : Crónica de los Reyes de Castilla Vol. I.P. 12 & Argote de Molina : Nobleza de Andalucia, fol. 228)

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة (نسخة الاسكوريال) لوحة ٢٩٢-٢٩٣ .

ذلك واضحاً فى نصائح وتوجيهات ملوك غرناطة إلى رعاياهم [1]، وفى رسائل وأشعار وزرائهم أمثال ابن الخطيب وابن زمرك[2] . وكذلك فى كتابات علمائهم ومؤرخيهم أمثال ابن سعيد المغربى أو الغرناطى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) فى كتابه رايات المبرزين وغايات المميزين[3] ، ومثل على بن عبد الرحمن بن هذيل فى كتابية : حلية الفرسان وشعار الشجعان[4] ، وتحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس[5] . ومثل أبى القاسم محمد بن سماك العاملى المالقى الغرناطى الذى ينسب إليه تأليف كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (٧٨٣هـ/ ١٣٨٢ م) ويتحدث فيه عن مفاخر سلطانه ملك غرناطة محمد الخامس الغنى بالله وعن أمجاد وانتصارات أسلافه والخطط العسكرية التى اتبعوها محرضاً مواطنيه الغرناطيين على الجهاد[6] .

كذلك كان الغرناطيون من أوائل الذين اهتموا بالكتابة عن الأسلحة النارية كسلاح جديد ، فكتبوا عن المدفع كتابات فنية مفصلة ومزودة بالرسومات والصور لجميع أجزائه ، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالآلات والمدافع ، . ألفه باللغة الأسبانية فى القرن الخامس عشر الميلادى قائد غرناطى اسمه الرئيس ابراهيم بن أحمد بن غانم بن زكريا الأندلسى ، وترجمه إلى اللغة العربية ترجمان سلاطين المغرب أحمد بن قاسم بن الشيخ الحجرى الأندلسى [7].

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١٠ ص ٢٣٦ – ٢٣٩ ؛ ص٢٤٦–٢٤٧ ؛ وكذلك :
Gaspar Remiro ; Correspondencio diplomática entre Granada 1 Fez P. 378) .

(٢) المقرى : أزهار الرياض جـ ٢ ص ٨٨ ، ١٤٧ ، ١٥٧ .

(٣) نشر وترجمه للأسبانية جارثيا جومث بعنوان :

(El libro de las Banderas de los Campeones , Madrid 1942) .

(٤) حلية الفرسان وشعار الشجعان نشره محمد عبد الغنى حسن (القاهرة ١٩٥١) .

(٥) تحفة الأنفس نشره وترجمه إلى الفرنسية فى جزأين لويس مرسيه .

(٦)راجع مقالنا (دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، مجلة تطوان العدد الخامسة سنة ١٩٦٠ .

(٧) هذا الكتاب (أى الترجمة العربية) مخطوط بخزانة جامعة الرباط رقم ٨٧ .

سابعا : كلمة ختامية :

هكذا كانت حياة البذل والفداء فى مملكة غرناطة هى الفصل الختامى للأندلس الذى شبهه أستاذنا جاريثا جومث بالثمالة أو القطرة الأخيرة لليمونة ، فهى حلوة ومرة فى آن واحد !

واليوم ، وقد مرّ أكثر من خمسة قرون على سقوط مملكة غرناطة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م) ، فإنه لا يفوتنا إلا أن نشيد بالجهود المثمرة والتعاون البنّاء بين المؤسسات والجامعات الأسبانية والعربية فى سبيل إحياء هذا التراث الأسبانى الأندلسى المشترك فى جميع نواحيه وجوانبه العلمية والأدبية والفنية والحضارية بوجه عام ، مما أسفر عنه تلك النهضة الحديثة فى هذا المجال .

فإذا قالوا قديماً : إن الأندلس هى الفردوس المفقود! (El paraiso perdido) فنحن نقول حديثاً بناء على الواقع الملموس الذى نراه : « إن الأندلس هى الفردوس الموعود (El prometido) إن شاء الله » .

بعض الأسماء الأسبانية التى لها أصول عربية
ولها صلة بهذا الموضوع

Alá : الله .

Alcoran : القرآن الكريم .

Alcaide : من العربية القائد فى الجيوش العربية . وقد أطلقت فى أسبانيا أول الأمر على قواد الحاميات المرابطة فى القلاع الملكية وبقرار تعيين من الملك نفسه . ثم أطلقت حديثاً على القائد العسكرى المشرف على السجون .

Alcalde : القاضى وخصوصاً من له اختصاص فى الجنايات . كذلك أطلقت على العمدة وشيخ البلد .

Almirante : أمير البحر وقائد الأساطيل البحرية .

Alférez : من كلمة الفارس التى كانت تطلق على أى فارس فى الجيش الاسلامى بصفة عامة . أما فى المعنى الأسبانى فإنها كانت تعنى واحداً من أبرز الشخصيات العسكرية فى الجيش وهو المكلف بحمل الراية الملكية .

Almocadém : مقدم على المشاة .

Alamin : أمين السوق وممثل الطوائف العمالية .

Almotacen : المحتسب ، المشرف على الموازين والمقاييس والمكاييل .

Alcazaba : القصبة أو القلعة .

Alcalá : القلعة .

Alcazar : القصر أو الحصن .

Alarde : عرض عسكرى ، قائمة أسماء الجنود .

Aljibe : الجب ، الصهريج .

Aljaba : الجعبة (جعبة النشاب والنبال) .

Aljuba : الجبّة .

Alforja : الخُرج أو الحقيبة الخاصة بزاد المسافر .

Albarada : البردعة ، السرج .

Albornóz : البرنس .

Alfaqueque : فكّاك الأسارى .

Albanil : البنّاء .

Albeitar : طبيب بيطرى .

Alhaquin : الحكيم ، الطبيب .

Alarife : العريف ، المهندس المعمارى .

Algara : الغارة .

Atalayas : الطلائع والمراقب والفعل منها Atalayar وتعنى التجسس أيضاً .

Zaga : الساقة أو مؤخرة الجيش .

Adalid : الدليل أو المرشد وتنطبق لفظاً ومعنى على الدليل فى الجيش الاسلامى .

Almogávares : من الكلمة العربية المغاورون أى المجاهدون . وكانت تطلق على وحدات خفيفة من المشاة تشن الغارة على العدو . وقد انتقل نظام المغاورة بلفظه ومعناه إلى طائفة من الجيوش القطلانية والأراجونية فى شمال شرق أسبانيا اشتهرت بالشجاعة ثم شاع وانتشر فى فرنسا ونال شهرة شعبية واسعة فى أوروبا نافس بها نظام الفرسان والفروسية الاقطاعية التى كانت عماد الجيوش فى ذلك الوقت(١) .

Albogue : البوق .

Anafil : النفير .

Tambor : الطبل .

---

(١) انظر :

(A. Gonzalez Palencia : Hist. de la Espana Musulmana , P. 200, 1945) .

Adufe : الدف .

Algazara : صيحات المسلمين فى القتال ، ضجيج ، ضوضاء .

Rebato : رباط .

Arrebatar : يرابط ويقاتل .

Tocar el Rebato : الإنذار بغارة معادية .

Compana del Rebato : ناقوس الخطر .

Alberca : البركة . صهريج .

Albufera : البحيرة .

Almacen : المخزن ، المتجر .

Vega , Vegas : بقعة وبقاع .

Algarrada : العرادة ، المنجنيق .

Almaden : المعدن ، المنجم .

Aldea : ضيعة أو قرية .

Alfoz : الفحص ، الحوز ، الضاحية .

Almacaba : مقبرة المسلمين .

Alhambra : الحمراء .

Alhondiga : الخندق.

Alfondiga : الخندق.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية القديمة

– **أحمد بابا** : أبو العباس أحمد بابا التمبكتى (ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م)

– نيل الابتهاج بتطريز الديباج

كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة ١٣٢٩هـ) .

– **ابن الأبار** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٠٨هـ/ ١٢٦٠م) .

– التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، نشر كوديرا (مدريد ١٨٨٧) .

– الحلة السيراء ، جزءان ، نشر حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) .

– **ابن الأثير** : أبو الحسن على بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)

– الكامل فى التاريخ ، ١٣ جزء (دار صادر ببيروت ١٩٦٧) .

– **الإدريسى**: الشريف أبو عبد الله محمد ابن إدريس الحمودى الحسنى السبتى (ت حوالى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)

– نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

(نابولى – روما فى سبعة أجزاء) (١٩٧٠–١٩٨٤) .

– المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، عن نزهة المشتاق ، نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزى ، دى خويه (ليدن ١٨٦٦) .

– وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (عن نزهة المشتاق) نشر هنرى بيريس (الجزائر ١٩٥٧) .

- وصف الأندلس (عن نزهة المشتاق) نشره وترجمه إلى الأسبانية كوندى Conde (مدريد ١٧٧٩) .

- **ابن الأحمر :** أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م) .

- مستودع العلامة ومستبدع العلامة .

تحقيق محمد التركى ومحمد بن تاويت (تطوان ١٩٦٤) .

- روضة النسرين فى دولة بنى مرين

(طبعة القصر الملكى ، الرباط سنة ١٩٦٢) .

- **ابن بسام :** أبو الحسن على الشنتريني (ت ٥٤٣هـ/١١٤٧م) .

- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .

القسم الأول فى جزأين ، والقسم الرابع الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٩/١٩٤٥) القسم الثالث مخطوط بالأكاديمية التاريخية بمدريد رقم ١٢ .

- **ابن شكوال :** أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٣م) .

- كتاب الصلة فى أئمة الأندلس .

نشره كوديرا فى جزأين (مدريد ١٨٨٣) .

- **ابن بطوطة :** محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

نشره وترجمه إلى الفرنسية فى خمسة أجزاء دفريمرى وسانجونتى .

.Defremery et Sanguinett (Paris 1922)

- كذلك ظهرت لهذه الرحلة طبعة حديثة مستوفاة من أكاديمية المملكة المغربية بالرباط تحقيق عبد الهادى التازى فى خمسة مجلدات سنة ١٤١٧هـ/١٩٧١م .

- **البغداى :** صفى الدين (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

فى ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٥٤) .

- **البكرى** : أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)
- المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب
نشر دى سلان (الجزائر ١٩١١) .
- **البلاذرى** : أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى (ت ٢٧٩هـ/٩٨٢م)
- فتوح البلدان تحقيق صلاح المنجد فى ثلاثة أجزاء . (القاهرة ١٩٥٦)
- **أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق** : (ق ٦هـ/١٢م)
- أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين
نشر ليڤى پروڤنسال (باريس ١٩٢٨) .
- **التجانى** : أبو محمد عبد الله بن محمد (ت حوالى ٧١٧هـ/١٣١٧م)
- رحلة التجانى ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب (تونس ١٩٥٨) .
- **ابن تومرت** : المهدى أبو عبد الله محمد (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨م)
- موطأ المهدى
نشر فى مطبعة فونتانا بالجزائر سنة ١٩٠٧ ، وتوجد نسختان خطيتان من هذا الكتاب فى الخزانة العامة بالرباط تحت رقمى ٤٨٠ج ، ١٢٢٢ج .
- كتاب أعز ما يطلب ، نشره المستشرق المجرى جولدزيهر (الجزائر ١٩٠٣) .
- **الثعالبى**: أبو منصور عبد الملك (ت ٤٢٩هـ/١٠٤٧م)
- يتيمة الدهر ٤ أجزاء (القاهرة ١٩٣٧) .
- **ابن جبير** : محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)
- رحلة ابن جبير ، وعنوانها ، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ،، (دار صادر ، بيروت ١٩٥٩) .

– الجزنائى : أبوالحسن على

– كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس

نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل Bel (الجزائر ١٩٢٣) .

– الجواليقى: أبو منصور موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠هـ)

– المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم

تحقيق أحمد شاكر (القاهرة ١٩٦٩) .

– ابن جر العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)

– الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء

(حيدر أباد الدكن ١٣٥٠هـ)

– رفع الإصر عن قضاة مصر (فى آخر كتاب الكندى ، الولاة والقضاة) .

– ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الأندلسى (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)

– الفصَل فى الملل والأهواء والنِحل فى خمسة أجزاء(القاهرة سنة ١٣١٧هـ)

– نقط العروس ، نشر شوقى ضيف (مجلة كلية آداب القاهرة سنة ١٩٥١ ، المجلد ١٣) .

– طوق الحمامة فى الألفة والآلاف . نشره وترجمه إلى الفرنسية برشيه Bercher كما نقله إلى الإنجليزية نيكل الأمريكى وإلى الروسية يتروف وإلى الأسبانية جارثيا جومث .

– كتاب جمهرة أنساب العرب . نشره ليڤى بروڤنسال فى مجموعة ذخائر العرب سنة ١٩٤٨ .

– الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم السبتى (توفى فى أواخر القرن التاسع الهجرى)

- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار فى خبر الأقطار

نشره وترجمه إلى الفرنسية وعلق عليه المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .

- **الحميدى** : أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)

- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس (القاهرة ١٩٦٦) .

- **ابن حوقل** : أبو القاسم محمد بن على البغدادى اليحصبى (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)

- صورة الأرض ، جزءان (طبعة بيروت) .

- **ابن حيان** : أبو مروان بن خلف بن حيان القرطبى (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)

- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس . وصل إلينا منه أربع قطع منفصلة وهى :

القطعة الأولى : وتتناول عصر الحكم الربضى والجزء الأعظم من عصر ولده عبد الرحمن الأوسط وقد نشره حديثًا المستشرق الأسبانى خواكين بالبيه فى الأكاديمية الملكية التاريخية سنة ١٩٩٩ .

القطعة الثانية : تشتمل على الجزء الأخير من عبد الرحمن الأوسط والشطر الأكبر من عصر ولده محمد . نشره محمود مكى مع مقدمة دراسية هامة عن ابن حيان (بيروت سنة ١٩٧٣) .

القطعة الثالثة : وتتناول معظم عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر . وقد نشرها الأسبانيان شالميتا وكورينطى ومحمود صبح (مدريد سنة ١٩٧٩) أطلقوا عليه الجزء الخامس .

القطعة الرابعة : وتتناول عصر الخليفة الأموى الحكم

المستنصر ونشرها عبد الرحمن حجى (بيروت ١٩٦٥) .

- **أبو حيان الغرناطى** : محمد بن يوسف بن على (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٥م)

- البحر المحيط (القاهرة سنة ١٣٢٨هـ) .

- **ابن حيون** : أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمى المغربى (ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م)

- كتاب المجالس والمسايرات

تحقيق ابراهيم شبوح ، الحبيب الفقى ، محمد اليعلاوى (تونس ١٩٧٨) .

- **ابن خاقان** : أبو نصر الفتح بن محمد القيسى الاشبيلى(ت ٥٣٥هـ/١١٣٤م)

- قلائد العقيان فى محاسن الأعيان (القاهرة ١٣٢٠هـ) .

- **ابن خرداذبه** : أبو القاسم عبيد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٣م)

- المسالك والممالك ، نشر دى خويه

(ليدن سنة ١٨٨٩) .

- **ابن الخطيب** : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام.

أ- الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا نشره ليفى پروڤنسال (بيروت ١٩٥٦) .

ب- الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية نشره أحمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤) نقله إلى الأسبانية Rafael Castrillo بعنوان Historia medieval islamica del Norte de Africa y Sicilia (Madrid 1983) المعهد الأسبانى .

- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب . تحقيق أحمد مختار العبادى (القاهرة ١٩٦٧) .
- الإحاطة فى أخبار غرناطة .
أ- نسخة الاسكوريال رقم ١٦٧٣ .
ب- طبعة القاهرة فى جزأين (القاهرة ١٣١٩هـ) .
جـ طبعة عبد الله عنان فى عدة أجزاء (دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٥ - ١٩٧٧) .
- اللمحة البدرية فى الدولة النصرية . نشر محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٤٧هـ).
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥) نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) (غرناطة سنة ١٩١٦) .
- رقم الحلل فى نظم الدول (تونس ١٣١٧هـ) .
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان
نشر محمد كمال شبانة (القاهرة ١٩٦٦) .
- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة
نشره احسان عباس (بيروت ١٩٦٣) .
- جيش التوشيح حققه هلال ناجى (تونس ١٩٦٧) .
- روضة التعريف بالحب الشريف
تحقيق عبد القادر أحمد عطا (القاهرة ١٩٦٨) .
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من وسائله)
تحقيق أحمد مختار العبادى (الاسكندرية ١٩٥٨) .

- **الخشنى** : أبو عبد الله محمد بن حارث (ت ٣٦١هـ/٩٧١م)

- كتاب القضاة بقرطبة . نشره وترجمه إلى الأسبانية خوليان ريبيرا Ribera وأعاد نشره عزت العطار الحسينى (القاهرة ١٩٥٤) .

- **ابن خلكان** : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد(ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . نشر محيى الدين عبد الحميد فى ٦ أجزاء (القاهرة ١٩٥٠) .

- **ابن خلدون** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ٧ أجزاء (بولاق ١٢٨٤هـ) .

- المقدمة (الجزء الأول من الكتاب) طبعة مصطفى محمد ، المكتبة التجارية بالقاهرة . و هناك طبعة عبد الواحد وافى فى أربعة أجزاء (بيروت ١٩٥٠) .

- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغرباً . نشر محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١) .

- **ابن خلدون** : أبو زكريا يحيى (ت ٧٨٠هـ/١٣٧٨م)

- بغية الروادفى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل Bel (الجزائر ١٩٠٣) .

- **ابن الزبير** : أبو جعفر أحمد

- صلة الصلة . تحقيق ليفى پروفنسال (الرباط ١٩٣٨) .

- **ابن درّاج القسطلى** : أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الأندلسى القسطلى (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) كاتب المنصور بن أبى عامر وشاعره .

– ديوان ابن دراج القسطلي. نشر محمود مكي (دمشق١٩٦١) .

– ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني

– المؤنس في أخبار افريقية وتونس (١٢٨٦هـ) .

– ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (كان حياً عام ٧٢٦هـ)

– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع على الحجر مراراً بفاس أولها سنة ١٨٨٥م ثم طبعة الهاشمي الفلالي طبعة غير كاملة (الرباط ١٩٣٦) ثم نشره تورنبرج مع ترجمة لاتينية (أبسالا ١٨٤٢) وترجمه إلى الألمانية دومباي سنة ١٧٩٤ ، وإلى البرتغالية مورا سنة ١٨٢٧ ، وإلى الفرنسية Beaumier سنة ١٩٦٠ . وأخيراً نشرته دار المنصور للطباعة بالرباط في طبعة أنيقة سنة ١٩٧٢ .

– الزركشي: أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي

– تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩هـ) .

– ابن الزيات : أبو يعقوب يوسف التادلي المعروف بابن الزيات (توفي ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)

– التشوف إلى رجال التصوف . نشر أدولف فور المتشرق الفرنسي (الرباط ١٩٥٨) .

– ابن أبي زمنين : أبو عبد الله محمد(ت ٣٩٨هـ) الصوفي الغرناطي

– قدوة الغازي (مخطوط رقم ٥٧٥ بالكتبة الوطنية بمدريد)

– السبتي : محمد بن القاسم الأنصاري السبتي

– وصف مدينة سبتة (الرن ٩هـ/١٥م)

نشر ليفي بروفنسال في مجلة هسبريس سنة ١٩٣١ العدد ١٢ وأعاد نشرها محمد بن تاويت التطواني في مجلة تطوان، العدد التاسع سنة ١٩٦٤ .

– **السخاوى** : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٦م)
– الضوء اللامع لأبناء القرن التاسع (القاهرة ١٣٥٣هـ) .
– التبر المسبوك (وهو ذيل لكتاب السلوك للمقريزى) .

– **ابن سعيد المغربى الغرناطى** : أبو الحسن على (ت ٦٨٥هـ)
– كتاب رايات المبرزين وغايات المميزين . نشره وترجمه إلى الأسبانية جاريثا جومث بعنوان :

(Las Banderes de los Campeones (Madrid 1942).

وأعاد نشره النعمان عبد المتعال القاضى (القاهرة ١٩٧٣) .
– المغرب فى حلى المغرب. جزءان نشر شوقى ضيف (القاهرة ١٩٦٤) .
– كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض . نشر خوان برنيت (تطوان ١٩٥٨) .
–اختصار القدح المعلى فى التاريخ المحلى . نشر ابراهيم الإبيارى (القاهرة ١٩٥٩) .

– **السلاوى الناصرى** : أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٨٩٧م)
– الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٩ أجزاء (الدار البيضاء ١٩٥٤) .

– **ابن سماك العاملى** : الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ، تحقيق محمود مكى (مدريد ١٩٨٤)

– **أبو شامة** : عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين الدمشقى (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٨م)
– كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية جزءان (القاهرة ١٢٨٧هـ) .
– الذيل على الروضتين . نشره عزت العطار الحسينى الدمشقى بعنوان ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، (القاهرة ١٩٤٧ م).

- ابن الشباط : محمد على بن محمد الشباط المصرى التوزرى(ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)
- ، صلة السمط وسمة المرط ، نشر منه الجزء الخاص بوصف الأندلس أحمد مختار العبادى فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٦٥ ثم أعيد نشره فى كتاب مع نص آخر لابن الكردبوس تحت عنوان ،تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، (مدريد ١٩٧١) .
- الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن أبى القاسم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)
- الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨) .
- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (كان حياً سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م) .
- المن بالإمامة على المستضعفين ، نشر عبد الهادى التازى (بيروت ١٩٦٤) .
- صاعد الأندلس أو الطليطلى (١٠٧٠م)
- كتاب طبقات الأمم .
- الضبى : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبى (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م)
- بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس (مدريد ١٨٨٤)
- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)
- تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٣٢٦هـ) فى ثمانية أجزاء، المكتبة التجارية .
- جامع البيان فى تفسير القرآن . فى ثلاثين مجلداً .
- الطرطوشى : أبو بكر (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م)
- سراج الملوك (القاهرة ١٣٥٤) .
- الحوادث والبدع . نشر محمد الطالبى (تونس ١٩٥٩) .

- **ابن عبد الحكم** : أبو القاسم عبد الرحمن (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م)

- فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة تشارلس تورى Charles Torrey الأستاذ بجامعة ييل Yale بولاية نيوهافن New Haven بأمريكا سنة ١٩٢٢ .
- فتوح مصر وأخبارها طبعة هنرى ماسيه Henri Massé المعهد العلمى الفرنسى (القاهرة ١٩١٤) فى جزأين .
- فتوح المغرب والأندلس نشر وترجمة فرنسية لألفرد جاتو بعنوان :

A. Gateau : Conquete de l'Afrique du Nord et de L'Espagne

- هناك طبعة حديثة للكتاب لعبد المنعم عامر .

- **ابن عبدون** : محمد بن أحمد اليحصبى

- رسالة فى القضاء والحسبة

نشرها ليفى پروڤنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب (القاهرة ١٩٥٥) .

- **ابن العطار** : محمد بن أحمد الأموى (ت ٣٣٠- ٣٩٩هـ)

- كتاب الوثائق والسجلات . تحقيق شاليمتا وكورينطى (المعهد الأسبانى العربى للثقافة مدريد ١٩٨٣) .

- **عبد الله بن زيرى الصنهاجي ملك غرناطة فى عصر الطوائف (٤٦٩ - ٤٨٣هـ)**

- كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة . وقد نشره ليڤى پروڤنسال تحت عنوان :

، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة (٤٦٩-٤٨٣هـ) مجموعة ذخائر العرب رقم ١٨ (دار المعارف مصر ١٩٥٥) .

– العذرى : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)
– ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك نشر عبد العزيز الأهوانى (مدريد ١٩٦٥) .
– ابن العربى : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣هـ/١١٤٨م)
– العواصم من القواصم ، نشر محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٨٧ هـ) .
– ابن العربى : محى الدين (ت بدمشق ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) .
– الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار الملكية .
– العمرى : شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٨م)
– مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار –الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس . نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس .
– التعريف بالمصلطح الشريف (القاهرة ١٣١٢هـ) .
– ابن غالب الغرناطي : محمد بن أيوب
– كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس – تحقيق لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات للجامعة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .
– الغبرينى : أبو العباس أحمد (ت ٧١٤هـ/١٣١٥م)
– عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية – نشر محمد بن أبى شنب (الجزائر ١٣٢٨هـ) .
– الغرناطى : الشريف أبو القاسم محمد الغرناطى (ق ٨ هـ / ١٤م) .
– رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (القاهرة ١٣٤٤ هـ) .

- **ابن فرحون** : ابراهيم بن على اليعمرى (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) .
-الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب (أى المذهب المالكى (القاهرة ١٣٢٩)
- **ابن القاضى** : أحمد بن محمد المكناسى (ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م)
- درة الحجال فى غرة أسماء الرجال . جزءان نشر علوش (الرباط ١٩٣٤) .
- جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس (طبعة حجرية فاس ١٣٠٥هـ) .
- **القزوينى** : زكريا (١٢٠٣-١٢٨٣م)
- آثار البلاد وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . نشر وستنفلد .
- **ابن قتيبة** : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)
- الإمامة والسياسة .
- **القرمانى** : أحمد بن يوسف الدمشقى (١٥٣٢- ١٦١١م)
- أخبار الدول وآثار الأول (طبعة بغداد) .
- **ابن القطان** : أبوالحسن على بن محمد الكتامى الفاسى (ت ٦٣٨هـ/ ١٢٣٠م)
- نظم الجمان فى أخبار الزمان . نشر محمود مكى (الرباط ١٩٦٤) .
- **القلقشندى** : أحمد بن على (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزء .
- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب (القاهرة ١٣٣٨هـ) تحقيق ابراهيم الأبيارى (القاهرة ١٩٥٩) .
- **القشتالى** : أحمد بن ابراهيم الأزدى القشتالى (ت ٦٧٧ هـ) نسبة إلى بلدة قشتال Castril بغرناطة .

– تحفة المغترب ببلاد المغرب . ويتضمن كرامات الشيخ أبى مروان عبد الملك اليحانسى نسبة إلى بلد يحانس من أعمال المرية .

نشره المستشرق الأسبانى فرناندو دى لاجرانخا بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٧٤ .

– **ابن القوطية** : أبو بكر محمد القرطبى المعروف بابن القوطية (ت سنة ٣٦٧ هـ سنة ٩٧٧م .

– كتاب تاريخ افتتاح الأندلس .

نشرة باسكوال دى جايجوس Gqyangos وترجمه إلى الأسبانية خوليان ريبيرا Ribera (مدريد ١٩٢٦) .

– **ابن الكردبوس** : أبو مروان عبد الملك (كان حياً أواخر القرن السادس الهجرى ، ١٢م) .

– كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء – القسم الخاص بالأندلس. نشره أحمد مختار العبادى فى صحيفة المعهد المصرى بمدريد سنة ١٩٦٥ ثم أعاد نشره في كتاب مع نص آخر لابن الشباط تحت عنوان ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، (مدريد ١٩٧١) .

– **الكندى** : أبو عمر بن يوسف (ت ٣٥٠ م / ٩٦١ م) .

– الولاة والقضاة . طبعة روفن جست (بيروت ١٩٠٨) .

– **الماوردى** : أبو الحسن على بن محمد البصرى الغدادى (ت ٤٥٠م / ٩٥٧م) .

– الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ) .

– **المالكى** : أبو عبد الله محمد بن أبى عبد الله االمالكى (القرن الخامس الهجرى ، ١١م) .

– كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم . نشر الجزء الأول حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٠) .

- **المالقى** : أبو الحسن على النباهى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) .
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . تشرليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨) .
- نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٩٥٣) .

- **أبو المحاسن** : جمال الدين بن تغرى بردى (ت ٨٧٤م / ١٤٦٥م) .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ١٩٥٦) .

- **محمد بن غازى المكناسى** :
- الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون (الرباط ١٩٥٢).

- **المراكشى** : عبد الواحد (ت ٦٤٧ هـ) .
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . نشر سعيد العريان ومحمد العربى العلمى (القاهرة ١٩٤٩) .

- **محمد بن حبيب** : كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء العرب . نشره المستشرق الايطالى ليفى دالافيدا Levi Della Vida فى مجلة

Jaurnal of the American Oriental Society, Vol 62, 1942 .

- **المراكشى** : عبد الملك (ت ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م) .
- الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة . نشر احسان عباس ومحمد بن شريفة .

- **أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصارى** : دفين تلمسان (ت٥٩٠م / ١١٩٥م) .
- الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان نشر حاجيات (الجزائر ١٩٨٢) .

–ابن مرزوق :الخطيب أبو عبد الله محمد العجيسى التلمسانى (ت٧٨١هـ) .

– المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن .

نشر وتحقيق مارية خيسوس بيجيرا (الجزائر ١٩٨١) .

– ابن مريم : أبو عبد الله بن محمد التلمسانى

– البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن أبى شنب (الجزائر ١٩٠٨) .

– المسعودى : أبو الحسن على وينتسب إلى عبد الله بن مسعود الصحابى (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) .

– كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر . ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

– التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨) .

– المسعودى : محمد الباجى .

– الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية (تونس ١٣٢٣) .

– المقرى : أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م) .

– نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد فى عشرة أجزاء (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

– أذهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . نشر منه ثلاثة أجزاء تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٤٢) .

– المقريزى : تقى الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) .

– السلوك لمعرفة دول الملك . نشر محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٦) .

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠) .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفا ٣ أجزاء نشر جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨) .

- **مؤلف مجهول** : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها .
نشر وترجمة أسبانية ، لافونتى الكنترا (مدريد ١٨٦٧) .

- **مؤلف مجهول** : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . نشر علوش (الرباط ١٩٣٦) .

- **مؤلف مجهول** : الاستبصار فى عجائب الأمصار نشر سعد زغلول (الاسكندرية ١٩٥٧) .

- **مؤلف مجهول** : كتاب فتح الأندلس . نشر المستشرق الأسبانى خواكين جونثالث (الجزائر ١٨٨٩) .

- **مؤلف مجهول** : نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ، نشر الفريد بستانى ، والأب كارلوس كيروس ، (العرائش ١٩٤٠) .

- **مؤلف مجهول** : مفاخر البربر . نشر ليفى بروفنسال (الرباط ١٩٣٤) .

- **النويرى** : شهاب الدين (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) .
- نهاية الأزب فى فنون الأدب . نشرت دار الكتب المصرية ١٢ جزءاً .

- **النويرى** : محمد بن القاسم السكندرى المالقى المالكى (ألفه سنة ٧٧٥هـ).
- الالمام بالأعلام لما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها إلى حالتها الأولى المرضية . تحقيق عزيز سوريال عطية واتيين كومب فى سبعة أجزاء (المطبعة العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند ١٩٦٨ - ١٩٧٦) .

- **ابن واصل** : جمال الدين بن واصل الحموى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٩٧م) .
- كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

نشر جمال الدين الشيال الأجزاء الثلاثة الأول ثم نشر سعيد عاشور وربيع حسنين الجزأين الأخيرين .

– ابن هذيل : أبو الحسن على بن عبد الرحمن (ق٨ هـ / ١٤م) .

– حلية الفرسان وشعار الشجعان . تحقيق محمد عبد الغنى حسن (القاهرة ١٩٥١) .

– تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس . نشره وترجمه إلى الفرنسية لويس مارسيه بعنوان : Louis Mercier L'ornement des Ames et la devise des Habitants d'el Andalus (Paris 1936) .

– ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله االحموى الرومى البغدادى .

– معجم البلدان . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى فى سبعة أجزاء (بيروت ١٩٩٠) .

ثانيًا - مراجع عربية حديثة

- **الأب انستاس الكرملي**: النقود العربية وعلم النميات (القاهرة ١٩٣٩).
- **ابراهيم أحمد العدوى** : الأمويون والبيزنطيون .
  الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط .
  المسلمون والجرمان (الاسلام فى غرب البحر المتوسط) .
- **أحمد محمد الطوخي** : مظاهر الحضارة فى الأندلس فى عصر بنى الأحمر (الاسكندرية ١٩٩٧) .
- **أحمد أبو زيد** : دراسات أنثرويولوجية فى المجتمع الليبى (فصل عن التوارجة) دار الثقافة سنة ١٩٦٣ .
- **أحمد المكناسي** : المدن المندرسة فى شمال المغرب .
- **أحمد توفيق المدني** : المسلمون فى جزيرة صقلى وجنوب ايطاليا (الجزائر ١٣٦٥ هـ) .
- **أدم متز** : الحضارة الاسلامية فى القرن الربع الهجرى ، تعريب عبد الهادى أبو ريدة (جزءان) .
- **أرشيبالد لويس** : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى . وتقديم شفيق غربال .
- **أشباخ (يوسف)** : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عبد الله عنان (القاهرة ١٩٤١) .
- **أنور الرفاعي** : الاسلام فى حضارته ونظمه (دمشق ١٩٧٣) .
- **أمارى ، ميشيل** : المكتبة العربية الصقلية – ليبسك ١٨٧٥ .
- **الأهواني ، عبد العزيز** : ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة (مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٥٧) .
  – سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ .

(مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة . المجلد السادس عشر مايو ١٩٥٤) .
- الزجل فى الأندلس (القاهرة ١٩٥٧) .
- **جمال الدين الشيال** : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى (الاسكندرية ١٩٦٥) .
- **جمال محمد محرز** : الرسوم الجدارية الإسلامية فى البرطل بالحمراء (مدريد ١٩٥١) .
- **جورجى زيدان** : تاريخ التمدن الاسلامى ، مراجعة حسين مؤنس .
- **جونثالث بالنثيا** : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٥) .
- **جومث مورينو** : الفن الاسلامى فى أسبانيا . ترجمة لطفى عبد البديع ، والسيد عبد العزيز سالم ، القاهرة سنة ١٩٦٨ .
- **حسن أحمد محمود** : قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧) .
- **حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن** : النظم الاسلامية ١٩٦٢ .
- **حسن ابراهيم حسن ، وطه شرف** : المعز لدين الله الفاطمى .
- **حسين مؤنس** : فجر الأندلس (القاهرة ١٩٥٩) .
- غارات النورمانديين على الأندلس (مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد الأول سة ١٩٤٩) .
- تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس (مدريد ١٩٦٧) .
- المسلمون فى حوض البحر المتوسط (مجلة الجمعية التاريخية المصرية مايو سنة ١٩٥١) .
- ابن بطوطة ورحلاته (دار المعارف ١٩٨٠) .
- **حياة ناصر الحجى** : العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية

فى القـرنين الرابع والخـامس عـشـر الميـلادى (الكويت ١٩٨٠) .

- **خوان برنيت** : هل هناك أصل عربى أسبانى لفن الخرائط الملاحية ؟ مـجلة المعـهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ ترجمة أحمد مختار العبادى .

- **خير الدين الزركلى** : كتاب الأعلام (القاهرة ١٩٥٩) .

- **الدباغ (مـحـمـد بن عـبـد العـزيز)** : ابن جـزى كـاتب رحلة ابن بطوطة .
مـجلة دعـوة الحق العـدد العاشر السنة الخـامسة يوليـو سنة ١٩٦٢ .

- **زامـبـاور (ادوارد)** : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى . صنفه المستشرق النمسوى أدوارد فون زامباور. وصـدرت منه طبـعـتـان بالألمانيـة والفرنسيـة . ونقله إلى العربية زكى مـحمد حسن وآخرون . (مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥١) .

- **زكى مـحـمد حـسن** : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥) .
- فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨) .

- **زمامـة (عبـد القادر)** : بعض مشاهير أعيان أهل فاس : أبو عمران الفـاسى ، الغفـجومى (مجلة البحث العلمى ، العدد الثـالث سنة ١٩٦٤ ، والعددان الرابع والخامس سنة ١٩٦٥) .
- المؤرخ الأديب أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر صـحـيـفة المعهد المصرى بمدريد (العدد ١٨ ، ١٩٧٤ / ١٩٧٥) .

- **زيادة (مـحـمـد مصطفى)** : بعض مـلاحظات جديدة فى تاريخ دولة الممـاليك فـى مصـر مـجلة كلية الآداب جـامـعـة القـاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول سنة ١٩٣٦ .

- **ابن زيدان (عبد الرحمن بن محمد)** : اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس طبع منه خمسة أجزاء (الرباط ١٩٢٨ - ١٩٣٣) .
- **سامية مصطفى مسعد** : صور من المجتمع الأندلسى (القاهرة ١٩٩٨).
- **سحر السيد عبد العزيز سالم** : مدينة الرباط فى التاريخ الاسلامى (الاسكندرية ١٩٩٦) .
- **السيد عبد العزيز سالم** : المساجد والقصور بالأندلس (سلسلة اقرأ ، العدد ١٨ ، ١٩٥٨) .
  - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (بيروت ١٩٦٢) .
  - تاريخ المغرب الكبير (الاسكندرية ١٩٦٦) .
  - تاريخ المرية الاسلامية (بيروت ١٩٦٦) .
  - العمارة الاسلامية فى الأندلس وتطورها (مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن ١٩٧٧) .
- **سعد زغلول** : تاريخ المغرب العربى صدر منه أربعة أجزاء (الاسكندرية ، منشأة المعارف) .
  - العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب الموحدى (مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ١٩٥٣) .
  - الاستبصار فى عجائب الأمصار (نشر جامعة الاسكندرية ١٩٥٧) .
  - العمارة والفنون فى دولة الاسلام (الاسكندرية سنة ١٩٨٦) .
- **سعيد عاشور** : أوربا فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦١) .
- **سيكو دى لوثينا** : وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى (١٥م) (مدريد ١٩٦١) .

- **سليمان البارونى النفوسى** : (ت ١٣٥٩ / ١٩٤٠م) .
  - الأزهار الرياضية فى أئمة ملوك الاباضية .
- **شبانة (محمد كمال)** : يوسف الأول بن الأحمر (القاهرة ١٩٦٩) .
- **ابن شريفة (محمد)** : أبو المطرف بن عميرة المخزومى ، حياته وآثاره (الرباط سنة ١٩٦٦) .
- **شكرى فيصل** : حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول الهجرى .
- **شكيب أرسلان** : (ت ١٩٤٦) .
  - تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط .
  - الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية .
- **صلاح خالص** : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى (بيروت ١٩٦٥) .
- **الصديق بن العربى** : كتاب المغرب (سلسلة أعرف بلادك رقم ٣ ، الرباط) .
- **العبادى (أحمد مختار)** :
  - الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية ، نشر رسالة ابن غرسية ، (مدريد ١٩٥٣) نقلها إلى اللغة الانجليزية وعلق عليها : James Monroe : The Shubiyya in Al Andalus, (Univiersity of California, Los Angeles 1976) .
  - دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية ١٩٦٨) .
  - فى تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية ١٩٧٨) .
  - فى التاريخ العباسى والفاطمى (الاسكندرية ١٩٨٢) .
  - فى التاريخ الأيوبى والمملوكى (الاسكندرية ١٩٩٢) .
  - فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية (الاسكندرية ١٩٩٩) .

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام (بيروت ١٩٦٩) .
- البحرية الاسلامية فى مصر والشام بالاشتراك مع السيد عبد العزيز سالم الجزء الأول (الاسكدرية ١٩٨١) .
- البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس بالاشتراك مع السيد عبد العزيز سالم الجزء الثانى (١٩٨١) .
- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس (صحيفة المعهد المصرى بمدريد سنة ١٩٥٧) .
- الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٦٧) .
- الموحدون والوحدة الاسلامية (مجلة التربية الوطنية بالمملكة المغربية مارس ، أبريل سنة ١٩٦٢) .
- دراسة حول كتاب الحلل الموشية (مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠) .
- العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس فى القرن الثامن الهجرى (الكتاب الذهبى لجامعة القرويين بفاس بمناسبة ذكراها المائة بعد الألف ، فاس ١٩٦٠) .
- فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة كما يصفها شاهد عيان (صحيفة المعهد المصرى بمدريد المجلد السابع والثامن ١٩٥٩ - ١٩٦٠) .
- النزعات الاقتصادية فى حياة لسان الدين ابن الخطيب (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) . (نقلها أستاذى جارثياجومث إلى الأسبانية بعنوان Las moviles economicos en la vida de Ibn al Jatib Al Andalus Vol. XX 1955 Fasc. 1) .
- الأعياد فى مملكة غرناطة (صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ١٥ سنة ١٩٧٠)

- مقامة العيد لأبى محمد عبد الله الأزدى (ت سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م) صورة من صور الحياة الشعبية فى غرناطة (صحيفة المعهد المصرى بمدريد العدد ١ - ٢ ، ١٩٥٤) .
- بحث فى الأسلحة النارية فى المغرب والأندلس فى مجلة Hésperis, 1959, Trimestres 3-4 تعليقًا على كتاب البارود والأسلحة النارية فى دولة المماليك David Ayalon : Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom (London 1956) .
- سياسة ابن الخطيب المغربية - مجلة البينة - الرباط ، مايو ١٩٦٢ .
- لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخيه ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس عشر ، العدد الثانى .
- المعراج وصداه فى التراث الاسلامى ، عالم الفكر ، المجلد ١٢ يناير - مارس ١٩٨٢ .
- الاسلام فى أرض الأندلس ، عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثانى يوليو - سبتمبر ١٩٧٩ .
- من التراث العربى الأسبانى ، عالم الفكر ، المجلد الثامن العدد الأول أبريل - يونيو ١٩٧٧ .
- التأثير المتبادل فى الرواية التاريخية العربية الأسبانية ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد المجلد الرابع والعشرون (مدريد ١٩٨٧ - ١٩٩٠) .
- الحياة الاقتصادية فى المدينة الاسلامية ، عالم الفكر المجلد الحادى عشر ، العدد الأول سنة ١٩٧٩ .
- التأثير المتبادل بين الاسكندرية والمغرب ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد المجلد ٢٧ سنة ١٩٩٥ .
- مملكة بنى نصر فى غرناطة ودورها الحضارى ، كلية

التربية الأساسية بالكويت ، الموسم الثقافى ١٩٨٥ - ١٩٨٦ (الكويت ١٩٨٧) .

- الزراعة فى الأندلس وتراثها العلمى (ضمن بحوث ندوة الأندلس ، الدرس والتاريخ ، التى أقيمت بجامعة الاسكندرية من ١٣ - ١٥ أبريل سنة ١٩٩٤ (دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية سنة ١٩٩٥) .

- خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى الأندلسى سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢م ، نص جديد فى تاريخ أوربا والأندلس للمؤرخ القرطبى أبى مروان بن حيان (ت سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٧٦م) مجلة المناهل العدد ٢٩ مارس سنة ١٩٨٤ (المملكة المغربية) .

- تكوين عالم الاسلام ، الباب الرابع ، من كتاب الثقافة الاسلامية الذى أصدرته جامعة الكويت سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ .

- أزمنة التاريخ الاسلامى ، جزءان ، مشاركة فى المراجعة والتحقيق مع عبد السلام الترمانينى وشاكر مصطفى وكتابة الفصل الثالث بعنوان « أحداث مصر الاسلامية والمغرب والأندلس حتى سنة ٢٥٠ للهجرة » (الكويت ١٩٨٢) .

- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) (جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) .

- **العبادى (عبد الحميد) :**

  - المجمل فى تاريخ الأندلس (القاهرة ١٩٥٨) .
  - صور وبحوث من التاريخ الاسلامى (القاهرة ١٩٩٥) .

- **عبادة (كُحيلة) :**

  - أندلسيات (القاهرة ١٩٨٩) .

- تاريخ النصارى فى الأندلس (القاهرة ١٩٩٣) .
- **عباس (احسان) :**
- تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) بيروت ١٩٦٠ .
- تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ١٩٦٢ .
- رسائل ابن حزم الأندلسى ٣ أجزاء (بيروت ١٩٨٠) .
- ديوان ابن حمديس الصقلى (بيروت ١٩٦٠) .
- العرب فى صقلية ، دراسة فى التاريخ والآداب (القاهرة ١٩٥٩) .
- **العطار (سليمان) :**
ترجمة عن الأسبانية لكتاب أميريكو كاسترو حضارة الاسلام فى أسبانيا (القاهرة ١٩٨٣) .
- **عبد الحى الكتانى** : التراتيب الادارية فى المدينة المنورة العلية (الرباط ١٣٤٦ هـ) .
- **عبد الرحمن زكى :**
- السيف فى العالم الاسلامى (القاهرة ١٩٥٧) .
- النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف الاسلامية (صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الخامس العددان ١ - ٢ ، ١٩٥٧) .
- غرناطة وآثارها الفاتنة - المكتبة الثقافية رقم ٢٧٦ .
- **عبد السلام الهراس** : ابن اللبانة الشاعر ، مجلة البحث العلمى بالرباط (مايو - أغسطس ١٩٦٤) .
- **عبد السلام الطود** : بنو عباد باشبيلية (تطوان ١٩٤٦) .

– **عبد العزيز بن عبد الله :**
– معطيات الحضارة المغربية جزءان (الرباط ١٩٦٣) .
– البحرية المغربية والقرصنة ، مجلة تطوان العددان ٣ – ٤ (١٩٥٨ – ١٩٥٩) .
– **عبد الفتاح الزين** : دراسة فى حياة وأعمال الأستاذ عبد الهادى النازى (الرباط ١٩٩١) .
– **عبد القادر الصحراوى** : جولات فى تاريخ المغرب (الدار البيضاء ١٩٦٩) .
– **عبد الله جنون :**
– مدخل إلى تاريخ المغرب .
– النبوغ المغربى فى الأدب العربى .
– ديوان ملك غرناطة ، يوسف الثالث ، نشر وتحقيق (تطوان ١٩٥٨) .
– **عبود (محمد بن عبد السلام)** : تاريخ المغرب (تطوان ١٩٧٥) .
– **عبود (أحمد بن عبود)** : التاريخ السياسى والاجتماعى لأشبيلية فى عهد دول الطوائف (تطوان ١٩٨٣) .
– **عبد الله السويسى** : تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٩٧٩) .
– **عبد العزيز الفيلالى** : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية فى الأندلس ودول المغرب (الجزائر ١٩٨٢) .
– **عبد المنعم ماجد** : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى .
– **عنان (محمد عبد الله) :**
– دولة الاسلام فى الأندلس :
١– العصر الأول من الفتح من نهاية عهد عبد الرحمن عبد الحكم (الأوسط) .
٢– الدول العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية (القاهرة ١٩٥٨) .

٣- دول الطوائف حتى الفتح المرابطى (القاهرة ١٩٦٠) .
٤- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (القاهرة ١٩٦٦) .
٥- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، جزءان ، مترجم عن كتاب المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ (القاهرة ١٩٤٦) .
- تراجم شرقية وأندلسية (القاهرة ١٩٤٧) .

- **عبد الرحمن الجيلالى** : تاريخ الجزائر العام (١٩٥٥) .
- **عبد الهادى التازى** : جامع القرويين المسجد والجامعة بمدنية فاس ٣ أجزاء (بيروت ١٩٧٢) .
- التاريخ الدبلوماسى للمغرب ، عشر مجلدات (فضالة ١٩٦٧) .
- **عصام سالم سيسالم** : جزر الأندلس المنسية (جزر البليار) (بيروت ١٩٨٤) .
- **عبد الوهاب بن منصور** : قبائل المغرب (الرباط ١٩٦٨) .
- **عمر كمال توفيق** : تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٥٧) .
- **على مظهر** : محاكم التفتيش .
- **غازى (السيد مصطفى)** :
- ديوان ابن خفاجة الهوارى الأندلسى (الاسكندرية ١٩٦٠) .
- فى أصول التوشيح (الاسكندرية ١٩٧٨) .
- ديوان الموشحات الأندلسية جزءان (الاسكندرية ١٩٧٩) .
- **غنيمة (محمد عبد الرحمن)** : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى (تطوان ١٩٥٣) .
- **غرسية غومث (اميليو)** : الشعر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس

(القاهرة ١٩٥٢) .

- **فتحى عثمان** : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكام الحربى والاتصال الحضارى .

- **فوزى الفخرانى** : حفائر مدينة ماريا (كتاب اليوبيل الذهبى لجامعة الاسكندرية - كلية الآداب (١٩٤٣ - ١٩٩٣) .

- **كليليا سارنلى** : مجاهد العامرى (القاهرة ١٩٦١) .

- **لستريدنج** : بلدان الخلافة الشرقية . تعريب جورجيس عواد .

- **لطفى عبد البديع** : الاسلام فى أسبانيا .

- **ليفى روفنسال** : محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة عبد الهادى شعيرة (جامعة الاسكندرية ١٩٥١) .

- **ماء العينين** : - (الشيخ محمد الشريف الأدريسى الشنجيطى) .
الجأش الربيط فى النضال عن مغربية شنجيط (الرباط ١٩٥٧) .

- **هونيرباخ** : - البحرية العربية وتطورها فى البحر المتوسط فى عهد معاوية (تطوان ١٩٥٤) .

- **محمد أحمد أبو زهرة** : المذاهب الاسلامية .

- **محمد بوجندار** : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٤٥هـ) .

- **محمد بن تاويت (التطوانى)** : بزوغ الثقافة العربية بالمغرب (مجلة تمودا ، تطوان ١٩٥٦) .
- دولة الرستميين . صحيفة المعهد المصرى بمدريد ١٩٥٨ .

- **محمد التطوانى** : ابن الخطيب من خلال كتبه (تطوان) .

- **محمد الخضرى** : محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية جزءان (القاهرة ١٩١٦) .

- **محمد رضا الشبيبى** : أدب المغاربة والأندلسيين وأصوله المصرية ونصوصه العربية (الجامعة العربية بالقاهرة ١٩٦١) .
- **محمد عبد الحميد** : تاريخ التعليم فى الأندلس (دار الفكر العربى ١٩٨٢)
- **النشار (على سامى)** : أبو الحسن الششترى الصوفى الأندلسى وأثره فى العالم الاسلامى صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ .
- **النشار (محمد محمود)** : تأسيس مملكة البرتغال (القاهرة سنة ١٩٩٧) .
- **محمد بن شريفة** :
  - أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى .
  - أسرة بن عشرة ، مجلة تطوان العدد العاشر ١٩٦٥ .
  - البسطى آخر شعراء الأندلس (بيروت ١٩٨٥) .
- **محمد الشيخ** : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٩٠) .
- **محمد المنونى** :
  - العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين الرباط .
  - نظم الدولة المرينية – من مسالك الابصار للعمرى – مجلة البحث العلمى مايو سنة ١٩٦٤ الرباط .
- **محمد ضياء الدين الريس** : الخراج فى الدولة الاسلامية .
- **محمد العبدى الكانونى** :آسفى وما إليه .
- **محمد عبد الوهاب خلاف** : تاريخ القضاء فى الأندلس من الفتح حتى نهاية القرن الخامس الهجرى (القاهرة ١٩٩٢) .
- **محمد عبد الوهاب الغسانى** : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير . نشر الفريد البستانى (تطوان ١٩٣٩) .

- محمد الفاسى :
- الأعلام الجغرافية الأندلسية (مجلة البينة العدد الثالث السنة الأولى مايو سنة ١٩٦٢) .
- نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المرينى الأدبية (مجلة البينة ديسمبر سنة ١٩٦٢) .

- مكى (محمود على) : مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى أسبانيا (مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الدورة ٦١ شوال - ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ - مارس - أبريل سنة ١٩٩٥ م) .
- التشيع فى الأندلس . صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ١٩٥٤ .
- تاريخ عبد الملك بن حبيب - القسم الخاص بالأندلس - صحيفة المعهد المصرى بمدريد سنة ١٩٥٧ .
- عبد الكريم بن محمد القيسى آخر شعراء الأندلس - مجلة العربى ، أكتوبر سنة ١٩٦٧ .

- مصطفى أبو ضيف (أحمد) : أثر القبائل العربية فى الحياة المغربية خلال عصرى الموحدين وبنى مرين (الدار البيضاء سنة ١٩٨٢) .

- مكى (الطاهر أحمد) :
- ترجمة كتاب الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف لهنرى بيريس (القاهرة ١٩٨٨) .
- ترجمة ملحمة السيد المبارز El Cid Compeador (القاهرة ١٩٧٠) .

- منى حسن أحمد محمود : تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين (القاهرة سنة ١٩٩٠) .

- **ميلياس فاليكروسا** : علم الفلاحة عند المؤلفين العرب تعريب عبد اللطيف الخطيب (تطوان ١٩٥٧) .

- **موريس لمبار** : الذهب الاسلامى ، ترجمة توفيق اسكندر (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦١) .

- **يوسف بن أحمد حوالة** : بنو عباد فى اشبيلية (المملكة السعودية سنة ١٩٨٩) .

ثالثا : المراجع الأوروبية

Abbadi A. Mujtar:

- El Reino de Granada en la época de Muhammad V (Madrid 1973).
- Algunos aspectos de las relaciones historicas hispano-Egipcias. Boletin de la embjada de Egipto enMadrid,25 Julio 1952-1953.
- Lasfiestas profanas y religiosas enel Reino de Granada(M. E. A.H.)(fasc. I,1965-1966).

Aguado Bleye, Pedro:

- Manual de la Historia de Espana. 2 tomos (Madrid 1944-1954).

Alarcon y Linares :

Los Documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragon. (Madrid - Granada 1940) .

Albornoz ; Sanchez :

La Espana Musulmana , 2 Tomos (Buenos Aires 1946) .

Alcover : Miguel :

El Islam en Mallorca (Palma de Mallorca 1930) .

Alfonso el Sabio :

Primera Crónica General de Espana . Publicada por Ramon Menendez Pidal (Madrid 1965).

Alfonso Gamir Sandoval :

Organización de la defensa de la Costa del reino de Granada desde su reconquista hasta finales del siglo XVI.

Alcocer : Mariano Martinez :

Castillos y Fortalezas del Antiguo Reino de Granada (Tanger 1941) .

Alfred Bel :

Les Banou Ghanya (Paris 1903) .

Ali Fahmy :

Muslim sea power in the Eastern mediterranean from the seventh to the tenth century A.D. (Cairo 1950).

Allouche:L.S.:

-La Relation du Seige d'Almeria en 709, H.,(Hesperis XVI 1933).

- Un texte relatif aux Premiers Canons, (Hesperis XXXII 1945).

Amador de los Rios :

Inscripciones Arabes de Sevilla (Madrid 1875).

Angel Canellas :

Aragon y la empresa del Estercho en el siglo XIV (Zaragoza 1946).

Amari:M.:

Conforti Folitici (Frienze 1851) .

Americo Castro :

Espana en su Historia (Buenos Aires 1948).

Argote de Molina :

Nobleza de Andalucia (Sevilla 1588) .

Arie : Rachel :

L'Espagne Musulmane au temps de Nasrides (1232- 1492) (Paris 1973) .

Arnold : Thomas :

The Caliphate (Oxford 1929) .

Arribas Palou :

Las treguas entre Castilla y Granada firmadas por Fernando I de Aragon (Tetuan 1956) .

Ashtor : Elyahu :

- Prix et Salaires dans l'espagne Musulmane aux X et XI siècles . (Annales , Juillet - Aout 1963) .
- Histoire des Prix et des Salaires dans l'Orient medievale (Paris 1969).

Asin : Jaime Oliver :

Origen Arabe de Rebato (Madrid 1928) .

Asin : Palacios Miguel :

-El Islam Cristianizado (Madrid 1935).

-Contribución a la toponimia Arabe de Espana (Mardid 1944).

Ayalon : David :

Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom (Hésperis 1959) .

Ballesteros : A :

- Historia de Espana tomo III (Barcelona 1948) .
- Sevilla en el siglo XIII (Madrid 1913).

Bargés : L'Abbé :

- Histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen (Paris 1959).
- Complement de l'Histoire des Beni Zeiyan , Rois de Tlemecen, ouvrage d Mohammad Abd el Galil al Tenessi (Paris 1887).

Basset et Terrasse :

- Tinmel (Hespéris 1924) .

Benavides : A.:

Memorias sobre la guerra del reino de Granada (Madrid 1945).

Berchem : Max Von :

Titres Califien d'Occident , Journal Asiatique IX, 1907.

Bleda : Fray Jaime :

Crónica de los Moros (Valencia 1618) .

Bosch Vila : J.

- Historia de Albarracin Musulmana y su Sierra (Truel 1959) .

Brunschvig : Robert :

La Berberie Oriental sous les Hafsides . 2 Tomes (Paris 1947) .

Bury : J.B.:

The Naval Policy of the Roman Empire in relation to the western provinces from the 7 th to the 9th century (centenario della nascita di Michele Amari, Palermo 1910) .

Bustamante : Perez :

Compendio dela Historiade Espana (Madrid 1928).

Cabanelas : Dario :

Dicionario de la Historia de Espana desde sus Origenes hasta el fin del siglo reinado de Alfonso XIII (Madrid 1952) .

Caillé : J:

La Ville de Rabat , Histoire et Archeologie 3 tomes (Paris 1949).

Campaner A.Y. Fuertes Alvaro:

Bosquejo dela domicación Islamita en las Islas Baleares (Palma de Mallorca 1888).

Capmany : Antonio :

-Memorias historicas sobre la marina ,comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona , Tomo III y IV (Madrid 1792) .

-Algunos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes de Aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde el siglo XIII hasta el siglo XV (Madrid 1796) .

Garcia de Luna : José :

Historia de Gibraltar (Madrid 1944) .

Caro Baroja :

Los Moriscos del reino de Granada (Madrid 1957).

Cacales ; Francisco :

Discursos historicos de la muy noble ciudad de Murcia (Murcia 1621).

Cernival : P. :

L'Eglise Chretienne de Marrakech , (Hésperis , VII, 1927) .

Codera : Francisco :

- Mochehid ,conquistador de Cerdania , (centenario delle nascita de Michele Amari) (Palermo 1910) .
- Decadencia y Desaparición de los Almorávides en Espana (Zaragoza 1899) .
- Historia Arabe espanola 2 partes (Madrid 1917).

Concise Encyclopedia of Arabic civilization:

(Amesterdam 1959).

Chalmeta : Pedro :

El Senor del Zoco en Espana (Madrid 1973) .

Creasy :

Las Batallas decesivas en la historia del mundo (Espana 1940) .

Cronicas de los Reyes de Castilla , desde Alfonso el Sabio hasta Reyes Catóticos . ed. Rosell. (Madrid 1877) .

Cuartero .Larrea : Miguel :

El Salado , Revista " Ejercito" 1941, ho 13.

De Castries:

Les sources inedites del'histoire du Maroc, Portugal, Espagne I (Madrid -Paris 1921) .

Derenbourg : Hartwig :

Omara du Yemen ,sa vie et son œuvre,2 tomes (Paris 1909) .

Deverdun : Gaston :

Marrakech des Origines a 1912(Rabat 1959) .

Diccionario de Historia de Espana . 2 tomos (Madrid 1952).

Dozy : Reinhart :

- Recherches sur l'histoire et la literature de l'Espagne, 2 tomes (Amesterdam 1965) 3 ed .
- Siupplement aux dictionnaires arabes, 2 tomes (Leiden 1927).
- Noms des Vetements chez les Arabes (Amesterdam 1845).
- Scriptorum arabum loci de Abbadides (Leyde 1863) 3 Vols .

Equilaz y Yanguas : Leopoldo :

Glosario etimologico de las palabras espanolas de origen oriental (Granada 1886).

Encyclopaedia of Islam :

Fernando de la Granja : Fiestas Cristianas en Al Andalus . (Al Andalus XXXIV, fasc. 1969) .

Garcia Gomez : Emilio :

- Cino Poctas Musulmanes (Colleccion Austral n. 513).
- Las Banderas delos Campeones de Ibn Said Al Magrabi (Madrid 1942).
- Elogio del Islam espanol (trad. espanola del arabe As-Saqundi) (Madrid - Granada 1934) .

Gayangos : Pascual de:

The History of the Mohammedan dynasties in Spain . extracted by Ahmad al Maqqari 2 Vols (London 1843) .

Gaspar Remiro : M :

-Historia de Murcia Musulmana .
- Correspondencia diplomática entre Granada y Fes en el siglo XIV. Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn al Jatib (Granada 1916) .

Gimenez Soler ; Andres

- La Corona de Aragon Y Granada, Boletin de la real academia de buenas letras de Barcelona (1905 - 1908) .
- Expedicion de Jaime II a la ciudad de Almeria & el Sitio de Almeria (1309) B.R.A.B.L.B. 1904 no 14 .

Goldziher : I:

Le livre de Mohammed Ibn Tumart , Mahdi des Almohades (Alger 1903) .

Golvin : L :

Le Magreb central a l'epoque des Zirides (Paris 1957) .

Goitten : S.D.:

The Origen of the vizirate and its true character (Islamic Culture Vol. XVI 1942) .

Guzman Reina :

Politica y Melicia en Al Andalus (Cordoba 1969) .

Guide Blue : Maroc .

Guillen Robles : Malaga Musulmana (Malaga 1957) .

Hopkins : J.F.:

Medieval muslim government in Barbary until the sixth century of the Hijra (London 1958) .

نقله إلى العربية أمين توفيق الطيبى (ليبيا-تونس سنة ١٩٨٠)

Imamuddin : S.M.:

Some Aspects of the Socio - Economic and Cultural History of Muslim Spain 711-1492 A.D. (Leiden 1965) .

Huici Miranda : Ambrosio .

-La invasionde los Almorávides y la batalla de Zallaca . (Hespéris 1953) .

- Historia politica del Imperio Almohade , 2 tomos (Tetuan 1956).

- Historia musulmana de Valencia y sur region, 3 tomos (Valencia 1970) .

Julien : André CH:

Histoire de l'Afrique du Nord de la conquete arabe a 1830 (Paris 1952) .

Laoust : Henri :

La Califat dansla doctrine de Rashid Rida (Beyruth 1938) .

Latrie : Mas :

Traités de Paix et de commerce et documents divers conçernant les relations des chretiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen age (Paris 1866) .

Lafuente Alcantara : Miguel :

Historia de Granada, 4 tomos (Garanada 1846) .

Lafuente Alcantara : Emilio :

Inscripciones arabes de Garanada (Madrid 1860) .

Lapidus : Ira :

Middle Eastern Cites . (California 1969) .

Leclerc :Lucien :

Histoire de la Medecine arabe , 2 tomes (Paris 1876) .

Leon Africano : Juan (Al Hasan Ibn Mohammad al Wazzan):

Descripcion de Africa y de las cosas notables que en ella Se encuentran (Tetuan 1952) .

Lévi-Provençal : E :

- Histoire de l''espagne Musulmane ,3 tomes (Paris 1950) .
- La politica africana de Abd al Rahman III (Al Andalus , Vol XI fasc. 2, 1945).
- La Peninsule Iberique du Moyen Age d'après le Kitab Ar-Rawd al Mitar d'Ibn alMunim al Himyari (Leiden 1938).
- Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350) , Melanges William Marçais, Paris 1950) .
-Un Zagal hispanique sur l'expéditión aragonaise de 1309 ,contre Almeria (Al Andalus Vol VI 1941 fasc. 2) .
- Une description de Ceuta musulmane au XV siècle , 9 Héspéris 1931 , tome XII) .
- Un Nouveau Texte D'histoir Merenide . Le Musnad D'Ibn Marzoug (Hesperis t.V 1925 1 Trimestre) .
- L'Espagne musulmane au Xème siècle (Paris 1933) .

Lopez de Ayala: Pedro:

Crónica de los Reyes de Castilla , 2 tomo (Madrid 1779) .

Lopez : Luciano :

La batalla de Covadonga e Historia del Sanctuario (Oviedo 1950).

Lopez Ortiz :

Fatwas Granadinas de los siglos XIV, XV , (Al Andalus Vol. VI 1941 fasc. I) .

Luis Garcia Garcia :

Una Embajada de los Reyes Católicos a Egipto (Pedro Martir) (Valladolid 1947) .

Madalena Luz Pomes :

Los aragoneses en la conquista y Saqueos de Alejandria Por Pedro I de Chipre . Estudio de la edad media de la Corona de Aragon, tomo V .

Marcais:G. :

L'Architecture Musulmane d'Occident (Paris 1954) .

Marià Jesus Rubiera Mata :

El medio literario en el Emirato Nazari de Granada durante la primera mitad del siglo XIV(Ibn al Gayyab y su época) (Madrid 1973).

Maria Jesus Vigvera :

El Musnad de Ibn Marzuq (Madrid 1977) .

Marina : P. :

Historia General de Espana Tomo II . (Madrid 1948).

Mayer : L.A.:

Saracenic Arms and Armor (Ars Islámica Vol. X, 1943) .

Mechlor Antunia : Martinez :

- Conquista de Quesada y Alcaudete por Mohammed II de Granada (Religion y Cultura 1932) .
- Campanias de los Almohades en Espagna (Escorial 1953).
- El poligrafo granadino Ibn al Jatib en la Biblioteca del Escorial (Imprenta del real Monasterio 1926) .

Menéndez Pidal :

Flor nueva de Romances Viejos (Colleción Austral no. 100).

Menendez y Pelayo : M.

Origenes de la Novela (Santander 1943) .

Marcais : George :

- Manuel d'Art Musulmane , 2 tomes 9 Paris 1927).
- Les Arabes en Berberie du XI auXIV siècle (Paris 1913) .

Mercier : Ernest:

Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'a la conquete francaise (1830) 2 tomes (Paris 1888).

Mercier : Louis :

Ornement des Ames et la Devise de Habitants d'El Andalus (Paris 1939) .

Merimee : Prosper:

Histoire de Don Pedro roide Castille (Paris 1865).

Millas Valiecrosa : José Maria.

La poesia sagrada hebraico - espanola (Madrid - Barcelona 1948).

Mogrado :

Historia De Sevilla .

Motylinski :

Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostomides de Tahert , actes du XIV Congress des Orientalistes 3 parties 1907.

Muller : Marcus Joseph :

Beitrage zur Geshichte der westlichen araber (Munchen 1866) .

Muir : William :

The Caliphate , its rise , decline and fall . (Edinburgh 1924) .

Neuman : Abraham :

The Jews in Spain in the middle Ages. 2 Vols (Philadelphia 1948) .

Ocania : Manuel Jimenez :

Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y viceversa (Madrid - Granada 1946).

Palencia : Angel Gonzalez :

- Historia de la Espana musulmana (1945) .
- Historia dela literatura arabijo espanola (Colección Labor III 1945) .

وهذا الكتاب الأخير نقله حسين مؤنس إلى العربية بعنوان تاريخ الفكر الأندلسى (القاهرة ١٩٥٥) .

Paz y Mella :

Embajada del Emperador de Alemania Otto I al Califa de Córdoba Abderrahman III. (Madrid 1872) .

Pérez de Hita : Gines :

Guerras Civile de Granada 2 tomos (Madrid 1915) .

Pérès : Henri :

La poesie andalouse en arabe classique aux XI siécle (Paris 1953) .

نقله إلى العربية الطاهر أحمد مكى (دارالمعارف ١٩٨٨) .

Pedro Longas :

Vida religiosa de los Moriscos (Madrid 1915) .

Pons Boigues : Francisco :

Ensayo bio - bibliografico sobre los historadores y geografos arabigo - espanoles(Madrid1898) .

Prieto Vives : Antonio:

- Los Reyes de Taifas (Madrid 1926) .
- Numismática Granadina (Bol. Ac. Hist. 1932) .
- Formación del reino de Granada (Madrid 1927) .

Prescott : William H. :

History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic (London 1895) .

Ribera : Julian :

- Disertaciones y Opúsculos . Dos tomos (Madrid 1928) .
-La Musica de las Cantigas (Madrid 1932) .

Roque: Chabas :

Historia de la cuidad de Denia (Denia 1874) .

Saavedra : E :

Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana .

Seco de Lucena : louis :

-La Alhambra .
- Sobre el viaje de Ibn Battuta al reino de Granada (Al Andalus Vol. XVI 1951) .

- La Granada Nazari del Siglo XV (Granada 1975) .
- Los Hammudies senoresde Malaga y Algeciras (Granad 1953)
.- Topónimos Arabes (Universidad de Granada 1974) .

Simonet : Francisco Javier :

- Deseripción del reino de Granada bajola dominación de los Naseritas (Madrid 1860) .
- Glosario de Voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes (Madrid 1888) .

Torres Ballas : L. :

- Aspectos delas Ciulades Hispanomusulmanes, Revista del Instituto Egipcio en Madrid Vol. 2 1954 .
-Atarazanas Nispanomusulmanas (Al Andalus 1940).
- Albarranas (Al Andalus 1942) .
-Barbacanas(Al Andalus 1951).
- Rábitashispanomusulmanas(Al Andalus 1948) .

Teresa Pérez Higuera : Objetos E Imagenes de Al - Andalus (Madrid) .

Terrasse et Basset :

Sanctuaires et forteressesAlmohades, (Hésperis 1932).

Vallvé : Joaquin : El Califato de Córdoba (Madrid 1992).

Vaseliev : A:

History of the Byzantine Empire (Madison 1952) .

Wiet : Gaston :

- Histoire de la nation Egyptienne (Paris 1926) .
- Précis de l'Histoire d'Egypte (Le Caire 1932).

Zurita: Gerónimo :

Los anales de la Corona de Aragon (Zaragoza 1699) .

كشـاف عـام

-أ-

– ت –

- ح -

- ش -

– ف –

– ك –

فهرس بموضوعات الكتاب

الفصل الثالث

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس فى عصر الموحدين

(٥٤١-٦٦٨ هـ / ١١٤٧-١٢٦٨م)

الفصل الرابع

صور من حياة الحرب والجهاد بالأندلس فى عصر بنى نصر أوبنى الأحمر

(٦٣٥-٨٩٧ هـ / ١٢٣٨-١٤٩٢م)

ملاحق :

المغرب العربي
أعلى من ٢٠٠٠ متر
١٠٠٠ - ٢٠٠٠ متر
أقل من ١٠٠٠ متر
كيلومتر
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠
البحر المتوسط
البحر الأطلسي
أسبانيا
أشبيلية
غرناطة
قادس
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
العرائش
القصر الكبير
الرباط
مكناس
فاس
الدار البيضاء
الجديدة (مزيغان)
آسفي
أكادير
غساسة
مليلة
تلمسان
وجدة
وهران
مستغانم
معسكر
تاهرت
تنس
شرشال
الجزائر
دلس
بجاية
جيجل
سكيكدة
عنابة
المدية
مليانة
مسيلة
قسنطينة
سطيف
بسكرة
سيدي عقبة
شط ملغيغ
الأغواط
ميزاب
الوادي
تقرت
ورقلة
غرداية
توزر
الكاف
القيروان
سوسة
المهدية
سبيطلة
صفاقس
قفصة
قابس
خليج قابس
خليج تونس
تونس
طبرقة
بنزرت
جزيرة جربة
جبل نفوسة
ليبيا

خليج بسكونيه
مملكة أكوتين
غاليس
خليج ليون
أستورياس
جليقية
مملكة ليون
ليون
أسترقة
برغش
بالنسيا
سمورة
بلد الوليد
ميرانده
البشكنس
نافار
جاقه
بنبلونه
تطيلة
سرقسطة
وشقة
لاردة
برجه
رشلونة
طركونة
الثغر الأعلى
(اراجون)
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
بابسه
بلنسية
شاطبة
دانية
لقنت
مرسية
لورقة
قرطاجنة
المرية
قرطبة
اشبيلية
مالقة
قادس
بحر الزقاق
سبتة
طنجة
تطوان
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
عدوة المغرب
فاس
قبائل زناتة
المغرب الأوسط
وهران
تلمسان
الجزائر
المحيط الأطلنطي
أشبونة
شنترين
باجة
ماردة
بطليوس
طليطلة
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
مدينة سالم
دروقة
وادي آنة
وادي الكبير
اسبانيا المسلمة
(الأندلس)